

TootShamy.Com



[الصفحة الرئيسية](#) :: [المدرسة التعليمية](#) :: [ألبوم الصور](#) :: [مركز التحميل](#)



PDF



WinZip



WinRAR



DjVu



مُقَدِّمَاتِي هتَم المؤلفَة

عِنَمَا صَافِحْتُ عَيْنَايَ أَنْوَارَهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ انْهَمَرَتِ النَّمُوعُ
مِنْهَا حَارَةً غَزِيرَةً ، وَرَاحَتِ تَغْسِلُ وَجْهِي . وَلَمْ أَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ
مِمَّا تَخَيَّلْتُ أَنَّي سَوْفَ أَقُولُهُ عِنْدَهَا أَوْ أَدْعُو اللَّهَ بِهِ . . . هَرَبْتُ مِنْ
الكَلِمَاتِ وَالدَّعَوَاتِ ، وَعَبَثًا حَاولْتُ أَنْ أَجِدَهَا .
وَعِنَمَا صَافِحْتُهَا عَيْنَايَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَانَ بِي شَوْقٌ مَتَوَهِّجٌ
وَلَهْفَةٌ وَحَنِينٌ فَانْدَفَعْتُ إِلَيْهَا بِفَرَجَةٍ غَامِرَةٍ وَأَنَا أَرِيدُ الكَلِمَاتِ بِلَا
نِظَامٍ وَلَا تَرْتِيبٍ ، وَكَأَنَّي طِفْلٌ أَعَانُوهُ إِلَى صَدْرِ أُمِّهِ بَعْدَ حَرَمَانٍ
طَوِيلٍ .

وَلَمَّا تَكَرَّرَ اللِّقَاءُ وَالمَصَافِحَةُ وَرَبِطَ الِوَدَّ وَالأَلْفَةَ بَيْنِي
وَبَيْنَهَا . . . أَصْبَحْتُ كَلِمَاتِي عِنْدَهَا مَحْدَدَةً مَرَكِّزَةً ، وَأَصْبَحْتُ
جَلِيسَاتِي فِي مَوَاجِهَتِهَا تَمْتَدُّ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً ، وَقَدْ يَتَّصِلُ فِيهَا النَّهَارُ
بِاللَّيْلِ ، وَقَدْ يُقْضَى اللَّيْلُ بِهَا إِلَى الفَجْرِ . . . وَمَا أَعْنَبَ لِحَضَاتِ
الفَجْرِ عِنْدَهَا .

قال لفظ عصرى مفهوم ، هي المبدعة في هذا الفن إن شاعت ،
وهي البارعة في الصياغة إذا آرادت ، فالقلم لها طبع ، والخطر
عندها سائح ، وسهولة التعبير من مميزاتا ، فلزمنى تلك
الطلب ، وجئت أكتب هذه الكليمة ، بعد أن آجلت باصرتى في
طيات الكتاب ، وعلقت بما تيسر وسمح به الوقت ، مع علمى بأن
غيرى آجدر منى بالإشادة بما عملت ، وآقدر على الثناء على ما
صنعت ، وعلى التعليق على ما جمعت ، غير آتى ملت عن تيقنى في
عدم كتابة المقدمات والتقاريط إلى ما رغبت فيه الأنبية الفاضلة ،
فثقتها بى أولى ، ولها منا الشكر والتعمى .

وكتب نلكم

أبو تراب الظاهرى

عفا الله عنه

تَقْدِيمٌ

كتب كثيرون عن الكعبة المشرفة - زادها الله تكريماً
وتعظيماً - أفراداً بتأليف ، وتضميناً في كتاب ، وليس هذا مجال
تعداد الأسماء والمسّميات ، وإنما نودّ أن نقول هنا : إن الكعبة
هى الكعبة على رغم الأحداث والوقائع التى عاصرتها ، فمن حقها
على من يعتقد بينها ، ثم أوتى حظاً من العلم أن يكتب عنها
ويؤرخ ، لأننا بفضلها أصبحنا أمة تاريخ بعد أن لم يكن لنا
تاريخ .

أما هذا الإسهام من الأخت الفاضلة ، الأبيبة الكاتبة
المحلقة « أمينة الصاوى » فهو مجهود تشكر عليه ، لعله يكون
نواة لتاريخ الكعبة الكبير الذى طواه الزمن ، وغارت فى خضمّه
الحوادث ، فما تبيّن ملامحها إلا من خلال النّتف التى استطاع
الرّبّ أن يقيدها فى أصوله ومراجعته .

وطلبت منى الأخت الكريمة « أمينة الصاوى » أن أراجع
مجموعها هذا الذى هضمت وأعيته معلوماته ، ثم سكتبتها فى

أحاديث ، ومحاضرات ، وانتصارا للظلم ، وتصيحة
لحاكم .

وابفته الفاضلة حينما ألفت هذا الكتاب النفيس إنما تقتبس
من والدها بعض نشاطه :

والله نرجو أن ينفع بها ويكتابها ...
وبالله التوفيق ...

((دكتور/ عبد العظيم محمود))



إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه) أو كما قال .

والبيت الحرام هو هذا البيت الذي يؤخذ فيه العبد بنيته –

وإن كانت شرا أو إلحادا – ورب العزة يقول :

(وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظَلَمٍ نُقُوهَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) .

هذه بعض المعانى التى تقدمها الدراسة حول الكعبة

للعظمة : تاريخا وعقيدة ومناسك وشعائر وأهدافا .

وكل ذلك وغيره من هذه الدراسة – دون ماشك – يسهم

إسهاما جليلا فى ربط المسلم بأشرف مقدساته الإسلامية ، ويحى

فى قلبه الحنين والشوق دائما إلى لقاء ربه فى بيته المقدس حاجا أو

معتبرا ، وفى ركوعه وسجوده ، وفى حركته وسكونه ونومه ويقظته

أينما كان وحيثما حل .

وكل ذلك من المعانى الكريمة الخليقة بأن تلقى عناية السيدة

الفاضلة – أمينة الصلوى ، لتقديمها للمسلمين خالصة لله

ولرسوله وللمؤمنين .

والمؤلفة الفاضلة هى ابنة استاذنا الفاضل الشيخ مصطفى

للصلوى وقد حضرنا عليه أيام أن كان أستاذا مرموقا بمعهد

الزقازيق الأزهرى ، وكان رحمه الله شعلة من النكاء والعلم ،

وحركة لا تفتر فى العمل على النهوض بالمجتمع

(أما الإبل فهي لى ، وأما البيت فله رب يحميه)
لقد حمى الله بيته ، وعبرت عن تلك آيات القرآن الكريم في
بلاغة لا تعدُّ لها بلاغة :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
فِي تَضَلُّيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ
سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

وعبر عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح مكة
فقال :

(إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله
والمؤمنين ، وإنها لم تحل لأحد كان قبلي ، وإنما أُجِلَّتْ لى ساعة من
النهار ، وإنها لن تحل لأحد بعدى)

والبيت الحرام هو هذا البيت الذى إذا ذكر اسمه جاشت
خواطر المؤمنين وزاد حنينها لزيارته تلبية لدعوة السماء :

(وَأَنَّ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .

والبيت الحرام هو هذا البيت الذى تتضاعف فيه الحسنات
وتكثر فيه وبه الخيرات ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن
بعض ذلك فيقول :

(صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه)

وقد امتن الله سبحانه على أهل هذا البلد بهذا فقال :
(أولم نكن لهم حرمًا آمنًا يُجيبني إليه ثمراتُ كلِّ شيءٍ ، رزقًا
من لدنَّا ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون) .

لقد بدأت حرمة هذا البلد منذ زمن قديم ، لاقى عهد آدم
والأنبياء وحسب ، بل منذ خلق الله السموات والأرض وإلى يوم
القيامة ، كما أكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما
أخرجه الإمام مسلم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

(إن هذا البلد حرَّمه الله يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ ، فهو
- زامٌ بحرمةِ الله إلى يومِ القيامةِ) . وأمر الله رسوله صلى الله عليه
وسلم أن يقول :

(قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدِ الَّذِي حَرَّمَهَا) .

وقد ظهرت علامات هذا الحفظ لبيت الله الكريم على مر
الأيام والعصور فلم تقن قواعده ولم ينمح أساسه الذي أُتسَّس
عليه ، ولم تستطع قوة الغزاة أن تصل إليه قاصدة الهدم
والتخريب ، وما قصة أصحاب القيل منا ببعيد . . .

لقد قصده أبرهة الحبشى على رأس جيش جزار تنقمه
جحافل القوات يتصدرها الأبطال والأفيال لهدمه وصرف الناس
عنه ، وكانت كلمة عبد المطلب في سماع التاريخ .



مُتَدَرِّجٌ

بقلم : الدكتور عبدالحليم محمود

شيخ الأزهر السابق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه وعمل بسنته إلى
يوم الدين .. ويعد ..

فإن في تاريخ العقائد آثارا جليلة كانت محل الاهتمام
والدراسة منذ زمن سالف ، وكانت العناية بها لما لها من منزلة في
حياة الأفراد والأمم – وبخاصة هؤلاء – الذين ينتمون إلى تلك
العقائد على مر الأيام والعصور .

والكعبة المعظمة من هذه الآثار الجليلة – تاريخا وعقيدة –
فهى أول بيت مبارك وضع للناس ، حفظه الله وامنه وباركه وجعله
منارا للهداية .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
آمِنًا ..)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

” إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا
وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ • فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ •
مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا • وَاللَّهُ
عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا “
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمَ

- المالكيت .. : محمد عفت
- صورة الكعبة : تصوير مصطفى اسماعيل

المجلة الصاوي

المجلة الصاوي

● العدد ٢٨٢ ● مايو ١٩٨٨ ●

كتاب اليوم

أمته

مصطفى أمين وعلى أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الإدارة :

طلعت الزهيري

العدد رمضان ١٤٠٨ هـ

٢٨٢ مايو ١٩٨٨ م

أيار

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولي ٩٢٢١٥ - محلي ٩٢٢٨٢

الإشتراقات

جمهورية مصر العربية

قيمه الاشتراك السنوي ٦ جنيه مصري

البريد الجوي

دول اتحاد البريد

الغربي والافريقي ١٣ دولار امريكي او ما يعادله

باقي دول العالم اوريا ٢٠ جنيه مصري

والايمريختي واسيا واسرالنا ١٨ دولار امريكي او ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن سته شهور

● ترسل القيمة إلى الإشراقات ٣ اش الصحافة

القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار

كتاب اليوم

المغرب	٢٠ درهم
لبنان	٥٠٠ ليرة
الأردن	٦٠٠ فلس
العراق	١٥٠٠ فلس
الكويت	٧٠٠ فلس
السعودية	٧ ريال
السودان	٥٠٠ قرش
تونس	١٤٠٠ مليما
الجزائر	١٧٥٠ سنتيما
سوريا	١٤٠٠ ق س
الجبسة	٦٠٠ سنت
البحرين	٨٥٠ فلس

في الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ روبية
سويسرا	٤ فرنك
اليونان	١٠٠ دراخمة
العمسا	٤٠ شلن
الدنمارك	١٥ كرونات
السويد	١٥ كرون
الهند	٣٥٠ سنننا
كندا امريكا	٣٠٠ سنت
البرازيل	٤٠٠ كرويزو
سولوروا انشطر	٣٥٠ سمفا
نوبس انجلوس	٤٠٠ سننن
استراليا	١٠٠ سننن

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ٨٨ / ٣٦٢٤

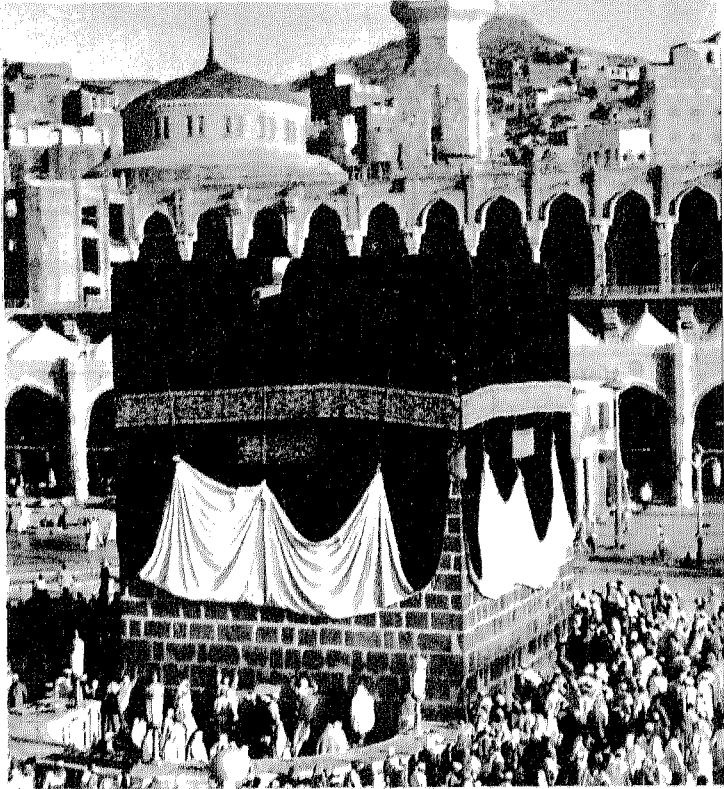
الترقيم الدولي ٧ - ٢٤٠ - ١٢٤ - ٩٧٧ - ISBN

كتاب اليوم

أمينة الصاوي

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم
● العدد ٢٨٢ ● مايو ١٩٨٨ ●

الكعبة المشرفة



وكننت في جلساتي إليها أتأملها وأستعيد ما أعرف من أخبارها ، وتمنيت في أكثر من مرة أن أعرف كل شيء عنها . . عن هذا المكان الطاهر المقدس الذي حجّ إليه الملائكة والأنبياء ، وفرض الله على عباده الحج إليه ، والذي جعله الله مثابة للناس وأمناً . . فيه يأمن الخائف ، ويطمئن المروء ، وفيه تحقنّ الدماء المهترئة .

وجعلت همّي أن أجمع الكتب والمراجع عن الكعبة من كل مكان ، ويكل وسيلة ، وعندما حصلت على بغيتي . : (انقطعت) للقراءة والدراسة والاطلاع والمقارنة ، وانتهيت من ذلك كله ، وذهبت إليها وقد استقرّ في نفسي الكثير عنها ، وازدادت توطد الألفة والصدقة بيني وبينها ، ووجدتني أقف أمام بابها مستندة إلى سياج بئر زمزم وأنا أقول لنفسي : لم يبق إلا أن أدخل إليها ، ودعوت الله أن يمنحني هذا الشرف .

وعندما منّ الله عليّ بالدخول إليها أخذت أرتقى الدرج بأقصى ما أستطيع من السرعة ، وكانني أخشى أن يجول بيني وبين الدخول حائل . وعندما وجبتني أقف على عتبة الباب أعلى الدرج شعرت بأن ماضئ كلّه قد انفصل عن حاضري تماماً ، وأنني في لحظة ليست كباقي لحظات العمر التي عرفتتها من قبل . . لحظة وجود جديد . . ميلاد روحي يتم وسط أنوار تتلألأ ، وتكبيرات

فقيل : (الْمَعْرَفُ « ١ ») أم للناس جميعاً يارسول
الله (٩٠٠) .

فقال عليه أزكى السلام :

(بل الناس عامة) .

- والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة وفريضة وعبادة .
- والحج تطهير وتوبة وغفران .
- والحج تضحية وإيثار ومساواة .
- والحج دستور للحياة وإقرار لحقوق الإنسان .
- والحج وحدة وتعاون وقوة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً

• « ٩٧:٣ »

(صدق الله العظيم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَأَنْتَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ
مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٢:٢٧ » (صدق الله العظيم)

قال صلى الله عليه وسلم :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا)

(١) « المعروف ، المعروف : من أتى عرفة محرماً ١٠ هـ

« ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء فيقول :

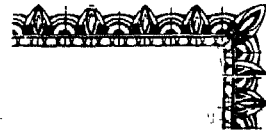
انظروا إلى عبادى شعثاً غُبْرًا ضاحينَ جاؤوا من كل فج عميق يرجون رحمتى ولم يرونى ويتعَوّنون من عذابى ولم يروه أشهدكم ياملائكتى أنى قد غفرت لهم » .

هذه الأيام العشرة الحافلة بالذكرىات الخالدة العزيزة على كل نفس . . . والتى يلتقى فيها الحجاج بربهم فى بيته وينزلون ضيوفاً عليه سبحانه . . . عند زمزم والمقام والمشاعر العظام . . . يطوفون ويركعون ويسجدون ويسبحون على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم ولغاتهم وجنسياتهم . . . فيجتمعون فى مكان واحد ألوفاً مؤلفة مجريدين لافرق بين غنى وفقير . . . عظيم وحقير . . . يدعون رباً واحداً ويهتفون هُتافاً واحداً . . . (لبيك اللهم لبيك . . . لبيك لاشريك لك لبيك . . . إن الحمد والنعمة لك والملك . . . لا شريك لك) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إذا كان يوم عرفة لم يبق أحد فى قلبه مثقال نرة من إيمان إلا غفر له) .



حجّة الوداع



لا ينبغي لنا أن نفرغ من هذه الدراسة قبل أن نستعرض
حجة الوداع التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم . . . وأن
نعيش معه تلك الأيام العشرة الأوائل من شهر ذي الحجة التي
فضلها الله سبحانه وتعالى فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ
إِذَا يَسَّرُ * هَلْ فِي نَيْلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ١٨٩ : ١ - ٥)

(مسق الله العظيم)

وإني أنزل فيها عز وجل الآيات البيّنات . . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْيَوْمَ يَبَسُّ النِّينَ كَفَرُوا مِنْ بَيْنِكُمْ * فَلَا تَحْشَوْهُمْ
وَإخْشَوْنِ * الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ * وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي * وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ٣ : ٥ » . (مسق الله العظيم)

والتي قال عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

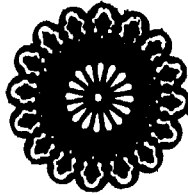
« ما من أيام العمل الصالح فيها أحبَّ إلى الله من هذه

الأيام » .

ويقول عليه أزكى السلام عن أحدهما وهو يوم عرفة :

وستورها والصفائح التي كانت تغطى الباب سنة ٤٦٢ هجرية .
وذكر التَّقِيُّ الْقَاسِيَّ في كتابه (شفاء الغرام في حوادث ٤٠٢ هجرية) : أن الوزير أبا القاسم المغربي لما قتل الحاكم آياه هرب إلى آل الجراح واستجار بهم فبعث إليهم الحاكم من حاربهم فكان النصر لآل الجراح - فحسن لهم الوزير المغربي عزل الحاكم ومبايعة أبي الفتوح بمكة وحسن له طلب الخلافة - فاعتذر له بقلّة المال فنصحه بأخذ مال الكعبة . ولم يزل به حتى أخذ مال الكعبة وأموالاً أخرى لتجار من جدة .

ويذكر التاريخ عدا ذلك الكثير من الحوادث التي تعرضت فيها الكعبة بأموالها وكنوزها للسرقة والنهب ومختلف ألوان الاعتداء . ولكننا نكتفى بما تقدم لأهميته وإجماع المصادر والمراجع كلها على صحته .



وقال الحافظ بن حجر : إن الفاكهي روى عن طريق علقمة ابن أبي علقمة - أن أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها قالت (دخل عليّ شَيْبَةُ الْحَجَبِيِّ فقال - يا أم المؤمنين إن ثياب الكعبة تجتمع عندنا فتكثر فننزعه ونحفر آباراً نَعْمَقُهَا وندفنها لكيلا تلبسها الحائض والجنب - قالت (بئسما صنعت ولكن بعها فاجعل ثمنها في سبيل الله وفي المساكين فإنها إذا نزعت عنها لم يضر من لبسها من حائض أو جنب) . فكان شيبه يبعث بها إلى اليمن فتباع له فيضعها حيث أمرته .

وروى نجم الدين بن فهد القرشي في (إتحاف الوري) عند تعرضه لذكر حوادث عام ٢٠٠ هجرية أن الحسين بن الحسن الأقطس أخذ ما في خزانة الكعبة وكان مالا عظيماً وقال (ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعاً لا ينتفع به . نحن أحق به نستعين به) ثم قسمه على نفسه وأصحابه وقسم الكسوة أيضاً . وكرر ابن فهد في حوادث سنة ٢٦٦ هجرية : أنه في يوم التروية قدم محمد بن أبي السَّاجِ مكة فحاربه المخزومي ولكن محمداً هزمه واستباح ماله ثم وثب أصحابه على كسوة الكعبة وانتهبوا .

كذلك فقد ذكر ابن فهد : أن أمير مكة أبو هاشم محمد بن جعفر المعروف بابن أبي هاشم الحَسِينِيَّ أخذ قناديل الكعبة

التصرف في أموال الكعبة وكوزها

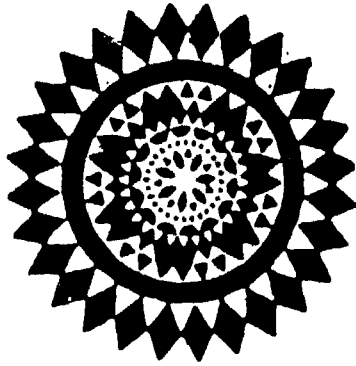
تعرضت الكعبة وما فيها من كنوز وأموال وما عليها من كسوة وحلى عبر القرون والعصور للكثير من حوادث السرقة والنهب . . . كما تعرضت للكثير من التصرفات الأخرى . . . وقد تحدثنا في فصول سابقة عن بعض هذه السرقات . . . وسوف نتحدث هنا عن التصرفات الأخرى السليمة منها وغير السليمة :

روى الأزرقى في كتابه (أخبار مكة) أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد في الجب^١ الذي بالكعبة سبعين أوقية من ذهب مما كان يهدى إليها وأن علياً كرم الله وجهه قال (يا رسول الله لو استعنت بهذا المال على حريك) فلم يحركه الرسول الكريم .

وروى عن الحسين بن علي أن عمر رضى الله عنه قال لعلي كرم الله وجهه : (لقد هممت أن أقسم هذا المال) فقال له علي (إن استطعت ذلك) فقال عمر (ومالي لا أستطيع ذلك ؟ أو لا تعينني على ذلك ؟) فقال علي : (إن استطعت ذلك) فريدها عمر ثلاثاً ، فقال علي كرم الله وجهه : (ليس ذلك إليك) فقال عمر (صدقت) .

(١) « في الجب » هو البئر التي كانت بالكعبة ، يطرح فيها ما يهدى لها ١٠ هـ

ويلى سدنة الكعبة طبقة من الخدم - العبيد والأغوات -
وهؤلاء قد أعتقوا وعاشوا لخدمة الكعبة وتنظيف البيت ولهم
مراتب شهرية ولهم رتب وظيفية وعليهم حفظ مفاتيح الغرف التي
تحتوى أدوات التنظيف والأدوات الصحية وغيرها . . . ومهمة
هؤلاء . . . هى كنس مدار المطاف وِحجر إسماعيل وتنظيم
صقوف المصلين وملاحظة تصرفات الوافدين على الحرم من
الأطفال والصبيان وغيرهم .



وروى الفاكهي عن الحسن أنه قال :

– الصلاة في الكعبة تعدل مائة ألف صلاة

وروى الفاسي عن الحسن البصري في رسالته المشهورة

قال :

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دخل الكعبة

دخل في رحمة الله عز وجل وفي حمى الله تعالى وفي آمن الله عز وجل

ومن خرج خرج مغفوراً له) .

وقال الفاسي :

– اتفق الأئمة الأربعة على استحباب دخول البيت .

واستحسن مالك كثرة الدخول .

وقد روى النسائي في سننه عن أسامة بن زيد أنه دخل مع

النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فمضى الرسول الكريم حتى

إذا كان بين الأُسْطُوَانَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَلَيَّانِ بَابَ الْكَعْبَةِ جَلَسَ فَحَمِدَ اللهُ

وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَهُ ثُمَّ قَامَ حَتَّى آتَى مَا اسْتَقْبِلُ مِنْ دُبُرِ الْبَيْتِ

فَوَضَعَ وَجْهَهُ وَخَدَّهُ عَلَيْهِ فَحَمِدَ اللهُ وَشَكَرَهُ وَسَأَلَهُ وَاسْتَغْفَرَهُ ثُمَّ

انصرف إلى كل ركن من أركان الكعبة فاستقبله بالتكبير والتهليل

والثناء على الله والمسألة والاستغفار ثم خرج " ١ " .

(١) ، ثم خرج « كان ذلك في فتح مكة ، وكان مع أسامة بلال ، وعثمان بن طلحة –

ولا احد معهم ، واغلقوا الباب ، وتَمَتَّتُوا حيناً ، ووصل رسول الله في داخل الكعبة – كما في

كتب السنة ١٠ هـ .

والفَجَارِ الثَّانِي «١» ٠٠ ثم جاءَ من بعده أَبُو سَفِيَّانِ بْنِ أُمِيَّةَ فَقَادَ
بَعْدَ أَبِيهِ حَتَّى كَانَ يَوْمَ بَدْرِ فَقَادَ النَّاسَ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ثُمَّ عَادَ أَبُو
سَفِيَّانِ فَقَادَ النَّاسَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ، وَكَانَتْ آخِرَ وَاقِعَةٍ ٠٠ ثُمَّ جَاءَ
اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَفَتَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ ٠

وَتَعْتَبَرُ حِجَابَةُ الْكَعْبَةِ مِنْ أَوَّلِ وَأَهَمِّ أَعْمَالِ السَّدَانَةِ ٠٠ أَوْ
هِيَ أَكْبَرُ الْوُضَائِفِ السَّدَانِيَّةِ عَامَةً ، وَأَصْحَابُهَا هُمُ الَّذِينَ يُشْرَفُونَ
عَلَى قَنْحِ بَابِ الْكَعْبَةِ الْمُعْظَمَةِ وَيَدْخُلُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا ٠

وَيَدْخُلُونَ الْكَعْبَةَ الْمُعْظَمَةَ مِنْ قِصَائِلِ الْأَعْمَالِ وَالسَّنَنِ
الْمُسْتَحْبَةِ ٠٠ فَقَدْ دَخَلَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٠٠ وَكَانَ
الْمَلُوكَ وَالْأُمَرَاءَ وَالْعُظَمَاءَ وَكِبَارَ الْقَادَةِ فِي الرَّأْيِ وَالْفِكْرِ وَالْعِلْمِ -
كَانُوا وَلَا يَزَالُونَ يَتَهَاقَتُونَ عَلَى دُخُولِ الْكَعْبَةِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا
وَيَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ شَرْفًا مَا بَعْدَهُ شَرَفٌ ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(من دخل البيت وصلى فيه دخل في حسنة وخرج من سيئة
مغفوراً له) ٠

(١) - والفجار الثاني - سميت بالفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم ، فقالوا : قد
فجرنا - وفي مجمع الأمثال (ج ١ ص ٢٦) . أيام الفجار اربعة افجرة - الاول بين كنانة
وهوازن . والثاني بين قريش وكنانة ، والثالث بين كنانة وبنو نصر بن معاوية ، والرابع -
وهو الأكبر - بين قريش وهوازن - وبينه وبين مبعث الرسول ست وعشرون سنة ، وشهده
الرسول وله اربع عشرة سنة ١٠ هـ .

الحجيج ٠٠ ولما توفي عبد المطلب تولى أمر السقاية بعده العباس
ابن عبد المطلب فلم تزل في يده حتى جاء الإسلام ودخل رسول الله
صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح فقبض الحجابة من عثمان
والسقاية من العباس ٠٠ فقال العباس :
- يا رسول الله بأبي أنت وأمي ٠٠ اجمع لنا الحجابة
والسقاية ٠٠

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعطيك ما ترزؤون
فيه ولا ترزؤون به) . فقام صلى الله عليه وسلم بين
عضادتي باب الكعبة فقال :

(ألا إن كل دم أومال أو مآثرة كانت في الجاهلية ٠٠ فهي
تحت قدمي هاتين إلا سقاية الحجاج وسدانة الكعبة ٠٠ فإني قد
أمضيتها لأهلها على ما كانتا عليه في الجاهلية) .

وأما القيادة فقد وليها من بنى عبد مناف عبد شمس ثم وليها
من بعده ولده أمية ، ومن بعده ولده حرب الذي قاد الناس يوم
عكاظ في حرب قريش وقيس عيلان ، وفي الفجارين الفجار الأول ،

وأما السقاية فقد كانت في يد عبد منافٍ كذلك ٠٠ وكان يحضر الماء من بئر (كُرَّادَمَ) «١» ويئر (خُمِّ) «٢» ثم يسكب هذا الماء في حياض بفناء الكعبة ليشرب منه الحاج ٠٠ وذلك لأن بئر زمزم كانت في ذلك الوقت مطموسة ومكانها غير معروف فلما آل الأمر إلى هاشم بن عبد مناف حفر بئر (بَنَّرَ) «٣» ثم بئر (سَجَلَةَ) «٤» وظل يسقى الناس حتى مات فقام بأمر السقاية من بعده عبيد المطلب بن هاشم ٠٠ فلم يزل الأمر كذلك حتى أعاد حفر زمزم وتطهيرها فكانت بركةً عليه وعلى الحجاج جميعاً ٠٠ ولا تزال كذلك ٠٠

وكان لعبيد المطلب إبل كثيرة فكان إذا حل الموسم جمع لبنها يومياً وأضاف إليه العسل وسكب الخليط في حياض الكعبة ليشرب

(١) « كُرَّادَمَ » الكر - بالضم والفتح - هو القلب ، وهذه البئر تسمى : بئر آدم ، بين المعلاة ومعنى ١٠ هـ -

(٢) « خُم » خُم ، رَم : بئران ، حفرهما عبدشمس بن عبدمناف ، وهما بمكة ، وقال الشعراء :

حفرت خمًا وحفرت رما حتى ترى الجدلاً قد تما

وقيل : خُم ، حفرها مرة بن كعب بن لؤي ، وهذه البئر غير خُم التي بين مكة والمدينة ١٠ هـ -

(٣) « بَنَّرَ » بئر بمكة لبني عبدالدار - ونكر : ان هاشم بن عبد مناف ، هو الذي حفرها ، وهي عند خظم جبد الخدمة على فم شعب ابي طالب ١٠ هـ -

(٤) « سَجَلَةَ » بئر حفرها هاشم ، فوهبها أسد بن هاشم لعدي بن نوفل ، وقيل : حفرها قصي ١٠ هـ :

أما الرفادة والسقاية والقيادة فلم تزل لعبد مناف بن قُصَيِّ
فيقوم بها هو وأولاده حتى توفى ٠٠ فولَّى بعده عمرو بن عبد مناف
السقاية والرفادة وولَّى عبد شمس القيادة ٠

وكان عمرو بن عبد مناف يطعم الناس في كل موسم بما
تجمع عنده من ترافد قريش ٠٠ إذ كان يأخذ من كل نبيحة تُذبح
فَحَذَّهَا ويشترى الدقيق من ماله الخاص ثم يُولم اللوائِمَ ويُطعم
الحجاج ٠٠ فلم يزل كذلك أمره حتى أصاب الناس في إحدى
السنين جَدَبٌ شديد ٠٠ فخرج إلى الشام واشترى بما كان لديه من
المال دقيقاً وكَعَكًا وأخذ طريق مكة يريد العودة فتعثرت الإبل التي
كانت تحمل الكعك وسقطت بعضها فوق بعض فتَهَشَّم الكَعَكُ ٠٠
فلما وصل الكعبة جعل الكعك المتَهَشَّم ثريداً وأطعم الناس حتى
أشبعهم ومن ذلك اليوم سُمي (هاشمياً) وقد ظل هذا اسمَه حتى
مات ٠

وكان عبد المطلب يطعم الناس رفادة ٠٠ فلما توفى قام بذلك
أبو طالب في كل موسم من مواسم الحج ٠٠ ثم جاء الإسلام قصار
النبي صلى الله عليه وسلم يطعم الناس على هذا النحو ٠٠ ولا تزال
هذه العادة متبعة عند بعض الأمراء والحكام العرب إلى يومنا
هذا ٠

فقدف الله في قلب شَيْبَةَ الرَّعْبِ ودنا من الرسول الكريم
فوضع يده الكريمة على صدره وقال صلى الله عليه وسلم : (إِخْسَأْ
عَنكَ الشَّيْطَانُ) فخرج الرَّعْبُ من قلبه وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْإِيمَانَ
فَأَسْلَمَ «١» وقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ممن
صبر معه يومئذٍ ٠٠ وصار من خيار المسلمين ٠

ويظهر من سياق التاريخ أن القاعدة التي صار عليها آل عبد
الدار أن يكون مفتاح الكعبة بيد أكبر العائلة سِنًّا ٠٠ وأن يكون
من يحمل مفتاح الكعبة هو كبير السَّدنة ٠

والسَّدانة تشمل الحِجَابَةَ ٠٠ أى حِجَابَةَ بَابِ الكعبة وحمل
المفتاح ٠٠ والسَّقَايَةَ وهى سقاية الحجاج في موسم الحج ٠٠
والرَّفَادَةَ وهى إطعامهم ٠٠ والقيادة وهى قيادة الناس في
مشاعر الحج

أما حِجَابَةَ بَابِ الكعبة فقد قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم – كما سبق أن ذكرنا – قال لعثمان بن طلحة بن أبي
طلحة :

(خذوها يا بَنِي أَبِي طَلْحَةَ بِأَمَانَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ٠٠ وَاَعْمَلُوا
فِيهَا بِالْمَعْرُوفِ خَالِدَةً تَالِدَةً ٠٠ لَا يَنْزِعُهَا مِنْ أَيْدِيكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ) ٠

٠ (١) ٠٠ فأسلم ٠٠ وقيل : أسلم يوم الفتح ٠ ١٠ هـ

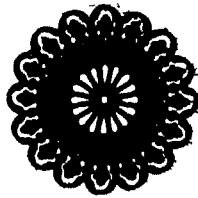
سَدَنُ الكَعْبَةِ

كان أول من قام بخدمة الكعبة الخليل إبراهيم عليه السلام ٠٠ ومنه آلت خدمة الكعبة إلى ولده إسماعيل عليه السلام ٠٠ وبعد وفاة إسماعيل صارت لأولاده إلى أن اغتصبها منهم آخوالهم جُرهم ٠٠ ومكثت السدانة في جُرهم عدة قرون إلى أن استولت عليها خزاعة عَنوة ٠٠ ومكثت السدانة في خزاعة عدة قرون أخرى ثم آل أمر مكة والكعبة المعظمة إلى قُصَيِّ القرشي - وهو الجد الخامس للنبي محمد صلى الله عليه وسلم - وقد استرجعها قُصَيٌّ من خزاعة بعد حرب مريرة دامية .

ثم أسلم قُصَيٌّ أمور السدانة إلى ولده الأكبر عبد الدار ، فظلت كذلك جاهلية وإسلاماً إلى أن استقر بها المطاف عند شَيْبَةَ ابنِ عثمانِ بنِ طلحةِ بنِ أَبِي طَلْحَةَ ٠٠ ولا يزال أولاده يتوارثونها كإبراً عن كإبر حتى عصرنا هذا .

وكان شيبية هذا قد خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين مشركاً يريد أن يغتال الرسول الكريم ٠٠ فرآه مقبلاً ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وأزكى سلام : (يا شَيْبَةُ هَلُمَّ لَا أُمَّ لَكَ) .

فيدخلون جميعاً إلى الكعبة حيث يوزَّع عليهم سنتتها
المكانس ٠٠ ويوزَّع شيخ الزمازمة سطولَ المياه ٠٠ ويتنافس
الجميع في نقل المياه عن زمزم إلى داخل الكعبة ٠٠ ثم يأخذون في
غسيلها ، ثم يجفون الأرض والجدران بقطع الأسفنج ٠٠ ثم
يطيبونها بعطر الورد والعنبر والعود والتَّد ٠٠ وبعد الغسيل
والتطيب تُسدل عليها ثيابها الجديدة ٠٠ ويعود الحجاج من منى
فيرونها وقد اغتسلت وتطيبت وأخذت زينتها وابتهجت فترتفع
أصواتهم في ابتهاجات حارة (الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ لا إله إلا
الله) ٠



التوابُ الرحيمُ ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ » .

(صدق الله العظيم)

وكتب على الحزام أيضاً :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ

من كلِّ فِجٍ عميقٍ ٢٢ : ٢٧ » .

(صدق الله العظيم)

وكتب عليه أيضاً :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» .

٣ : ٩٧ (صدق الله العظيم)

وعندما يتم صنع الكسوة بالمصنع السعودي الواقع في مدخل مكة تسلم إلى آل الشَّيْبِيَّ سَدْنِيَّة الكعبة وخدامها - تسلم مع توابعها ومعها الطيب والبخور فتحفظ عندهم إلى صباح يوم النحر ٠٠ والحجاج في متى حيث تُجَرَّد الكعبة من ثيابها وتُغسل وتطيب ٠ ثم تُسَدَّلُ عليها الكسوة الجديدة .

وعادة يشترك في غسل الكعبة كافة الملوك والأمراء والعظماء الذين يحضرون موسم الحج ويكون معهم دائماً جلالة خادم الحرمين ٠٠

ثم كتب بين آيات الفاتحة في دوائر صغيرة :

(الله ربى) ٠٠

وكل هذه الآيات قد كتبت بأسلاك الفضة والقصب الفضى

الموه بالذهب بغاية الدقة والإتقان .

حِزَامُ الْكَعْبَةِ

يرتفع حزام الكعبة عن الأرض ما يقرب من عشرين

ذراعاً ٠٠ وعرضه ذراعان إلا قليلاً ٠٠ قد طرزت عليه بعض

الآيات الشريفة بأسلاك الفضة والذهب ٠٠ وقد كتب على الركنين

اليمنيين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ * قِيَامًا لِلنَّاسِ *

وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقِلَادَةَ * نَلِكِ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * وَأَنَّ اللهَ يَكِلُ شَيْءًا عَليمٌ ٥ : ٩٧ » .

(صدق الله العظيم)

وكتب بين الركن اليمنى والغربى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَإِذَا يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ * رَبَّنَا

تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن

نَرِينَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا * إِنَّكَ أَنْتَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقل جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *
وَيُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا
خَسَارًا ۝ ١٧ : ٨١ ، ٨٢ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبَتُوا رَبِّي
هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .
١٠٦ : ١ - ٤ (صدق الله العظيم)

ثم كتب على جانب الستارة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ * مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَادِقُ
الْوَعْدِ الْيَقِينِ

ثم كتب حول ما تقدم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ / الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ١ : ١ - ٧ » .
(صدق الله العظيم)

ثم كتب فيما يلي ذلك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ٢ : ٢٥٥ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتَدْخُلَنَّ المسجد الحرام إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ ٤٨ : ٢٧ » .

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ١١٢ : ١ - ٤ »

(صدق الله العظيم)

ثم كتب :

يحرص كل مسلم على مشاهدته .

وتصنع الكسوة الآن بمصنع خاص لها بالسعودية ، ويتم صنعها من الحرير الأسود السميك المبطن بالقطن الأبيض ، ولها حزام مطرز بالفضة والذهب مكتوب عليه بعض الآيات الكريمة ولبابها كسوة خاصة على شكل شارة كتبت عليها أيضاً بعض الآيات الكريمة .

ستارة باب الكعبة وما كتب عليها :

كتب في السطر الأول بأعلى الستارة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّتَنكَ قِبَلَةَ تَرْضَاهَا »
(صدق الله العظيم) ١٤٤ : ٢

ثم كتب في السطر الذي يليه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ١٧ : ٨٠ »
(صدق الله العظيم)

ثم كتب في السطر الذي يليه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »
(صدق الله العظيم) ٣ : ١٣٩

ثم كساها عمر وعثمان القباطى ثم كساها الحجاج الديباج ،
وكان الاغنياء والامراء والملوك والعظماء في كل مكان يرسلون إليها
الكساوى المختلفة فتحفظ بداخلها إلى أن يبلى ما عليها فيرفع
ويوضع الجديد .

وقيل : إنها كانت تكسى كل سنة كسوتين ٠٠ ثم أصبحت
تكسى ثلاث مرات كل سنة ٠٠ وأفضل ما كانت تكسى به القباطى
وهو جمع قُبَيْطِيَّةٍ - وهى ثوب من ثياب مصر رفيعة الصنع دقيقة
الخيوط - وأما الرصائل فثياب حُر مخططة تصنع باليمن ٠٠
وأما الحبرَاتُ فهى ما كان من البرود مخططاً وتصنع باليمن
أيضاً - وأما الأنماط فهى نوع من البُسُط الجيدة - وأما الديباج
فهو الحرير .

وكسيت الكعبة أيام الفاطميين بالديباج الأبيض ثم الأصفر
ثم الأخضر ثم الأسود - وقد استمر اللون الأسود إلى يومنا هذا .
وكانت مصر ترسل في كل عام الكسوة السوداء الخارجية
للكعبة وكسوة أخرى حمراء لداخلها - كما كانت ترسل كسوة
خضراء للحجرة الشريفة النبوية .

وكانت للكعبة وقفية بمصر من عهد عمر بن الخطاب يتفق
منها على كسوتها ٠٠ ثم تعهدت الحكومة بصنع الكسوة من مالها
العام ٠٠ وكان لخروج الكسوة في مصر احتفال رائم كل سنة

بالحِبرَة الجديدة من (الجَندِ - وهى بلد بأرض اليمن) فيكسو الكعبة بها ، فسُمته قريش (العَدَل) لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها . . . ويقال لولده (بنو العَدل) .

وقيل : إن خالد بن جعفر أصاب لطيمة^(١) في الجاهلية فيها نمطٌ من ديباج ، فأرسل به إلى الكعبة فوضع عليها .

قال الحافظ : فكان هذا الرجل أول من كسا الكعبة الديباج . . . وقال الإدراكطنى : إن أول من كسا الكعبة الديباج نتيلة بنت حَيَّان والدة العباس بن عبدالمطلب - وكانت قد أضاعت العباس صغيراً ، فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج .

وكانت الكعبة في الإسلام تكسى يوم عاشوراء إذا ذهب آخر الحجاج وفعل ذلك بنو هاشم ، فكانوا يطلقون عليها القمّص يوم التروية - والديباج ، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الإزار .

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس يوم عاشوراء فقال :
(. . . هذا يوم عاشوراء يوم تنقضى السنة وتستر الكعبة) .

وقد كساها رسول الله صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية

(١) « لطيمة » اللطيمة : وعاء - والنمط : ضرب من البسط . ا هـ .

اليمانية والأنماط ، وكلها أنواع من النسيج كانت معروفة في
الجاهلية .

وكانت الكسوة توضع على الكعبة بعضها فوق بعض فإذا
ثقلت أو يليت أزيلت عنها وقُسمت أو دفنت .

عن ابن أبي مليكة أنه قال : (بلغني أن الكعبة كانت تُكسى
في الجاهلية كُسا شتى . . كانت البدنة تجلُّ الحبرة والبُرود
والأكسية وغير ذلك من عمل اليمن - كانت تُهدى إلى الكعبة فيعلق
بعضها على الكعبة ويحفظ الباقي في خزانها فإذا بلى منها شيء
أُخلف عليها مكانه ثوب آخر ، ولا ينزع مما عليها شيء من
ذلك " ١) . وكان يهدى إليها بخور ومجامر لتطيب به في داخلها
وخارجها .

والمعروف أيضًا أن قريشا كانت ترافد في كسوة الكعبة أي
تتعاون والقبائل على ذلك بقدر طاقتها من عهد قصي إلى أن نشأ أبو
ربيع بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومي الذي كان يختلف
إلى اليمن للتجارة ، فأصاب ثراءً وأسعا فقال لقريش :
- أنا أكسو وحدي الكعبة سنة . . وجميع قريش سنة .
فوافقت قريش على ذلك وظل يفعل حتى مات . . وكان يأتي

(١) . . . ولا ينزع مما عليها شيء . . . حتى خيف عليها من تراكم الأكسية
١ هـ - وشيبة بن عثمان أول من جردها بأمر معاوية ١٠ هـ .

كِسْوَةُ الْكِعْبَةِ

كان أول من كسا الكعبة إسماعيل عليه السلام ومن بعده بعض أولاده . . . ثم جاء تبع الثالث نادماً مستغفراً وقد كساها كسوة كاملة من الوصائل^(١) وقد قال تبع في ذلك شعراً هو :

وَكَسَوْنَا الْبَيْتَ الَّذِي حَرَّمَ
اللَّهُ مَلَأَ مُنْضِئاً وَيُرُوداً
وَأَقَمْنَا بِهِ مِنَ الشُّهُورِ عَشْرًا
وَجَعَلْنَا لِبَابِهِ إِقْلِيدًا
وَوَجَّعْنَا مِنْهُ نَوْمٌ سَهِيلًا
وَقَدْ أَرْفَعْنَا لِوَاعِنَا الْمُعْقُودَا

وبعد تبع كساها الكثيرون في الجاهلية ، فقد كان العرب يهتمون بكسوة الكعبة ويرون في ذلك واجباً من الواجبات الدينية . . . وكان مباحاً لكل من يريد أن يكسو الكعبة أن يفعل متى شاء ومن أى نوع شاء .

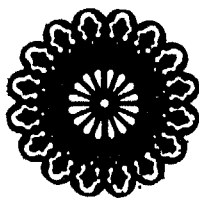
وكانت الكسوة تصنع من الخصف^(١) والوصائل^(٢) والأنطاع^(٣) والكرار^(٤) والديجاج^(٥) والخز^(٦) والنمارق العراقية^(٧) والجبر^(٨)

(١) « الوصائل » هي ثياب مخططة بيضاء - والخصف : جلال - والأنطاع هي البسط - والكرار : وهو الكساء . . . هـ .

الحجاج من ماء زمزم الذى يصله من البئر بواسطة المواسير .
كما جعل جانب من واجهة الجنوب سبيلاً على نفس النحو لنفس
الغرض وذلك لتخفيف ضغط الحجاج على زمزم رغم أنها قد
اتسعت وأعدت وفق أحدث طراز معمارى وهيئت لاستقبال أكبر
عدد ممكن من الناس .

وهكذا استطاعت الأسرة السعودية الحاكمة أن توفر
للهايين الذين يحجون بيت الله الحرام سعة من الأرض الطيبة
المباركة بحيث يقضون مناسك حجهم ويتحركون فى بخبوحة
وراحة من الطواف والمسعى . كما استطاعت أن تجعل مكة البلد
الآمن . أم القرى صاحبة الشخصية التاريخية الدينية الفذة
والنور المتألق بوهج القداسة وسنا الأصالة والعراقة . .

استطاعت أن تجعلها تجمع إلى جوار كل ما تقدم تطوراً
عصرياً متّزن الخطوات وتحضراً يحكمه العقل وتسيطر عليه
الحكمة .



وللمسجد ٢٢ بابا ثمانية في الشمال هي .

باب الدريبة وباب المحكمة وباب الزيادة وباب القطبي وباب
الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص وباب سعود وهو
باب رئيسي .

ومن الجهة الجنوبية سبعة أبواب هي :

باب أم هانئ وباب العجلة وباب الرحمة وباب أجياد وباب
الصفاء وباب مخزوم وباب بازان .

ومن الجهة الشرقية أربعة أبواب هي :

باب علي وباب العباس وباب النبي صلى الله عليه وسلم
وباب السلام وهو باب رئيسي وأول باب يدخل الحجاج منه إلى
الحرم عند طَوَافِ القنوم .

ومن الجهة الغربية ثلاثة أبواب هي .

باب إبراهيم وباب الجزورة^١ وباب العمرة وهو باب
رئيسي .

وترتفع في المسجد سبع منائر هي .

منارة باب الحمرة ومنارة باب السلام ومنارة باب علي ومنارة
الجزورة ومنارة باب الزيادة ومنارة الصفاء ومنارة باب سعود .
وقد جعل جانب من واجهة القسم الغربي سبيلاً لسُقيا

(١) الجزورة سوق مكة ومخلت في المسجد عند الزيادة وتمسح هذا الاسم الى كزورة

وَجَزُورَةٌ وَجَزُورَةٌ (شفاء ج ١ ص ٢٣٦) .

التوبة الذى يتم منه الصعود إلى سطح الكعبة ويغشى سقف الكعبة من الداخل وجانبها من جدرانها ستائر من الحرير الأحمر عليها مربعات مكتوب فيها :

• (الله جل جلاله) ٠٠ وفى الناحية المقابلة لباب النخول محراب ويقيه الجدران مغطاة بالرخام المجزع ٠٠ وبالكعبة صندوق ضخم تحفظ فيه بعض متعلقاتها ٠٠ وقد تدلت من السقف قنابيل ضخمة من الذهب وقد رصعت بالجواهر واللآلئ

• وتبلغ مساحة المسجد الحرام الآن ١٠٤٣٦ مترا

• وتبلغ مساحة المسعى الآن ١٠١٧٢ مترا

• وتبلغ مساحة المسجد الحرام الدور الأول من الأروقة

• والمسعى ٧٠٦٠٨

• وتبلغ مساحة الدور الثانى بما فيه المسعى ٦٠٥٦٠

• وتبلغ مساحة البيرومات التى تحت الأروقة ٢٩٠٠٠

• متر

• وتبلغ مساحة المسجد بطاقميه وبيروماته ١٦٠١٦٨ متراً

• وهى مساحة تتسع لأكثر من ثلاثمائة ألف من المصلين فى

وقت واحد يؤدون صلاتهم فى سعة واطمئنان ٠٠ مع قدرتهم

• على مشاهدة الكعبة المعظمة مهما بعد مكانهم عنها

شأمل إلى جلالة الملك خادم الحرمين الذي أمر على الفور بالبديء
في أعمال الترميم .

وفي صباح الجمعة ١٨ رجب سنة ١٣٧٧ هجرية وفي احتفال
برأسه حضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد بدأ
العمل في إصلاح الكعبة وترميم ما كان بها من خلل ، واستمر
العمل حتى تم تجديد سقف الكعبة المشرفة وترميم جدرانها على
أحسن ما يكون وأفضل ما يريجو المسلمون لهذا البيت المعظم الذي
هو قبلتهم في صلواتهم ويسعى إليه كل عام من استطاع إلى الحج
سبيلاً .

وفي يوم السبت ١١ شعبان عام ١٣٧٧ هجرية وضع جلالة
الملك المعظم خادم الحرمين آخر حجر في الكسوة الرخامية
التي على جدار الكعبة من الداخل في احتفال كبير . وكان هذا
إيداناً بانتهاء العمل في العمارة المباركة .

ويبلغ ارتفاع الكعبة الآن ١٥ مترا ومسطحها
١٢ × ١٠,١ م . وبابها يرتفع عن الأرض بمقدار مترين
والصعود إليه بسلم خشبي متحرك مغطى بصفائح الفضة ٠٠
وباب الكعبة لا يفتح في السنة أكثر من ١٥ مرة ، وهي من الداخل
تقوم على ثلاثة أعمدة ضخمة ٠٠ وفي الناحية الشمالية يقع باب

من المرضى والمسنين الذين يضطرون إلى ركوب عجلات خاصة
يدفعها الصبيان .

ويبلغ ارتفاع المسعى ١٢ متراً وله ثمانية أبواب ٠٠ وبين
الصفاء والروة والمسجد الحرام أبواب ونوافذ لا تحجب الكعبة
المشرفة عن الساعين ٠٠

وكان في مقدمة ما عنى به المسئولون عن تنفيذ مشروع
التوسعة والإصلاح تجنب المسجد اندفاعات السيول الجارفة
وانحداراتها بفعل الأمطار من أعلى جبال مكة إلى ساحة المسجد
كما كان يحدث بالماضى عندما كانت الكعبة تغرق في مياه
السيول .

ولهذا عملوا على تحويل مجرى السيول إلى مجار خاصة
تبدأ من تحت الرصيف في الجانب الجنوبي .

وبينما العمل كان جارياً في توسعة المسجد الحرام وتجديد
عمارته اتضح أن في بناية الكعبة المعظمة خللاً في السقف وتصدعاً
في بعض الجدران ٠٠ وقد صدر الأمر الملكي الكريم على الفور
بتشكيل لجنة من العلماء والفنيين للكشف عن موضع الخلل
واقتراح ما تراه واجباً لإصلاحه .

وبعد أن قامت اللجنة بالدراسة والفحص تقدمت بتقرير

وشهد يوم الخميس ٢٣ شعبان من نفس العام احتفالاً كبيراً
ضخماً أقيم أمام الباب الرئيسي للحرم الشريف لوضع الحجر
الأساسي في توسعة المسجد الحرام - حضره جلالة الملك والأمراء
وكبار أعيان المملكة ووجهاؤها وكثير من مندوبي الدول
الإسلامية .

وقام جلالة الملك خادم الحرمين بوضع الحجر
الأساسي ، وكان هذا إيذاناً بابتداء مراحل البناء وشرع على الفور
في صب قواعد الأسمنت والخرسانة المسلحة التي أقيم عليها
جدران التوسعة .

ولم ينقض شهر ذى القعدة من نفس العام حتى تم تحويل
القسم الأكبر من الطريق القديم إلى شارع جديد . . .
وبذلك انقطع المرور من المسعى وبذلك أمكن للحجاج لأول
مرة منذ مئات السنين السعى بين الصفا والمروة وهم في اطمئنان
وخشوع لا يزعجهم مرور السيارات والعربات كما كان يحدث
بالماضى .

والمسعى حالياً يتكون من طابقين وطوله ٤٢٠ متراً والطابق
الأول يتكون من قسمين أحدهما للذاهبين والثاني للآئبين
يتوسطهما طريق خاص ينقسم بدوره إلى قسمين للذاهبين والآئبين

والطائرات - نعم ، لقد ازداد عدد الحجاج زيادة بالغة وأصبح عدد الوافدين في كل موسم يزيد عن سابقه . وبدأت أروقة المسجد الحرام ورحابه تضيق بهم خاصة وقت الصلاة وفي أيام الجمع والمواسم بالذات حيث كان معظم الحجاج يضطر إلى أداء الفريضة في الطرقات والأزقة المحيطة بالحرم وكان الحجاج يشعرون بالضيق وكان أهل مكة وسكانها يشعرون به أيضاً ، وطالما ارتفعت الأكف بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يهيبه للبيت من يقوم بتوسيع رقعته وتجديد عمارته .

وكانت البشرية بالاستجابة والبدء في توسعة الحرم عندما أعلن إنهاء العمل الأساسى في توسعة المسجد النبوى التى كان العمل يجرى فيها منذ عام ١٣٧٠ هجرية .٠٠ ففى تلك المناسبة استمع الناس إلى المذيع يعلن إصدار جلاله الملك خادم الحرمين مرسوماً ملكياً بأن تنقل جميع الآلات والمعدات التى استخدمت في مشروع المسجد النبوى إلى مكة المكرمة للشروع فوراً في توسعة المسجد الحرام .

وفي الرابع من ربيع الثانى عام ١٣٧٥ هجرية بدأت الأعمال الأولى لوضع الحجر الأساسى وبدأت أعمال هدم البيوت والمساكن والمحلات اللازمة فى المرحلة الأولى للتوسعة .٠٠ ثم نقلت الأتقاض إلى خارج منطقة مكة

العَمَلُ السُّعُودِيّ

وتمضى بنا قافلة الزمان لنشهد المرحلة الأخيرة لبناء الكعبة المعظمة - وهى المرحلة التى تمت فى العهد السعودى الميمون الذى حشّد كل الطاقات وسخر كل إمكانيات العمارة الحديثة لتعمير وتوسعة بيت الله الحرام .

وكانت مساحة المسجد الحرام ثابتة منذ البداية عند حدودها التى وضعت أول مرة - ولكن المبانى من حول المسجد لم تتوقف عند حد ٠٠ لقد ظلت تزحف وتزحف حتى اتصلت المنازل المحيطة بالمسجد .

وهكذا كانت الحال بالنسبة للمسعى بين الصفا والمروة فقد دخلت المبانى الخاصة بينه وبين المسجد وأصبح على مر الأيام طريقاً ضيقاً تقوم على جانبيه المحلات التجارية المختلفة التى ترتفع فوقها المساكن .

وهذه المساحة التى ظل المسجد محصوراً فيها - إن كانت تتسع فى الماضى لبيض عشرات من ألوف الحجاج فى كل موسم أيام لم تكن للسفر وسائل غير الدواب وسفن الشراع - فإنها بدأت تضيق بالوافدين منذ تحول السفر إلى البواخر السريعة والسيارات

لأنه ركن البيت وعليه عتبة الباب .

واستقر الرأى بالجميع فى النهاية على إبقاء الحجر مكانه

وإعادة تلك الشظايا إليه .

وفى الثانى من ذى الحجة عام ١٠٤٠ هجرية انتهى كل عمل

بعمارة الكعبة المشرفة فأعابوا إليها كنوزها وقناديلها وكل ما كان

فيها ثم غسلوها بماء زمزم ثم طيبوها ويخروها واحتفلوا بها

احتفالاً كبيراً .

وفرح المسلمون فرحة كبرى وقال الشاعر :

عاد بيت الإله بعد انهدامه

وغداً فائقاً لحسن نظامه

وآتتنا بشرى الهنا والتهانى

إذ أتانا بشيرنا بتمامه

فحمدنا الإله والحمد لنا

لم يزل دائماً على إتمامه

وشكرناه إذ رأيناه قد قا

م وقزنا بلثمه واستلامه

وعلى الفور بدأ العمال في هدم البناء حتى وصلوا الحجر
الأسود ٠٠ وجاء المعلم محمد زين الدين فوزن الحجر الأسود
والحجر الذى فوقه فوجد أن الحجر الذى فوق الحجر الأسود
ناقص قدر ثلاثة قراريط تقريباً فقرر هدم كل البناء ما عدا الحجر
الأسود ٠٠

وبدأ البناء والشريف وأولاده ومعظم الوجهاء والأعيان
والعلماء والفقهاء يشتغلون مع العمال

وآثناء البناء تملل الحجر الأسود في موضعه ، فخافوا أن
يسقط وينكسر ، فحاول المعلم على مرأى منهم جميعاً أن يعيد إليه
استقراره وسط إطار الفضة ولكنه لم يفلح وطارت من الحجر
الأسود أربع شظايا كادت تقع على الأرض ولكنهم تلقفوها في
أيديهم وجاعوا بكبير المعمارين السيد على بن بركات ، فلما رأى ما
حدث انزعج أشد الانزعاج وقال :

— يا أمة الاسلام إن أُخْرِجَ الْحَجْرَ مِنْ مَكَانِهِ تَفَرَّقَتْ أَعْزَاؤُهُ
ولا والله تقدرُونَ على ضمها وجمعها ، فدعوه مكانه وأصلحوا هذه
الشظايا التى طارت منه ٠٠

فلم يعجب هذا القول رضوان أغا ودارت بينهما محاوره
حاده قال على بركات في نهايتها :
— الحجر الذى عليه الحجر الأسود خارج وفي بقائه خللٌ

الأخشاب وأمر العمال بإقامة ستار حول الكعبة .
ثم قاموا بعمل ستار أخضر ألْبَسُوهُ للكعبة ثم صلى الشريف
وطاف بها ثم سَمَحَ للناس بالصلاة والطواف بها .
ولما وصل الخبر بانهيار جدران الكعبة إلى المسلمين خارج
مكة والجزيرة العربية أحدث هياجاً شديداً خاصة وأن موسم الحج
كان على الأبواب . فرأى والى مصر ألا ينتظر ورود الأمر
السلطاني من القسطنطينية خوفاً من ازدياد التصدع في الكعبة
المشرفة .

وأرسل رضوان أغا من حاشية البلاط العثماني مندوباً من
قبله إلى مكة المكرمة وَخَوَّلَهُ صلاحية تامة لاتخاذ التدابير
العاجلة . وقد بدأ فعلاً في اتخاذ هذه التدابير ، وعاونه الأهالي
متطوعين بمالهم وجهودهم ، وراحوا يرممون الكعبة .

وفي يوم الاثنين ٢٧ ربيع الثاني وقع مطر آخر بمكة وامتلات
ساحة المسجد من حول الكعبة بالمياه ثانياً وكان ذلك أثناء طواف
الناس ، فراح بعضهم يطوف سِباحَةً ، وسقط بفعل هذا المطر
الأخير حجران كبيران من الجدار الغربي وأحجار أخرى صغيرة في
نفس اليوم . وفي اليوم الثاني تداعت كافة الأركان للسقوط ولم
تعد تصلح فكرة الترميم فصرف النظر عنها وبدأ التفكير في هدم
البناء كله وإقامة بناء جديد .

قال البعض :

— يعرض الأمر على الأبواب السلطانية فيما يختص

بالأموال . .

وقال البعض الآخر :

— ولم لا يتعاون المسلمون على تعمیرها بأموالهم ؟

فقال البعض الأول :

— السلطان مراد خان هو صاحب الولاية العظمى وهو

المستول الأول عن تعمیرها — والرأى أن نكتب إليه ليقوم برفع

كافة نفقات التعمير .

فقال البعض الآخر :

— وهل نترك الكعبة على حالها إلى أن يصل كتابنا إلى

السلطان مراد خان ، ثم يعود منه الجواب ؟

قال الشريف :

— لا بأس . . سنضع عليها الحراس ، ثم نكتب إلى

السلطان وسوف أعمل على سفر الرسل فوراً إلى مصر ليلتقوا بوزير

مصر ويطلبوا منه عرض الأمر بأقصى سرعة ممكنة على السلطان .

ووصل من سنجق^(١) جدة خمسمائة دينار لصرفها على

عمارة الكعبة بصفة عاجلة . فقام الشريف بإحضار كمية من

(١) « سنجق » أى الدائرة — والكلمة : فارسية ، ا هـ .

ثم اعلتلى الخطيب المنبر وخطب في الناس خطبة الجمعة ثم صلى بالناس في المطاف ، وبعد الصلاة شرعوا في رفع الحجارة التي سقطت من جدران الكعبة ٠٠ كما حمل العتالون «١» الأجرار ووضعوها في صحن المسجد .

وجمع الشريف أمير مكة شخصيات البلد ورجالها وقال لهم :

— لقد جمعتكم اليوم لأوجه إليكم عدة أسئلة مهمة ٠٠
قالوا .

— تكلم أيها الشريف ٠٠ كلنا آذان صاغية .

فقال لهم :

— السؤال الأول عن عمارة ماتهدم من جدران الكعبة وهل نبارد نحن إلى عمارتها في الحال باعتبارنا أولياءها الذائدين عن حوضها ، أم نعرض الأمر على الأبواب السلطانية ومنتظر الرد ؟
قالوا :

— بل نبارد نحن إلى عمارتها على الفور أيها الأمير .
فعاد يسألهم .

— والسؤال الثاني ٠٠ من أي مال يكون التعمير ؟ بمال

قناديلها ، أم بمال الأهالي ؟

(١) « العتالون » هم الجمالون ، ا هـ .

وكان ماء هذا السيل ملحاً مرّاً لونه يضرب إلى السواد .
فزاد هذا من رُعب الناس وفزعهم وهرعوا يقيمون الصلوات داعين
الله أن يكشف عنهم الغمة .

وخرج إليهم أمير مكة الشريف مسعود بن إدريس وأمر بفتح
سرانيب باب إبراهيم التي هي مجارى مياه المسجد الحرام -
ففعّلوا - واندفع الماء منها إلى أسفل مكة . . وأمر الشريف بإيقاد
الشموع في ساحة المسجد وأحضر الأشراف والأمراء والعلماء
والفقهاء والصلحاء وأخرجوا كنوز الكعبة وقناديلها الذهبية
المرصّعة بالجواهر واللآلئ ووضعوها في بيت الشيخ جمال الدين
محمد الشيبى الواقع على جبل الصفا .

وفي يوم الجمعة توقف المطر فأمر الشريف أن ينادى في مكة
بالآتى :

- أيها الناس لقد توقف المطر فاهرعوا إلى المسجد
الحرام . . إلى بيت الله وقوموا بتنظيفه .
فتهافت الناس ألوفاً إلى البيت وشرعوا في إزالة الطين الكائن
بالمطاف والساحة حول الكعبة وشمّر الشريف أمير مكة عن
ساعديه وحمل مكّتلاً وراح يرفع الطين ، شأنه شأن بقية الخلق .
وهكذا فعل الوجهاء والأمراء والأعيان والفقهاء .

بناء السلطان مراد خان

وتمضى بنا قافلة التاريخ لنشهد مرحلة أخرى من مراحل قصة بناء الكعبة المشرفة وهو بناء السلطان مراد خان عام ١٠٤٠ هجرية ٠٠ وكان السبب في هذا البناء ذلك السيل العظيم الذى دخل البيت الحرام وتسبب في سقوط جدران الكعبة

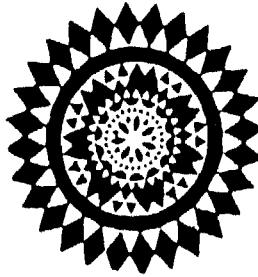
ففى يوم الأربعاء التاسع عشر من شعبان عام ١٠٣٩ هجرية هطل على منطقة مكة مطر ثقيل ٠٠ بل عظيم الثقل ، وقد بدأ فى الثانية صباحاً - ثم اشتد هطوله بين صلاة الظهر والعصر ولم يلبث أن تحول إلى ثلوج ، وما هى إلا ساعات حتى اندفع داخل البيت الحرام سيل جارف لم تر العين مثله بمكة من قبل ثم اندفع بالتالى إلى داخل الكعبة وارتفع حتى وصل إلى منتصف الجدران ثم زاد ارتفاعه فوصل إلى طوق القناديل - أى فوق قامة الرجل - ولم يبق بيت بمكة لم يغرقه السيل ولم يجرف أمتعته وينحدر بها إلى أسفل مكة ٠٠ وهلك نتيجة لذلك ألوف من الناس ٠

وباتت الكعبة فى تلك الليلة غريقة ٠ ولما انبلج الصبح انهار جدارها الشامى وجانب من الجدارين الشرقى والغربى وسقطت درجة السطح ٠ فوقع الهلع بين الناس وانخلعت قلوبهم خوفاً ٠

وظلت هذه الشَّظِيَّةُ محفوظةً حتى انتهى الملك عبد العزيز آل سعود من فترة المصيف بالطائف وركب يريد الذهاب إلى الرياض عاصمة ملكه فمر بمكة حيث كان العلماء والصلحاء والوزراء ورؤيسو هيئة القضاء قد اجتمعوا بها .

ثم أحضر مدير الشرطة العام تلك الشظية وقام المختصون بعمل مركب كيمائى مضاف إليه المسك والعنبر ، ثم وضع في الموضع الذى خرجت منه الشظية ، ثم أخذ جلاله الملك عبد العزيز الشظية بيده الكريمة ووضعها في مكانها تيمناً وتبركاً وبذلك استكمل الحجر الأسود كيانه كما كان سابقاً .

وهكذا عادت إلى الكعبة المعظمة كل مقوماتها وراح الناس يطوفون بها ويستلمون الحجر الأسود سعداء بوجوده .



وصلت إلى هنا ونفذت لهم ما أرادوا حتى أتمكن من أخذ بقية المبلغ المتفق عليه .

– وكيف تستحل المبلغ لنفسك وأنت لم تحقق لهم ما اتفقت

عليه ؟

– سأدعى لهم أنني فعلت ذلك .

– ولكنهم سيعلمون يوماً أنك لم تفعل ما أرادوا .

– عندئذ لن آكون في متناول أيديهم .

– كيف .

– بعد حصولي على بقية المبلغ مباشرة سأرحل إلى مكان

لا يصل إليّ فيه إنسان . . . إنني أريد أن أعيش .

– الواقع أنك سترحل إلى مكان لا يصل إليك فيه إنسان

ولكنك لن تعيش .

– (بدهشة) لن أعيش .

– نعم فحكم الإعدام ينتظرك أيها التَّعَسُّ .

وحكم على الأفغانى بالإعدام ونفذ فيه الحكم احراقاً . .

تماماً كما أعدم كل من تجرأ على الحجر الأسود بقلع أو تكسير أو

سرقة . . نعم لقد أصبح حكم الإعدام هو العقوبة المنفذة على كل

من تحدّثه نفسه بأن يمد يد السوء إلى الحجر الأسود أو أى جزء من

أجزاء البيت الحرام .

– لا ٠٠ لست مسلماً أيها المحقق .

– وكيف دخلت الكعبة إذن ٠٠ بل كيف دخلت مكة وهو

حرام على غير المسلمين ؟

– دخلتها خلسةً وقد ساعدنى فى ذلك الذين انتدبوني لهذه

المهمة .

– إذن فأنت مؤفد من قبل آخرين ؟

– نعم لقد استأجرونى لتحطيم الحجر الأسود نظير مبلغ

كبير من المال تسلمت نصفه والنصف الآخر سوف أتسلمه عندما

أعود إليهم بما يثبت أننى قد حطمت الحجر الأسود فعلاً .

– ولكنك لم تحطمه .

– صحيح ٠٠ وقد منعنى عن ذلك خوفاً .

– خوفك ٠٠ ماذا تعنى بهذا القول ؟

عندما دخلت ببلادكم سمعت عن أولئك الذين حاولوا تحطيم

الحجر الأسود فكان جزاءهم القتل والتمزيق والحرق ، ولهذا

اكتفيت بخلع هذه القطعة الصغيرة من الحجر الأسود .

– ولكننا عثرنا عليك على قطعة من الكسوة وأخرى من

الفضة .

– هذه أدلة أخرى أخذتها ليتأكد الذين أرسلونى أننى قد

وقد اتضح أن له أعواناً بخارج المسجد ينتظرونه وقد قبض عليهم جميعاً وأُحرقوا بالنار أيضاً . ثم اتضح أيضاً أن هؤلاء الأعوان كان لهم أعوان في الخفاء فثارت الفتنة وهددت مكة كلها فخرج إليهم أبو الفتوح أمير مكة وتمكن من إخماد الفتنة تماماً .

ويبقى الحجر الأسود على حاله تلك يومين ، ثم إن بعض بنى شيبية جمعوا شظاياها وفتاتة وعجنوه بالمسك واللك^(١) ثم حُشيت الشقوق وطلبت بهذا الخليط .

وفي آخر شهر المحرم عام ١٣٥١ هجرية دخل المسجد الحرام رجل فارسي من بلاد الأفغان وطاف مع الطائفين بالكعبة وانتهاز فرصة انشغال الناس بالطواف ثم تسلل إلى الحجر الأسود فأقتلع قطعة منه . وسمع الناس صوت المَعْوَل وهو يضرب الحجر فاجتمعوا عليه واعتقلوه وفتشوه فإذا به يخفي بين ثيابه قطعة من كسوة الكعبة وقطعة من فضة المدرج الذي هو بين بئر زمزم وباب بنى شيبية .

وقدم الرجل للمحاكمة ودارت بينه وبين المحقق هذه
المحاوره :

— هل أنت مسلم ؟

(١) « وعجنوه بالمسك واللك » هو ثفل ، او عصارة لنبات تشد به مقابض السكاكين . ا هـ .

وقيل : إن الحجر ظل مدفوناً حتى جاء قصى القرشي
فأخبروه وردّه إلى مكانه .

وقد حدث أن بعض الملحدين فكروا في سرقة هذا الحجر بعد
حادثة القرامطة - وكانوا من الذين استهواهم الحاكم العبيدي ،
فعمدوا إلى رجل رومي استأجروه وأغروه بالأموال الطائلة لسرقة
الحجر ، فإن فشل في السرقة فليحطمنه إلى شظايا صغيرة لا
تصلح لشيء . ودخل الرجل الرومي إلى الكعبة في ثياب فضفاضة
وفي إحدى يديه سيف مسلول وبالأخرى تَبُوسٌ من الحديد ومِعْوَلٌ
كبير .

وكان ذلك في يوم النَّفَرَةِ الْأَوَّلِ ولم يكن الناس قد عابوا بعد
من منى ٠٠٠ وبعد أن فرغ الإمام من الصلاة اندفع الرومي إلى
الحجر الأسود وكانما يريد أن يستلمه أو يقبله ولكنه ما كاد يصل
إليه حتى رفع يده وضرب وجه الحجر ثلاث ضربات فتقشر وجه
الحجر وسقطت منه ثلاث شظايا وحدثت فيه شقوقٌ يميناً
وشمالاً ٠٠ فابتدره رجل من اليمن حين رآه وهو يطوف قطعنه
بخنجره فسقط مضرّجاً بدمائه ، فأقبل الناس عليه من نواحي
المسجد وقطعوه ثم أحرقوه بالنار .

الأسودُ في سَفَطٍ وعليه ضِبابٌ " ١٠ " من فضة وسار به حتى وصل
ساحة الكعبة ، وهنا أخرجهُ من السفط ووضعهُ مكانه . ثم
جعلوا له طوقاً من الفضة ليشدَّ به كما كان قديماً حين عمله ابن
الزبير .

وهنا هلّل الناس وكبروا وتألقت الفرحة على وجوههم بعودة
الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة .

وكما تعرض الحجر الأسود لهذه المحاولة الخبيثة من
القرامطة الملحدين فقد تعرض قبلها ويعدّها لحوادث أخرى ولكن
العناية الإلهية كانت دائماً تنقذه وتعيده إلى مكانه في الكعبة
المشرفة .

ويذكر التاريخ أنّ قوماً سرقوه في عهد جرهم وحملوه على
جمل ، فسار الجمل مسافة ثم برك ، فضربوه فقام وسار مسافة
أخرى ثم برك فضربوه ثانية فقام وسار مسافة ثالثة ثم برك ولم يقم
رغم تعدد المحاولات منهم . فقالوا :

— ما برك إلا من أجل الحجر .

فأخذوا الحجر ودفنوه في مكانه في أسفل مكة . وتصادف
أن رأتهم امرأة من خزاعة وهم يدفنونه فأخبرت بذلك قومها وأعادوه
إلى مكانه .

(١) ٠٠٠ في سَفَطٍ وعليه ضِبابٌ ٠٠ ، السفط . وعاء كالجوالق ، والضباب . جمع

صبة . وهو حديدة يغلّق بها الباب ، ا هـ .

لم تزل الجاهلية تحرمّ الدماءَ فيها وإهانةَ أهلها ٠٠ ثم تعدّيت ذلك إلى أن قلعت الحجرَ الأسودَ الذى هو يمين الله فى الأرض «١» يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك على ذلك ٠٠ فلعنك الله ثم لعنك ٠ والسلام على من يسلم المسلمون من لسانه ويده ٠

واجتفظ القرمطى بالحجرِ الأسود فى بلده هجر اثنتين وعشرين سنة ٠٠ وبقي موضع الحجر من الكعبة خالياً يضع الناس فيه أيديهم للتبرك ٠

وكان السبب فى كل ما فعله أبوطاهر القرمطى هو أنه رأى فى نومه أنه يقيم كعبة أخرى فى بلده هجر - فأراد أن يحقق هذا الحلم ٠ وقد أقام بناءً فى بلده فعلاً ووضع فيه الحجر الأسود ٠٠ ولكن أحداً من الناس لم يتجه إلى هذا البناء ولم يهتم بدخوله ٠ ولما يؤس القرامطة من استمالة الناس إليهم وإلى بنائهم ربّوا الحجر إلى الكعبة ثانية ٠

وقد رثه سنبر بن الحسن القرمطى «٢» ٠٠ إذ جاء فى يوم الثلاثاء ٠٠ يوم النحر من سنة ٣٣٩ هجرية إلى مكة ومعه الحجر

(١) « ٠٠٠ يمين الله فى الارض » ورد بذلك حديث صحيح فى السنن ١٠ هـ ٠

(٢) « ٠٠ سنبر بن الحسن القرمطى » فى دائرة المعارف : انه رد على يد ابي اسحق ابراهيم بن محمد بن يحيى ، مژكى نيسابور فى سنة ٣٢٩ هـ ٠

المقام ٠٠ ويحث الرجال عن المقام بالمسجد فلم يجدوه ، وكان أحد
سَنَدَةِ المسجد قد حمله فور دخول القرمطيَّ ورجاله وَغَيَّبَهُ في مكان
أَمِين ٠

وَأَمْرَهُم القرمطيَّ بخلع الحَجَرِ الأَسْوَد ، فلما استحال ذلك
عليهم أَمْرَهُم بالبحث عن بِنَاءٍ مُتَخَصِّصٍ وإِحْضَارِهِ على الفور ٠٠
وكان القرمطي قد ضرب الحجر الأَسْوَدِ بِدَبُوسٍ "١" معه
فَتَكَسَّرَ - فلما جاءَ البِنَاءُ - جعفر بن أَبِي علاج - خلعه وقدمه له
فَأَمْرَ رِجَالِهِ بِحَمَلِهِ إِلَى بِلَدِهِ (هَجَرَ) "٢" وقيل : إنَّ أَرْبَعِينَ جَمَلًا
قد حملته بالتوالي فهلكت جميعها تحته ٠

ومع ذلك لم يعتبر القرمطيَّ واستمر في غيه فجمع أَهْل
مكة - أَوْ بِالْأَصْح - ما بقى من أَهْل مكة وخطب فيهم لعبيد الله
المهدي "٣" صاحب المهديَّة بإفريقيا ٠
فلما بلغ المهدي ما كان منه ومن أَعْمَالِهِ في مكة كتب إليه
يقول :

٠٠ والمعجيب من كتبك إلينا أنك تَمَنُّنَ عَلَيْنَا بما ارتكبت
واقترفتَ بِاسْمِنَا من جرائم في جرم الله وجيرانه ٠٠ بالأماكن التي

(١) ٠٠ ضرب الحجر الأسود بدبوس ٠٠ « هو المقمعة ، وهي العصا ، من حديد في
راسها شيء كالكرة ١٠ هـ ٠

(٢) « هجر » هي قاعدة البحرين ، ونكروا انه حمله إلى الكوفة ايضا ، ١ هـ ٠

(٣) « لعبيد الله المهدي » هو إمام الشيعة الاسماعيلية (انظر تاريخ ابن خلدون ج ٤

ودورها عاد إلى الكعبة ثانية وقال لرجاله :

— علىَّ بحلِّي الكعبة وكنوزها ..

فأسرع رجاله إلى الكعبة وعادوا بكل ما فيها من كنوز
وأموال فأمرهم بإحضار قُبَّةٍ زمزم أيضاً وباب الكعبة وكل ما
تَحَلَّتْ به جدرانها ولو كان ملصقاً بالأرض أو الجدران . فنفذ
رجاله الأمر على الفور . فنظر إلى ميزاب الكعبة وقال لرجاله :
— وهذا الميزاب الذهبى .. لماذا تركتموه ؟ .. فليصعد
أحدكم إليه وليحضره على الفور .

فتقدم رجل من رجاله وصعد على تَرَجِ الكعبة حتى وصل إلى
السطح ليُخْلِعَ الميزاب . وما كاد يصل إلى مكان الميزاب حتى
انقض عليه القَدْرُ في صورة سَهْمٍ مسموم انطلق من أعلى جبل أبى
قيس فاستقرَّ في عَجْزِهِ فسقط على الفور جثة هامدة .

ففرح الرجال جميعاً وصاحوا في نعر شديد متسائلين عن
هذا السهم وكيف وصل إلى صاحبهم ؟

ولكنه نهرهم وصرخ فيهم أن ينفذوا أمره وأن يحضروا
الميزاب ولكن أحداً منهم لم يقبل الصعود إلى سطح الكعبة ..
فقال لهم :

— إِنَّ دَعْوَانَا مِنْ هَذَا الْمِيزَابِ الْمَشْتُومِ وَهِيَ أَحْمَلُوا

– حاصروهم ولا تدعوا واحداً منهم ينجو بنفسه .

فقال ابن محارب أمير مكة :

– أتفعل هذا ونحن عَزَلٌ من السلاح وقد جئنا لِأداءِ فريضة

الصلاة ؟

فعاد القرمطي يقول لرجاله دون أن يلتفت إلى ابن محارب :

– اقتلوهم ولا تمكنوهم من أداء الصلاة ٠٠ لا صلاة بعد

اليوم ٠٠ اليوم للقتل والذبح فقط .

ثم اعتلى سطح البيت وهو يصيح :

أَنَا بِاللَّهِ وَيَا لِلَّهِ أَنَا يَخْلُقُ الْخَلْقَ وَأَفْنِيهِمْ أَنَا

وحاصر رجاله البيت وحاول بعض الناس الخروج لطلب

النجدة فأعمل فيهم رجال القرمطي سيوفهم وفتكوا بالألوف من

الحجيج في المسجد الحرام وفي فجاج مكة ٠٠ فقتل في المسجد

الحرام وحده ألف وسبعمائة . وقيل ثلاثة عشر ألفاً من الرجال

والنساء وهم معتقلون بالكعبة .

وَدَرَمَ بهم القرمطي زمرم حتى ملأها وفرش بهم المسجد

الحرام وما يليه . وقيل دفن الناس في المسجد بلا صلاة ، وكان

يتنقل وفرسانه على خيولهم بين جُنُثِ القتلى ٠٠ وعندما تم له

إزهاق أرواح الناس بالمسجد الحرام وفي فجاج مكة وسككها

الملحدين وعددهم تسعمائة ، وكان أبوطاهر مخموراً يمتطى فرسه
وفي يده سيف مسلول ، فصفر لفرسه فلوثت أرض الحرم والناس
يطوفون بالكعبة مبتهلين لله عز وجل ملبين له سبحانه ٠٠ وهنا
صاح فيهم القرمطى :

— كفوا عن هذا الدعاء أيها الناس ٠٠ كفوا وإلا فالويل
لكم .

فصاح به ابن محارب أمير مكة :

— ماذا تقول أيها الملحذ الزنديق .

فقال القرمطى :

— أقول كفوا عن هذا اللغو وإلا أطاحت سيوفنا بأعناقكم

أيها الحمير .

فصاح الحافظ أبو الفضل في غضب :

— ويلك ثم ويلك ٠٠ أهذا كلام يقال في بيت الله الحرام لأمر

مكة ؟

فصرخ القرمطى بغرور :

— لا أمير اليوم غيري هنا ٠٠ إني أبوطاهر القرمطى الأمير

والحاكم وصاحب الأمر والنهي في رقابكم جميعاً ٠٠

ثم وجه الكلام إلى رجاله قائلاً :

الحجر الأسود أو الأسود

وتتمهل قافلة الزمان في سيرها قليلاً ثم تتوقف عند الحجر الأسود الذي كان يتلألأ من شدة بياضه ويضيء المكان من حوله بنور وهاج ، ثم تحول بسبب خطايا البشر إلى لونه الأسود الحالي «١» .

وكان عبد الله بن الزبير أول من ربط الحجر الأسود بالفضة وذلك بعد حريق الكعبة الثاني . . . ومع الأيام تفلقت أحرمة الفضة من حوله وخلع بعضها .

فلما اعتمر هارون الرشيد سنة تسع وثمانين ومائة أمر بالحجارة التي بينها الحجر الأسود فنقبت بالماس من فوقها ومن تحته ثم أفرغت فيها الفضة ثم ثبت فيها الحجر . . . وفي السابع من ذي الحجة سنة سبع عشرة أو تسع عشرة وثلاثمائة وفد إلى مكة عدو الله أبو طاهر القرمطي «٢» برجاله

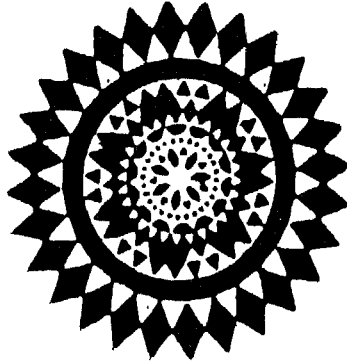
(١) « . . . لونه الأسود الحالي » وردت أحاديث صحيحة في السنن ، قال عليه السلام « كان أشد بياضاً من اللبن ، وإنما سويته خطايا بني آدم » ١٠ هـ .
(٢) « أبو طاهر القرمطي » هو سليمان بن الحسن الجنابي ، زعيم القرامطة ، وهم من الباطنية ، وكان طاغية زنديقا ، استولى على سائر بلاد البحرين ، بلغ قتله في مكة ثلاثين ألفاً مات بالجدري ، وقيل : رمته امرأة بليظة من السطح فقتلته ، وانقطعت بعده شوكة القرامطة (الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٧ ، دائرة المعارف ج ٧ ص ٧١٩) .

كذلك فقد زين الأفاريز^(١) والعتبة .

ويقول المثنى بن جبير الصوّاف :

– حين جمعوا ذهب الكعبة في ذلك الحين وجدوا فيه ثمانية
وعشرين ألف مثقال ، فزادوا عليها ما ثمنه خمسة عشر ألف
دينار .

هذا عدا ما احتفظ به داخل خزانقتها من أموال وتحف
أهديت إليها من الملوك والأمراء وما أكثر ما قدموا إلى الكعبة من
هدايا الذهب القيّمة .



(١) ، الأفاريز « جمع إفريز ، وهو ما أشرف خارج البناء ، ذكره المعجم الوسيط
ص ٦٨٧ وقال رشيد عطية في مرادف العامى ص ٢٥٦ : يقابله « الطنف » اهـ .

عبد الله بن الزبير ، فلو تركه لكان جيداً) .
وقيل : إن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أباه المهدي ،
سأل الإمام مالكا :
- ما رأيك أيها الإمام في هدم الكعبة ودمها ؟
فقال الإمام مالك :
- ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ألا تجعل بيت الله مَلْعَبَةً
فقتذهب هيبته من صدور الناس ويهون أمره عليهم
فلما آلت الخلافة إلى الوليد بعث إلى واليه على مكة خالد بن
عبد الله القسريّ بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابي
الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزابها وعلى الأساطين والأركان في
جوفها .

ويعتبر الوليد أول من ذهب البيت في الإسلام ، وقد بقيت
هذه الصفائح الذهبية حتى ولاية أمير المؤمنين محمد بن الرشيد ثم
رقت وتفرقت ، فأرسل إلى سالم بن الجراح عامله على مكة بثمانية
عشر ألف دينار ليضرب بها صفائح أخرى جديدة - فقام بخلع ما
كان باقياً على البابين من بقايا الصفائح الأولى ثم أعاد صياغتها
وزاد عليها وجعل المسامير من الذهب وحلقتى باب الكعبة المفتوح
أيضاً ٠٠ كما زين الباب الغربي المغلق الذي كان الحجاج قد سدّه

– يا أمير المؤمنين ٠٠ يكفى أنك تعانى من الأسف والندم
الآن ٠٠ إن فى هذا بعض التكفير عن الخطأ .
فعاد يقول :

– ولم لا أحاول الآن إصلاح الخطأ وإعادة البناء على ما
كان قد فعله ابن الزبير ؟ ولكن العلماء جميعاً كرهوا أن يغير
عبد الملك من حال الكعبة مرة أخرى وصمموا أن تبقى كما هى ٠٠
فغضب عبد الملك منهم وثار عليهم وطالبهم بإيجاد مخرج له من
هذه المحنة التى يعيشها ٠٠ فقال أحدهم :

– يا أمير المؤمنين ٠٠ كعبة الله ليست مَلْعَبًا للملوك
والأمراء وليست رهن رغباتهم ٠٠ هذا يهدمها وذاك يبنيها وهذا
يغير فيها وذاك يعيد التغيير من جديد .
وانصرف العلماء وبقي عبد الملك يعيش أياماً فى صمت
رهيب ٠٠ ثم انفجر باكياً كالطفل اليتيم .

ذكر الحافظ بن كثير فى تفسيره الروايات التى رواها مسلم
فى صحيفه عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى ذلك الحديث :
(هذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة لأنه قد روى عنها من
طرق صحيحة متعددة ، فقد روى عن الأسود بن يزيد ، والحارث
ابن عبد الله بن أبى ربيعة ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن
محمد بن أبى بكر وعروة بن الزبير ، فدل هذا على صواب ما فعله

— لو كنت سمعت قبل أن آمر بهدمه لتركته على ما بنى ابنُ

الزبير .

وعاد عبد الملك كاسف اليال حزيناَ إلى الشام ولكنه لم يهدأ ولم يستقر به الحال . وكان في كل يوم يستقدم عالما من العلماء ويسأله في الأمر ، وكلما آكثروا له صدق الحديث الذي قالت به عائشة رضى الله عنها ازداد آلاماَ وحزناَ وانتهى به الأمر الى حالة مرضية عجيبة كانت تجعله يقضى الساعات مطرقاً مفكراً في صميتٍ ، وقد تقلصت عضلات وجهه ، ثم يرفع رأسه ويصيح فجأة كالمجنون :

— لعنة الله على الحجاج . . لعنة الله على الحجاج .

وقرر عبد الملك بينه وبين نفسه أن يهدم البناء من جديد وأن يعيده إلى الوضع الذي كانت عليه الكعبة في عهد عبد الله بن الزبير ، وطلب العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي وقال لهم :

— لقد آخطأنا والله إذ آذنا للحجاج في تغيير بناء عبد الله بن الزبير ، وإنى لنادم على ذلك أشد الندم . ونفسي لا تطاوعنى على الصبر وترك هذا الخطأ . . لقد بناها عبد الله على هذا النحو . ليحقق رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فكيف أصبر على نقض هذا البناء ؟ فقال واحد منهم :

وَأَكْبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ) .

ونفذ الحجاج أوامر عبد الملك بن مروان وهدم من الكعبة ستة أذرع وشبراً مما يلي حِجْرِ إِسْمَاعِيلِ وَأَعَادَ بِنَاءَهَا عَلَى أُسَاسِ قَرِيشِ الَّذِي كَانَتْ قَدْ اسْتَقْصَرَتْ عَلَيْهَا وَكَبَسَ أَرْضَهَا بِمَا هَدَمَ مِنْهَا وَسَدَ الْبَابَ الْغَرْبِيَّ .

ولما فرغ الحجاج من هذا كله جاء عبد الملك بن مروان يعتمر ٠٠ وروى مسلم : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ كَانَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَالْتَقَى بِالْحَارِثِ «١» بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَقَالَ لَهُ بَعْدَ الطَّوَافِ :

— قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الزَّبِيرِ حَيْثُ يَكْذِبُ عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ : سَمِعْتَهَا تَقُولُ (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا عَائِشَةُ لَوْلَا حَدِيثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ ، فَانْ قَوْمَكَ قَصَّروا فِي الْبِنَاءِ)

فقال الحارث بن أبي ربيعة :

— لَا تَقُلْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ٠٠ فَإِنِّي سَمِعْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ

عائشة رضی الله عنها تحدث هذا .

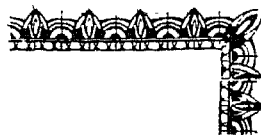
فقال عبد الملك :

(١) « ٠٠ » بالحارث « هو المخزومي ، ويلقب بالقباع ، وكان عاملاً ابن الزبير

بالبصرة ١٠ هـ .



بناء الحجاج للكعبة



وتمضى بنا قافلة الزمان لنرى الأنوار وقد عادت تتلأأ في مكة وهي سعيدة مبهجة بالكعبة المعظمة وقد بنيت من جديد على الصورة التي كان يريدتها رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقدّر لعبد الله بن الزبير الذي بنى الكعبة على هذا النحو أن يقتل في حربه مع الحجاج . فيكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول :

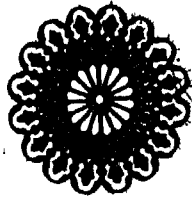
— (٠٠٠) وإن ابن الزبير قد وضع بناء الكعبة على أسس نظرت إليه بعين الغضب من أهل مكة وابتعد به كثيراً عن البناء الذي كانت قريش قد أقامته واشترك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد زاد في البيت ما ليس منه وأحدث فيه باباً آخر ، وإنى أستأننكم في ردّ البيت إلى ما كان عليه في الجاهلية)

وأنهى الحجاج خطابه بعبارات نقدٍ لاذعة لعبد الله بن الزبير . فكتب إليه عبد الملك يقول :

— (٠٠٠) وإننا لسنا من تلطّيح ابن الزبير في شيءٍ . أما ما زاد في طول البيت فأقره عليك أن تتركه . وأما ما زاد فيه من حجرٍ إسماعيل فرده إلى بنائه الأصلي وسدّ الباب الذي فتح

- إنما كان ترك استلام الركن الشامى والغربى ، لأن البيت لم يكن تماماً وقد تم الآن والحمد لله .
 ثم أهدى للبيت مائة بَدَنَةٍ نَحَرَتْ جَمِيعَهَا جِهَةَ التَّنْعِيمِ ولم يبق من أشرف مكة ونوى الاستطاعة من لم يُهْدِ وينحر .
 ولم يريوم كان أكثر عتقاً ولا أكثر بدنة منحورة ولا شاة مذبوحة ولا صدقة مبذولة من ذلك اليوم ٠٠ لقد قام أهل مكة بذلك شكراً لله عز وجل على ما أنعم به من المعونة واليسير في بناء بيته الحرام على الصورة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام .
 ويقول الحافظ نجم الدين :

إن ابن الزبير بنى الكعبة المشرفة على قواعد إبراهيم الخليل إلا أنه جعل ارتفاعها ضعفى ما كانت عليه فى عمارة الخليل ، حيث إن ارتفاعها كان فى عهد الخليل تسعة أذرع على أصح الروايات ، وعبد الله بن الزبير جعل ارتفاعها سبعة وعشرين نراعاً ، وجعل لها سقفاً ، وجعل فى ركنها الشمالى درجاً يصعد عليه إلى سطحها ، وحللاًها بالذهب وجعل مفاتيحها من الذهب أيضاً .



غطاها بما بقى من الصخور بعد تسويتها وجعلها ناعمة الملمس
جميلة المنظر .

وفي اليوم السابع عشر من رجب عام ٦٥ هجرية وقف وسط
الناس وهتف :

— أيها الناس ٠٠ من كانت عليه طاعة فليعتمر من
التَّعْمِيمِ^١ « شكراً لله عز وجل ، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل
ومن لم يقدر على بدنة فلينبح شاة ٠٠ فمن لم يقدر فليصدق بقدر
طوله .

وخرج عبد الله بن الزبير ماشياً حافياً وخرج معه رجال من
قريش مشاة جفاة .

— منهم عبد الله بن صفوان^٢ وعبيد بن عمير ٠٠ فأحرم ابن
الزبير من أكمة^٣ أمام مسجد عائشة بمقدار غلوة^٤ وهو
على مقربة من المسجد المنسوب لعلي كرم الله وجهه ، وجعل طريقه
على ثنية الكجون^٤ « المقضية إلى المعلّاة وراح يلبي حتى وصل
البيت الحرام ، فلما طاف بالكعبة واستلم الأركان ، قال :

- (١) « التعميم » هو اقرب حل إلى الحرام ، اعتمرت منه عائشة ٠ ا هـ .
(٢) « ابن صفوان » هو عبد الله بن صفوان الأكبر ، رئيس مكة ، قتل مع الزبير ،
وهو الذي قدم لمعاوية حين حج القي شاة (انظر شذرات الذهب لابن العماد ج ١
ص ٨٠) .
(٣) « بمقدار غلوة » اي رمية سهم ٠ ا هـ .
(٤) « الحجون » جبل بأعلى مكة ، عنده مدافن أهلها ٠ ا هـ .

وما كان ينبغي لك أن تتجاهل أشراف مكة وصنادتها وزعماءها ثم
تمنح ولدك وصاحبه هذا الشرف العظيم من دوننا .
فقال لهم عبد الله :

— مهلاً يا قوم . . لا تثوروا ولا تغضبوا . . والله لقد رفع في
الجاهلية حين بنت قريش الكعبة ، فحكموها فيه أول من يدخل من
باب المسجد ، فطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله في رداءه
ودعا عليه السلام من كل قبيلة من قريش رجلاً فأخذوا بأركان
الثوب . . ثم وضعه الرسول الكريم بيده الكريمة في موضعه . .
ولقد حاولت أن أبتعد بكم عن الخلاف ولعقّ الدماء .
وهنا هدأت النفوس وذهب عنها الغضب ولم يحاول أحدهم
أن يثير جدلاً بهذا الشأن ثانية .

ولقد حقق عبد الله بن الزبير في بنائه للكعبة كل ما قال به
رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولما فرغ من البناء مَسَحَ
جوف الكعبة بالعنبر والمسك ودهن جدرانها من الخارج بالمسك
والعنبر أيضاً . . ثم غطاها بكسوة كاملة من الديباج
والقباطى^(١) وأعاد إليها ما كان قد أودعه بيت شيبه بن عثمان
من كنوز وحلّ وثياب . ولم يهمل الساحة من حول الكعبة بل

(١) « والقباطى » ثياب منسوبة إلى مصر ١٠ هـ .

قال عبد الله :

.. لقد اخترتكما لتقوموا بوضع الحجر الأسود في مكانه ..
فإذا دخلت في صلاة الظهر ضعوا الحجر الأسود في ثوب واحملوه
من دار الندوة إلى الكعبة ، وليضعه أحدكم بيده في موضعه ،
وسوف أطيل الصلاة حتى تفرغوا من عملكم .. فإذا فرغتم
فكبروا حتى أخفف من صلاتي .

فلما أقيمت الصلاة كبر ابن الزبير وصلى بالناس ركعة ،
وهنا خرج عباد وجبير بالحجر من دار الندوة ونفذوا ما قاله لهما
عبد الله بن الزبير ، وكان الذي وضعه بيده في مكانه هو
عباد^(١) ..

فلما أقرأه في موضعه وأطبقا عليه الحجرين كبرا ، فخفف
عبد الله صلاته ، وتسامع الناس بالخبر بعد الصلاة ، فغضبوا
وشارت ثائرتهم .. فقال واحد منهم :

.. ما هذا يا عبد الله .. ماذا فعلت يارجل ؟ لقد كنا أولى
من هذين الصبيين بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه .
وقال آخر :

.. أجل والله يا عبد الله .. لقد تجاوزت الحدود بهذا العمل

(١) .. عباد ، قيل : وضعه ابن الزبير بنفسه ، وقيل : وضعه الحجة . وقيل :
وصد حمزة بن عبد الله بن الزبير ١٠ هـ .

وقال عبد الله بن مطيع العدوي^(١) .

— دعونا نحاول ما حاوله آبائنا من قبل لنرى هل كان حقاً
ذلك الزلزال أم كان وهماً صوّره لهم الخوف .
ومدّ يده يريد أن يحرك حجراً عن أخيه . وفجأة ارتجفت
مكة كلها رجفة شديدة وبدت الجبال من حولها وكأنها تريد أن
تنقض . بل تساقطت بعض أحجارها . ففزع الناس وندم كل
من حضر هذه الواقعة . وبكى عبد الله بن مطيع العدوي بكاءً
مريراً وراح يستغفر ربه . وهنا أمر عبد الله بن الزبير العمال
بالبناء . فاستأنفوا العمل على الفور . وكانوا يبنون من وراء
حاجز خشبي والناس يطوفون من خارجه حتى ارتفع البنيان إلى
موضع الركن . فأمر عبد الله بموضعه فنقر في حجرين . فلما
فرغ العمال من البناء دعا عبد الله ابنه عبادةً وجبير بن شيبه بن
عثمان إليه وقال :

— لقد جمعكما لأمرٍ مهمٍّ جداً :

قال عباد :

— وما هو يا أبتِ ؟

(١) «عبدالله بن مطيع العدوي» : من رجال قريش ، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فقتل مع إبل الزبير في حصار الحجاج ، وأرسل رأسه مع رأسى : ابن الزبير ، وصقوان ، إلى الشام (الكامل لابن الأثير ج ٤ ص ١٢٧) .

هدم الجوانب جميعها ٠٠ فقال لهم عبد الله :

— زيدوا في الحفر .

فقالوا :

— قد بلغنا صخراً معمولاً على شكل أَسِنَّةِ الْإِبِلِ .
فقال لهم :

— زيدوا فاحفروا .

واقترب العمال يريدون زيادة الحفر ولكن هواءً من نار

تلقاهم ٠٠ فابتعدوا مسرعين وهم يصيحون :

— النَّارُ ٠٠ النَّارُ ٠٠

فسألهم عبد الله بن الزبير :

— مالكم ؟

فقالوا :

— لا نستطيع أن نزيد فقد رأينا أمراً عظيماً ٠٠ رأينا ناراً

يلفح لهيبها أجسادنا ٠ فلنترك الأمر إلى الصباح .

ولما بزغ فجر اليوم الثاني جمع عبد الله بن الزبير خمسين

رجلاً من وجهاء مكة وأشرفها وأخذهم إلى الكعبة وقال :

— اشهدوا ٠٠ هذه قواعد إبراهيم عليه السلام .

ونظر الخمسون رجلاً ومَن حضر من الأهالي إلى الأحجار

وأخذهم العجب من شكلها ولونها وقوتها وتماسكها .

الناس هربوا من مكة كلها ٠٠ بعضهم ذهب إلى الطائف وبعضهم ذهب إلى منى والبعض الآخر تحصن برؤوس الجبال - فعلوا ذلك مخافة أن ينزل بهم العذاب لاشتراكهم في الهدم حتى بوجودهم في مكة أثناءه .

فأمر ابن الزبير العمال الذين استقدمهم للهدم أن يبدأوا ولكنهم تَلَكَّأُوا ، وآرادوا الهرب مع من هرب من سكان مكة . فصعد إلى سطحها بنفسه في يوم السبت نصف جمادى الآخرة (عام ٦٥ هـ) «١» وأمسك بِالْمَعْوَلِ وجعل يهدمها ويرمى بحجارتها ، فلما رأى العمال أنه لم يصب بسوء آخنوا المعاول وصعدوا إلى جواره يشاركونه في الهدم . وكان من بين العمال عبد من الأحباش - أحضرهم عبد الله بن الزبير على أمل أن يكون بينهم الحبشى الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم (يُخَرَّبُ الكعبةَ نَو السُّويقتينِ مِنَ الحَبَشَةِ) «٢» .

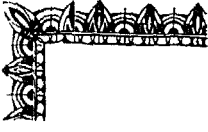
ثم نزل عبد الله بن الزبير وترك العمال يُتَمُّون الهدم ثم أخذ الحَجْرَ الأَسودَ ووضعهُ في ديباجةٍ ثم أدخله في صندوقٍ وأغلق عليه ثم وضعه بنفسه في دار الندوة .

وما إن مالت الشمس للمغرب حتى كان العمال قد انتهوا من

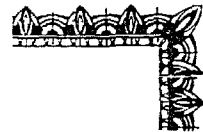
(١) (عام ٦٥ هـ) وقيل : عام اربعة وستين ١٠ هـ .

(٢) « ٠٠ من الحبشة » : رواه الامام احمد في المسند ١٠ هـ .

والسويقة . تصغير الساق ، للحموشة والدقة فيها ١٠ هـ .



بناء عبد الله بن الزبير للكعبة



وبدأ عبد الله بن الزبير بسؤال كبار السن من أهل العلم عن الأحجار التي بنت منها قريش الكعبة . فأخبروه أنها بنيت من جبال حراءٍ وثبيرٍ والمقطعِ وخندمةٍ وحلحةٍ ، ومن جبل بأسفل مكة على يسار ما انحدر من ثنية بنى عَصَلٍ . . . ويقال له : جبل الكعبة ، وهو الواقع على يمين الداخل إلى مكة من جَرَوْلٍ . ومن مَزْدَلِفَةَ «١» .

فنقل إلى عبد الله بن الزبير من الحجارة ما يحتاج إليه ، فلما اجتمع له ما يلزمه من آلات العمارة وأراد هدم الكعبة عمد إلى ما كان بداخلها من كنوز وحلى وثياب وطيب فنقلها إلى دار شَيْبَةَ بن عثمان «٢» . وتقدم يريد الهدم ويدعو الناس إلى مساعدته ، ولكن

(١) . . . ومن مزدلفة : هذا كلام الأزرقى في تاريخ مكة ج ١ ص ١٤٦ ، وللعلماء في ذلك خلاف وإشكالات ، ولم نجد «المقطع» و«حلحة» في معجم ياقوت ، والمعروف أن الكعبة بنيت من سبعة أجبل حراء ، وثبير ، ولبنان ، والطور ، والجبل الأحمر - وقيل طورسيناء وطوزيتا ، ولبنان ، والجودي ، وحراء . ويرى : أن بناءها من ستة أجبل ، من : ابي قبيس ، والطور ، والقدس ، ووركان ، ورضوى ، وأحد ، (انظر الروض الانف للسهيلى ج ١ ص ١٢٩ وشفاء الغرام للفاسى ج ١ ص ٩٢) ا هـ .

(٢) . . . شَيْبَةَ بن عثمان . : ورث حجابة الكعبة عن الآباء ، وهو قرشي ، من بنى عبدالدار ، اسلم يوم الفتح (تاريخ ابن عساکر ج ١ ص ٢٤٧)

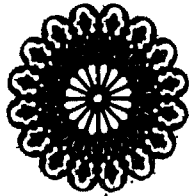
صلى الله عليه وسلم قال : هل تدرين لِمَ كان قومك رفعوا بابها ؟
 قالت عائشة رضى الله عنها : لا - فقال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم : تَعَزَّزًا أَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا مَنْ أَرَادُوا . . فكان الرجل إذا كرهوا
 أَنْ يَدْخُلَهَا يدعونه يرتقى حتى إذا كاد يدخل دَفَعُوهُ فسقط) .
 وهنا قال ابن عباس لابن الزُّبير .

- كلنا سمع بهذا الحديث النبوى الشريف يا عبد الله وإنى
 أسألك الآن : مَاذَا أَنْتَ فاعل . وعَلَامَ اسْتَقَرَّ رَأْيُكَ ؟
 قال عبد الله :

- إنى مستخير الله ثلاثاً ، ثم عازم أمرى يابن عباس .
 فقال ابن عباس

- حسناً . . ولكن أُحذِّرُكَ أَنْ تترك المسلمين بغير قِلة
 يتجهون إليها فى صلاتهم . . أنصب لهم حول الكعبة الخشب
 واجعل عليها السُّتورَ حتى يطوف الناس من ورائها .
 فقال عبد الله :

- أفعل إن شاء الله .



آخر فيهدمها . . فلا تزال تهدم وتبنى حتى تذهب حرمة البيت من قلوبهم . . والأفضل أن تقوموا بترقيعها .
فقال عبد الله :

— والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وتعالى ؟
فقال ابن عباس :

إن . . دعه كما هو .
فتسأل عبد الله :
— كيف وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى أن اللحم ليقع عليه ففتناثر حجارته وإني أشهد هنا على الملائة أنني سمعت عائشة رضی الله عنها تقول :

(إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن قومك استقصرُوا في بناء البيت ولولا حداثة عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه ؛ فإن بدا لقومك أن يبنوه فهلمني لأريك ما تركوا منه) . . فأراها قريباً من سبعة أذرع . . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وجعلت لها بابين موضوعين على الأرض باباً شرقياً يدخل الناس منه وباباً غربياً يخرج الناس منه) .

وقال عبد الله بن الزبير متمماً حديثه :
— وأشهد أن عائشة رضی الله عنها قالت (إن رسول الله

أبى هريرة ٠٠ أنحن نقتل ابن نبينا ونحرق بيت ربنا ؟ فقد والله فعلتم ٠٠ لقد قتلتم ابن نبيكم وحرقتم بيت الله ، فانتظروا النقمة ٠٠ فوالذي نفس عبد الله بن عمرو بيده ليفرقنكم الله شيعاً وليذيقن بعضكم بأس بعض ٠

واستمر عبد الله يحدثهم على هذا النحو الغاضب للحق ٠٠

ثم صاح فيهم :

– أيها الأمرون بالمعروف الناهون عن المنكر فوالذي نفس ابن العاص بيده لو قد فرقكم الله شيعاً وأذاق بعضكم بأس بعض لبطن الأرض خير لمن عليها ، لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ٠ وأمر عبد الله بن الزبير بالخصاص^(١) التي أقيمت حول الكعبة فهدمت ، وبالمسجد فكُنس ما فيه من بقايا الحريق والحجارة فإذا جدران الكعبة قد مالت وسقط بعضها فتهالك ، فانتظر حتى موسم الحج فدعا وجوه مكة وأشراقها ومن جاء معتمراً من رجالات المسلمين وقادتهم ٠ وشاورهم في هدم الكعبة وبينائها من جديد ٠٠ فوافقوا جميعاً إلا عبد الله بن عباس فقد اعترض على ذلك قائلاً :

– دعها يا عبد الله إلى ما أقرها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها ثم يأتي بعد ذلك

(١) « ٠٠ بالخصاص » هي بيوت من القصب ، تسقف بأخشاب ١٠ هـ ٠

وصل الخبر إلى مكة بوفاة يزيد بن معاوية وبلغ ذلك عبد الله فأرسل إلى الحصين بعض رجالات مكة وعلى رأسهم عبد الله بن خالد بن أُسَيْدٍ وعبد الله بن عمرو بن العاص فكلّموه وعظّموا عليه ما أصاب للكعبة ٠٠ فقال :

— ذلك منكم أنتم ٠٠ لقد احترقت بسبب شرارة طارت من رُبَيْرِيٍّ أوقد ناراً في خيمته ٠

فرد عليه ابن أُسَيْدٍ قائلاً :

— بل رميتها أنت ورجالك بالحجارة ثم بالنَّفْطِ ٠٠ والآن قد رجل أميركم عن الدنيا على ماذا تقاتلوننا ؟
وقال عبد الله بن عمرو بن العاص :

— ارجع إلى الشام حتى تنظر ماذا يكون رأي أميركم الجديد ٠

فاستمع الحصين للنصيحة وعاد بجيشه إلى الشام ٠ فحمد الناس الله سبحانه وتعالى أن خلصهم من شر هذا القتال المرير ٠
وبخل عبد الله بن عمرو بن العاص المسجد الحرام والكعبة محترقة تتناثر حجارتها ، ويقع عليها الحمام فتتساقط كِسْفًا ٠
غبكي بكاءً حاراً ؛ ٠ ثم قال :

— أيها الناس والله لو أن أبا هريرة أخبركم أنكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ومُحرِّقو بيت ربكم ، لقلتم ما من أحد أكذب من

معصية أمير المؤمنين ما وليتك . . . انظر إذا قدمت مكة فاحذر أن
تمكن قريشاً من أذنك . . . ولا تكن إلا الوُفَّاف ثم التُّفَّاف ثم
الانصراف .

وتوفى مسلم ومضى الحُصَيْنُ إلى مكة فقاتل عبد الله أياماً
أَحَسَّ بعدها عبد الله بضرارة القتال ، فجمع أصحابه وتحصَّن
بهم في المسجد الحرام وحول الكعبة . وضرب البعض خياماً
يجتمعون فيها من حجارة المنجنيق ، وكان الحصين قد نصب
المنجنيق على جبل أبي قبيس وعلى الجبل الأحمر - وهما أخشبا
مكة - فكان يرميهم فتصيب أحجاره الكعبة حتى تمزقت كسوتها
عليها - ويقال : **إِنَّ أَوَّلَ مَنْجَنِيْقٍ أَصَابَ الكَعْبَةَ أَنْتَ بَعْدَهُ أَنْبَاءٌ**
سمعه الجميع .

ولم يكتف الحُصَيْنُ وأصحابه بهذا ، بل رموها بالنفطِ
فاحتترقت واحترق معها الحجر الأسود وتصدَّع ثلاث فِرَقٍ
وانشطرت منه شَطِيئةٌ فشده عبدالله بالفضة وثبته مكانه إلا تلك
الشَطِيئة .

ولكن جدران الكعبة ضَعُفَتْ وتهاوت بعض أجزائها ففزع
لذلك أهل مكة وأهل الشام أيضاً . . . وتركها عبدالله يراها الناس
على هذا الحال ويزداد كرههم ليزيد بن معاوية .

ولم يزل الحصين بن نمير محاصراً عبدالله وأصحابه حتى

فقال له الرجل :

— لن تقوى عليه ٠٠ ثم إنه قد لَجَّ في أمرِك وأقسم ألا يؤتى
بك إلا مغلولاً ٠٠ وقد عملت لك أغلالاً من الفضة وسوف ترتدى
فوقها وتبَرَّ قَسَمَ أمير المؤمنين ٠

فقال عبدالله :

— لن أفعل يا أخا الشام ٠

فقال الرجل :

— الصلح خير عاقبة وأجمل به وبك يا بن خير الناس ٠
فقال عبدالله : حسناً ٠٠ دعنى أياماً حتى أنظر فى أمرى ٠
وشاور عبدالله أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله
عنه ، فأبَتْ عليه أن يذهب مغلولاً وقالت :

— يا بنى ٠٠ عِشْ كريماً ومُتْ كريماً ولا تمكن بنى أمية من

نفسك فقلعِبَ بك ، فالموت أحسن من هذا ٠

وامتنع عبدالله فلم يذهب إلى يزيد بن معاوية ٠ فأمر يزيد
قائد جيوشه مُسلم بن عُميرة الذى كان يقاتل أهل المدينة — أن يسير
إلى مكة — فلما كان بالطريق حضرته الوفاة ٠ فدعا الحُصين بن
نُعيم الكندى فقال له :

— يا بَرْدَعَةَ الحمار ٠ لولا أنى آكره أن أتزود عند الموت

عَوْدٌ عَلَى بَدْءِ

وتمضى بنا قافلة الزمان وقد تألقت الكعبة المعظمة ببور
 وهاج هو نور الإسلام الذي أشرق على الجزيرة العربية كلها
 وحررها من ظلام الشرك والكفر وعبادة الأوثان . . . ولكن الأهواء
 لا تلبث أن تتلاعب من حولها . . . فتبدأ النزاعات والخلافات بين
 المسلمين وتقوم العداوات قاسية ضارية . . . فقد حدث أن أبطأ
 عبدالله بن الزبير عن بيعة يزيد بن معاوية عندما آلت إليه
 الإمارة . . . وأغضب هذا يزيد فأرسل يهدده . . . وخشى عبدالله سطوة
 يزيد فجمع أصحابه ولحق بمكة ليمتنع بالحرم .

وجعل عبدالله بن الزبير يخطب في الناس ويظهر عيوب يزيد
 ويحرض الناس على كراهيته وكراهية بنى أمية . فبلغ ذلك يزيد ،
 فأقسم ألا يؤتى به إلا مغلولاً ، وأرسل إليه رجلاً من أهل الشام في
 خيل له ليستقمه على هذا النحو ، ولما وصل الرجل إلى عبدالله قال
 له :

– الأمر أعظم مما تظن يا عبدالله . . . لأن يستحل الحرم
 بسببك ، فإنه لأمر جَلَلٌ ولن يتركك يزيد . فقال عبدالله :
 – أنا له . . . فليفعل ما يشاء .

وَنَلَّتْ) فَأَجَابَهُ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (بَلْ عَزَّتْ
وَعَمِرَتْ يَوْمئِذٍ يَا عَثْمَانُ) .

ويأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا بأن يؤذن
للصلاة ، فيرتقى بلالٌ ظهر الكعبة ويؤذن في الناس للصلاة . ثم
يصلى بهم وقد تحررت نفوسهم تماماً من الشُّركِ وَأَغْلَالِ الوثينة .
وبعد الخطبة التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
الذين عانَوْهُ وَعَنَّبُوهُ وحاربوه بكل وحشية وشراسة وبذلوا كل ما في
طاقاتهم لكي يقضوا عليه وعلى دعوته وقال لهم :

(مَا تَرُونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟) قالوا (خيراً) أَخْ كَرِيمٍ
وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ) .

وباتت مكة ليلة الفتح الأبلج والنصر المبين وليس فيها رجلٌ
ولا امرأةٍ إلا وقد تطهَّرتْ نفسه - أو نفسها - وامتلاتْ بنور
الإسلام .

وردت آفاق مكة قول الله عز وجل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ١١٠ : ١ -
(صدق الله العظيم)

الكعبة وأمر بمحو كل ما على جدران الكعبة من صورٍ ورسومات ،
وقيل : إنه أرسل الفضل بن العباس فجاء بماءٍ من زمزم • ثم أمر
بثوبٍ وكلفه محو هذه الصور والرسومات جميعاً •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قاتل الله قوماً
يُصَوِّرون ما لا يَخْلُقون) ثم إن الرسول الكريم ضرب جميع
الأصنام والأوثان بقضيبٍ كان في يده فَحَطَّمَهَا ثم أمر بحملها إلى
الخارج حيثُ حُرِّقَتْ وَبِذَلِكَ تَطَهَّرَ الْحَرَمُ تَمَاماً مِنَ الرَّجْسِ وكل ما
حَرَّمَ اللهُ :

وخرج الرسول الكريم عليه أزكى السلام من الكعبة فوقف
ببابها ومفتاح الكعبة في يده ثم نادى : (أَدْعُ لِي عُثْمَانَ) فقام
عثمانُ بن طلحةَ بن أبي طلحةَ وتقدم منه • فقال له الرسول صلى
الله عليه وسلم :

(خذوها يا بنى أبي طلحةَ تالدة خالدة لا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا
ظالمٌ •• يا عثمان إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته
فخذوها بأمانةِ الله عزَّ وجل) • وابتسم الرسول الكريم لعثمانَ
ابتسامةً ذاتَ معنى كبير •• فَأَطْرَقَ عُثْمَانُ فِي حَجَلٍ - وكان لذلك
قصةٌ •• فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لعثمان
يوماً وهو يدعو للإسلام (لعلك سترى هذا المفتاحَ يوماً بيدي
أضعه حيث شئت) فقال له عثمانُ يوماً (قد هلكت قريشٌ يوماً



الفتح الأكبر



وعندما اكتمل استعدادُ المسلمين لفتحِ أمِّ القرى تقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القِصْواءِ وسار الجيش مدعماً بالإيمان داعياً الله عز وجلَّ أن يمنَّ عليه بدخول مكة والوصولِ إلى الكعبة المشرفة .

واستجاب الله لدعائهم ففتحت أمِّ القرى ذراعَيْهَا لاستقبال ابنها الحبيب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وعشرة آلاف من أصحابه المؤمنين - مهاجرين وأنصاراً .

ولم يَدْرُ قتال وكأنا كانت مكة في انتظارهم لتتخلص بهائياً من الأوثان ومن أولئك الذين عبدوها من دون الله العلي القدير .
وكأنا كان هؤلاء الذين عبدوها قد تخلَّوا عنها وفقدوا الأمل في أن تستطيع لهم خيراً أو نفعاً .

وظاف الرسول الكريم صلوات الله عليه وأزكى سلامه بالكعبة سبيحاً وبسط الألوף المؤلفة من الجموع التي احتشدت للقرى انتهاءً عهد الظلام وبداية استقرار عهد النور والإيمان .
وبقى الرسول في البيت الحرام ما شاء له الله ، ثم دخل

المُبْرَمَ بينها وبينه صلى الله عليه وسلم . فلم تفعل وظلت على
غيبها . . .
وبينما الرسول صلى الله عليه وسلم قد جلس مع أصحابه في
مسجده بالمدينة اندفع إليه فجأة عمرو بن سالم الخزاعي وصاح
منشداً :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا
جَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْلَدَا
فَانصُرْ هَذَا اللَّهَ نَصْرًا أَعْتَدَا
وَإِذْ عُبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِي قَيْلِيقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا
إِنَّا قَرِيشًا أَخْلَفْنَاكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضْنَا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
وَزَعَمْنَا أَنْ لَسْنَا تَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا
يَبْتُونَنَا بِالْوَتِيرِ^١ هَجَدَا
وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسَجْدَا

ثم سقط عمرو بن سالم بين يدي الرسول منهاراً . فقال
عليه الصلاة والسلام :
(نَصْرَتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ) . ثم أمر صلى الله عليه وسلم
أصحابه بالاستعداد لفتح مكة .

(١) بالوتير : الوتير . ماء بأسفل مكة لخزاعة ، وهذا الشعر ذكره ابن الأثير في « الغابة » فتريجة عمرو بن سالم ، اهـ .

القوم ٠٠ وعندئذ بادر أصحابه إلى النحر والطلق بعد أن تأكد لهم أنه صلى الله عليه وسلم لن يدخل إلى الكعبة بعد تحلّيه بالنحر والطلق ٠

وبذلك تم الأمر على خير حال وعاد المسلمون إلى المدينة سالمين وقد حُقِّقَتْ دماؤهم ٠

ومضت أيام وقعت فيها أحداث جسام استطاع فيها النبي صلى الله عليه وسلم أن يطهر المدينة من اليهود الخَوَّنة - وكان يتوقع أن تحافظ قريش على عهدها وأن تصون صلح الحُدَيْبِيَّةِ «١» ولكنها لم تفعل - وراحت تظاهر بَكْرًا على خزاعة وتساعدها بالسلاح غير مبالية بعهد الحُدَيْبِيَّةِ الذي ينص على أنه (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْيَدْخُلْ فِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ فَلْيَدْخُلْ فِيهِ) ٠ وخزاعة كانت قد دخلت في عقد الرسول وجِئْفِه فَشَنَّتْ بَكْرًا عليها الحرب وراحت تقاتلها بسلاح من قريش ٠

وضبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل قريشاً ترجع عن غيها وتتوقف عن مساعدة بَكْرٍ ضدَّ خزاعة لَأَنَّ فِي ذَلِكَ نَقْضًا لِلصَّلْحِ

(١) صلح الحديبية ٠ روى عن الامام التافعي انه قال : « الصواب تشديد الحديبية وتحفيف الجعرانة » ا هـ ٠

بنودها أَن يعود بأصحابه إِلى المدينة هذا العام ثم يرجع بهم في
العام الثَّانِي لِأداء العمرة .

وَكَبَّرَ على أَصحاب الرسول - وفي مقدمتهم عمر بن
الخطَّاب - أَن يرجعوا إِلى المدينة دون أَن يعتمروا ، وَتَحَرَّجَ
الموقف ، فتركهم النبي صلى الله عليه وسلم ودخل إِلى خِباءِ أُمِّ
سَلَمَةَ وكان ينوى أَن يستريحَ بعض الوقت ثم يعود إِلَيْهم فيحاول
إِقْناعَهُم من جديد .

ولاحظت أُم سلمة أَنه صلى الله عليه وسلم مكتئب فقالت
له :

- يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم بما
أدخلت على نفسك من مشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح .
فَسَرَى هذا القول عن الرسول الكريم وطلب منها أَن تستمر
في حديثها . فقالت رضى الله عنها :

- الرأى عندي أَن تخرج إِلَيْهم دون أَن تكلم أحدًا منهم
فَتَحَرَّجَ بِدُنْكَ ، ثم تَحَلَّقَ رَأْسُكَ ، فَإِنَّكَ إِن تفعل ذلك لا مناص
حينئذ من اتباعك بغير تردد .

فَأَخَذَ الرسول صلى الله عليه وسلم برأيتها وخرج قاصداً
بِدُنْهُ فَأَهْوَى بِحَرَبِيَّتِهِ إِلى تَحَرُّبِ بَعْضِهَا مَكْبَرًا ثم استدعى خِراشاً
الخرامى وأمره أَن يعلق له ، ففعل وألقى رأسه على شجرة بين

فغضب الحليس لهذه السخرية وصاح بهم مهدياً :

– يا معشر قريش ٠٠ والله ما على هذا حالناكم والذي
نفس الحليس بيده لَتَحَلَّنَّ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ أَوْ لَأَنْفَرَنَّ
بِالْأَحَابِيثِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ .

ووجدت قريش نفسها بعد هذا في موقف لا تحسد عليه ، فقد
كان تهديد الحليس لها على هذا النحو واقتناعه من قبل التهديد
بصحة رأى النبي صلى الله عليه وسلم كافياً لأن يحث الذعر
والفرع بين جموع المشركين في مكة ويدفعهم إلى إعادة التفكير في
موقفهم الظالم من المسلمين ٠٠ فالأحباش الذين كانوا تحت
قيادة الحليس يمثلون عدة قبائل قوية إذا انفصلت عن معسكر
قريش أصابته بضرية قاصمة خاصة في تلك المرحلة الحرجة التي
بلغ فيها التوتر نبروته بين المسلمين ومشركى مكة .

فتروح قريش تهديءً من ثائرة سيد الأحباش وتحاول
تلطيف الموقف لئلا ينفذ تهديده ويفض الحلف الذي بينها وبينه ،
ثم تطلب من الحليس مهلة للتفكير وإعادة النظر قابلة :

– مَهْ ٠٠ كَفْ عَنَا يَا حَلِيسَ حَتَّى نَأْخُذَ لَأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى .

وقد استجاب الحليس إلى طلبهم فلم ينسحب من حليفهم
وصبر عليهم حتى أعادوا النظر والتفكير ، ثم مالوا إلى الصلح
وانتهوا إلى توقيع معاهدة مع النبي صلى الله عليه وسلم أول ما في

ثم شدّد نكيره على قريش قائلاً :

— هلكت قريش ورب الكعبة ٠٠ إنما القوم أتوا عمّاراً ٠

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :

— أَجَلْ يَا أَخَا بَنِي كِنَانَةَ ٠

ويدون أن يناقش الحليس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو

يكلمه فيما بعثته به قريش عاد وفي نفسه أنها غير محقّة في تصرفها

مع المسلمين ٠

وخرجت قريش كلها تستقبله وتحاول معرفة ما عاد به

فقال :

— رَأَيْتَ مَا لَا يَحِلُّ صَدَهُ ٠٠ رَأَيْتَ الْهَدْيَ فِي الْقَلَانِدِ قَدْ أَكَلَ

أَوْبَارَهُ مَعَكُوفًا عَنْ مَجَلَّةٍ ، وَالرِّجَالُ قَدْ تَفَلَّوْا وَقَمَلُوا^(١) أَنْ يَطُوفُوا

بهذا البيت ٠٠ أما والله ما على هذا حالفناكم ٠٠ ولا عاقبناكم

على أَنْ تَصْنُتُوا عَنْ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ جَاءَ مَعْظَمًا لِحَرَمَتِهِ مُؤَدِّيًا لِحَقِّهِ

وساق الهدى معكوفاً أَنْ يبلِغَ مَجَلَّةً ٠

هنا غضبت قريش ورأت في قوله تأييداً لحجة النبي صلى الله

عليه وسلم وسخر أحدهم منه قائلاً :

— اجلس ٠٠ إنما أنت أعرابي ولا علم لك ٠

(١) تفلّوا وقملوا ٠ أى اتنن ريحهم من ترك الطيب والاممان ، وتبلد فيهم القمل

الحليس بن زيان "١" حليفها الأكبر وتطلب منه أن يكون وسيطها
الرابع إلى النبي صلى الله عليه وسلم عسى أن يستطيع التوفيق وحل
هذا النزاع الخطير .

وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة ، وكان سيداً
مطاعاً يعرف له الجميع مكانته ومنزلته . والعجيب أن هذا
الوسيط الذي توقعت قريش أن يعود لها بما أرادت والذي هو من
أكبر حلفائها . . عاد مؤيداً الفكرة التي يتمسك بها رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وهي أن من حق المسلمين الاعتمار وليس
لأحد مهما كانت مكانته أن يمنعهم من ذلك .

إذ أنه لما لقي النبي صلى الله عليه وسلم كانت الإبل التي
تساق إلى الحرم لتنحر هناك أول ما وقعت عليه عينه ، فلما رآها
ورأى المسلمين وقد استقبلوه بليونة وقد شعثوا من طول المكوث على
إحرامهم صاح مستنكراً :

— سبحان الله . . ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت
أبى الله أن يحج لحمٌ وجُدامٌ ونهدٌ وحميرٌ "٢" . ويمنع ابن
عبدالمطلب .

(١) الحليس بن زيان : وقيل الحليس بن علقمة — كان رئيس يوم أحد ، وهو الذي
مر بأبي سفيان بعد الوقعة فراه يضرب شدة حمزة بزج الرمح ، فلما ندد به ، قال له
ويحك ، اكتمها عنى ، فانها كانت زلة ، ا هـ — (امتاع الأسماع للمقرئ ج ١ ص ٢٨٨) -

(٢) . . وحمير — أسماء قبائل معروفة ، ا هـ .

– أما والله لولا يدك عندي لم أجزك بها بعد لأجبتك .

وكان من عادة العرب في الجاهلية أن يمسك الزعيم بلحية الذي يراه نداءً له أثناء الحديث ، وعلى هذا الأساس كان عروة أثناء الحديث يمسك بلحية الرسول صلى الله عليه وسلم فاغتاظ المغيرة ابن شعبة وقرع يده بقائم السيف قائلاً .

– اكفف يدك عن مسّ لحية رسول الله .

فاستعظم عروة أن يقال له هذا القول من أحد حراس الرسول وسأل عنه ، فلما علم أنه ابن أخيه وقد أسلم ، اشتعل غيظه وهاج وماج وعاد إلى قريش دون أن يصل إلى هدفه . . عاد مذهولاً من قوة هذا الدين الذي استطاع أن يهدى المغيرة ابن أخيه الذي كان من أقوى أعداء الاسلام والمسلمين .

ويظل الحال على هذا المنوال . . الرسول صلى الله عليه وسلم يعسكر في ناحية وقريش تعسكر في الأخرى . . والرسول تروح وتجيء بين الجانبين محاولة التوفيق وتقريب وجهات النظر . وتبعث قريش برسول اخر هو مكرز بن حفص «١» أحد

رجالها المشهورين بقوة الحجّة والمراوغة والغدر ، فيعود بلا نتيجة إذ لا يفلح مكره وغدره مع المسلمين ، فترسل سيد الأحباش (١) مكرز بن حفص : شاعر جاهل ، ادرك الاسلام ، وكان من الفتاك ، وهو الذي قيد نفسه مكان سهيل بن عمرو حتى بعث بالفداء ، ا هـ .

– حتى وإن كان محمد قد جاء لا يريد قتالا فوالله لا يدخلها
عنوة أبداً ٠٠ أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً
وتسمع العرب أنه قد دخل عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما هو
قائم ٠٠ والله لا كان هذا أبداً ٠

وذهب عروة بن مسعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما
دخل عليه وسلم استقبله أحسن استقبال ، وتكلم عروة فحاول
تخويف النبي صلى الله عليه وسلم من قوة قريش ، كما حاول أن
يَفْتَّ من عضد الرسولِ وَيُضْعِفَ من ثقته برجاله قائلاً له :

– وَائِمْ اللهُ يَا مُحَمَّدُ لِكَأَنِّي بِهِؤْلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْكَ ، إِنِّي لَا
أَرَى مَعَكَ إِلَّا أَوْيَاشًا مِنَ النَّاسِ لَا أَعْرِفُ وَجُوهَهُمْ وَلَا أَنْسَابَهُمْ
خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدْعُوكَ ٠

وكان أبو بكر الصديق واقفاً خلف الرسول صلى الله عليه
وسلم وسمع هذا فغضب وثار ثورة كبيرة على عروة الذي جاء مهتداً
بقوة قريش ، محاولاً الانتقام من قيمة أصحابه وهم بالاعتداء

على عروة ، فقال عروة :
– من هذا يا محمد ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

– هذا أبو بكر بن قُحَافَةَ ٠

فقال عروة يخاطب أبا بكر :

هذا أبدأً ٠٠ والله لاتنصرون على رجل يعرض السلام كمحمد .
وطلب عروة وبعض زعماء قريش من بُدَيْلٍ أَنْ يتكلم ، فتكلم
بما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشتموه واتهموه
بالتحيز للمسلمين ورفضوا دخول محمد وأصحابه مهما كانت
الأسباب .

ثم مال العقلاء إلى الأخذ بنصيحة عروة بن مسعود ،
فأسكتوا المتطرفين من الشباب وطلبوا من بُدَيْلٍ الكلام ثانية ،
فأبلغهم العرض الذى عرضه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو :
(إقامة سِلمٍ بين المسلمين وقريش يأمن فيه كل جانب ولو
لفترة محدودة ، على أن تبدأ هذه الفترة بأن يسمحوا للمسلمين
بإداء مناسك عمرتهم وتقف قريش خلالها موقف المحايد إذا اشتبك
للنبي مع العناصر الوثنية ، فإن انتصر النبي صلى الله عليه وسلم
دخلت قريش فيما يدخل فيه العرب ، وإن كان العكس فلها أن
تقاتل المسلمين) .

كانت هذه خلاصة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد
قال بُدَيْلٌ بعدها :

– يامعشر قريش إنكم تعجلون على محمد وإن محمداً لم
يكن باعثَ حرب ولم يأت لقتال وإنما جاء معتمراً لهذا البيت
فلم تقبل قريش عرض النبي ولا نصائح بُدَيْلٍ وقالوا :

أبى جهل وعقر جملة وحاول قتله فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

– يارسول الله ابعث إليهم رجلاً أَمْنَعَ منى

فَأَرْسَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَدِيلَ بْنِ رِقَاءَ مَعَ وَفْدٍ مِنْ

خَزَاعَةَ (١) فَحَاوَلَ عَكْرَةَ وَبَعْضَ الْمُتَهَوِّرِينَ مِنْ شَبَابِ قُرَيْشٍ حَمَلًا قَوْمَهُمْ عَلَى مَقَاتِعَةٍ وَفَدَّ السَّلَامَ هَذَا .

فلما رأى بدیل ما يحاولون صاح فيهم

– إِنَّمَا جِئْنَا نَسْعَى لِإِحْلَالِ السَّلَامِ وَمَنْعِ نَشُوبِ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ

وبين محمد ، فهل نخبركم الخبر أم نمضى إلى حال سبيلنا ؟

فيجيبه عكرمة بغضب ::

– لا . لا والله ما لنا حاجة بأن نخبرنا يا بديل . . . عُدْ

وَأَصْحَابِكَ مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ . وَبَلِّغْ صَاحِبِكَ أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَهَا أَبَدًا

وفيها رجل واحد منا .

وكان عروة بن مسعود سيّد ثقيفٍ حاضرًا يسمع ما يدور من

حديث بين وفد خزاعة والمتطرفين من شباب قريش – إذ كان من

حلفاء قريش وقد جاء من الطائف ليسانداهم في قتال محمد

إِلَّا أَنْ قَوْلَ الشَّبَابِ مِنْ قُرَيْشٍ لَمْ يَعْجِبْهُ فَقَالَ :

– وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطْرَ رَأْيٍ عَجَبًا . . . وَلَا يَفْلَحُ قَوْمٌ فَعَلُوا

(١) من خزاعة : وأرسل قبله عثمان بن عفان وبديل هو الذى امره الرسول

بجس الاموال التى غنمها من حنين بالجعرانة حين يقدم ، وهو خزاعى ، ا هـ

وستمائة من أصحابه المسلمين كلهم رجل واحد يفتديه بحياته .
فيرد عليه سَهِيلٌ^١ «١» قائلا :

— إنه التحدي السافر لقريش في أقوى صورهِ .
ويقول صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ :

— إنه يريد أن يبخل عنوة وبيننا من الحرب ما بيننا .
والله لا يكون هذا أبداً وبقينا عينَ تَطَّرَفُ^٢ .

وعلى الفور أعلنت قريش حالة الاستنفار وعبأت رجالها
المسلحين وطلبت مساعدة الحلفاء من الأحباش وثقيف
وغيرهم . . . وجمعت أموالها واستعدت لقتال محمد .

وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما قامت به قريش من
استعداد للحرب والقتال ، فأرسل إليها خِرَاشَ بنَ أُمَيَّةَ
الكَعْبِيِّ^٣ «٢» يبلغهم أنه لم يأت للحرب وإنما جاء مسلماً لاهدف له
إلا أداءً مناسك العمرة ثم العودة إلى المدينة .

ولم يكد خِرَاشٌ يصل إلى وادي بَلَدَحَ^٤ «٣» حيث عسكرت
قريش بقبضها^٤ . «٤» وقَضِيضُهَا وحلفائها حتى هاجمه عكرمة بن

(١) سهيل : هو ابن عمرو ، القرشي العامري ، خطيب قريش ، أسلم يوم الفتح ،

١ هـ . (٢) خراش بن أمية . هو الذي حلق رأس الرسول يوم الحديبية ، ١ هـ .

(٣) وادي بلدح : واد قبل مكة من جهة المغرب ، ١ هـ .

(٤) بقضها : القرض ، الحصا الصغير ، والقضيض : الكعبى اى جاوا بالكبير

وبالصغير ١٠ هـ .

حيث دعا براحلته فركبها من باب المسجد . . فلما انبعثت به
مستقبلة الكعبة أحرم ولبى بأربع كلمات هي

(لبيك اللهم لبيك . . لبيك لأشريك لك لبيك . . لبيك إن

الحمد والنعمة لك والملك . . لأشريك لك) .

وأحرم حجاج المسلمين بإحرامه وكان قد خرج معه في هذه

العمرة أربع نساء : الأولى أم المؤمنين أم سلمة وثلاث أنصاريات

هـن أم عمارة وأم منيع « ١ » وأم عامر .

وشاع بين العرب جميعاً نبأ خروج الرسول صلى الله عليه

وسلم للعمرة . وبلغ الخبر إلى قريش . فهاجت وماجت ونسيت

العرف السائد والقانون غير المكتوب الذي التزمت به والتزم سندنه

البيت منذ آلاف السنين قبلها . . بل لقد ضريت بهذا العرف وهذا

القانون عرض الحائط . . وقررت منع الرسول وأصحابه من

دخول مكة .

واجتمع رؤوس قريش وعظماؤها وراحوا يناقشون الموقف

فقال عكرمة بن أبي جهل :

— يا للعجب . . محمد الذي خرج من مكة خائفاً يترقب بعد

أن أهدرت قريش دمه وقررت الفتك به يعود إلى مكة على رأس ألف

(١) . . وأم منيع : يقال لها . أم شبات ، شهدت العقبة مع أم عمارة نسيية ، ولم

يشهدا غيرهما من النساء ، ا هـ .

– تدخل على قوم هم لك حرب بغير سلاح ولا كُراع «١» ،
 فعمل النبي عليه الصلاة والسلام بالنصيحة واحتاط للأمر
 فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها سلاحاً ولا كُراعاً إلا حملة ، وفي
 نفس الوقت طلب من بُسر بن سفيان بن عمير الذي كان قد قدم عليه
 مسلماً – أن يقيم بالمدينة .

وقال صلى الله عليه وسلم : (يا بُسر لا تَبْرَحْ حتى تخرج
 معنا فإننا إن شاء الله معتمرون) . ثم أمره أن يبتاع له
 بُدناً «٢» – فذهب بُسر إلى البادية وابتاع سبعين .

وكان خروج النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم الاثنين
 لَهلال ذى القعدة سنة سبع من الهجرة – وكان قد اغتسل في بيته
 بالمدينة ولبس ثوبين من نسيج صحار وركب راحلته القَصْوَاءَ –
 وما يزال يسير بالمسلمين حتى وصل ذَا الحَلِيفَةِ «٣» وهناك توقف
 وصلى بهم الظهر ثم دعا بالبُدنِ فجلَّتْ ثم أشعَرَ «٤» بنفسه منها
 عدة وهُنَّ مَوَجَّهَاتٌ إلى القبلة وكان بين البدنِ جَمَلُ أَبِي جهل وقد
 غنمه النبي بموقعة بَدْرٍ فساقه مع الهدى إغَاظَةً للمشركين . .
 ومن ذى الحليفة أحرم النبي صلى الله عليه وسلم بالعمرة

(١) ولا كراع – يعنى الخيل ، والبغال ، والحمير ، ا هـ .

(٢) بدنا : هى الابل تنحر بمكة ، ا هـ .

(٣) ذَا الحليفة : ميفات اهل المدينة ، ا هـ .

(٤) اشعر : اى جعل لها علامة بشق جلدها وإسالة دمها ، لتعرف انها هدى

الله ، ا هـ .

والنصر المبين .. فتح مكة والنصر على المشركين .. فقد ظل المسلمون خمس سنوات بالمدينة لامتكتهم ظروفهم من مباشرة حقهم الشرعي في أداء العمرة والطواف بالكعبة المشرفة .
أما بعد أن أصبحوا قوة قوية فرضت كلمتها وهيبتها على كل منطقة يترتب وبعد هذه الانتصارات الساحقة على قوات الأحزاب الضاربة فكان لا بد من التصقية الدموية العادلة الحاسمة لخونة اليهود ..

فقد قرر المسلمون زيارة البيت الحرام - وكان العرف المتبع والقانون غير المكتوب بين العرب أن زيارة البيت الحرام والطواف بالكعبة حق مشاع للعرب جميعاً - مهما اختلفت مذاهبهم وتباينت اتجاهاتهم .. ولا يجوز لكائن من كان أن يمنعهم هذا الحق .

وقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك للملأ .. كما أعلن أنه لا يريد دخول مكة غازياً أو محارباً ولكنه يدخلها مسالماً معتبراً وطلب من أصحابه الاستعداد .

ولكن عمر بن الخطاب وسعد بن عباد نصحاء أن يسلم أصحابه فقد تغدر بهم قريش وتشهر عليهم الحرب ..
فقال عمر :

وهنا يكون صبر أبي نائلة قد نفذ . . . فيسحب سيفه ويهجم

على كعب وهو يصيح بأصحابه :

— اقتلوا عدو الله . . .

وتتلاقى السيوف في جسد كعب بن الأشرف ويسقط على

الأرض صريعاً . . . ويخرج أبونائلة شاهراً سيفه ومن خلفه

أصحابه ويصيح في اليهود :

— قتل عدو الله كعب بن الأشرف .

ويسقط في يد اليهود ويبدأون يفكرون تفكيراً جديداً . . . لقد

أحسوا أنهم لن يستطيعوا التغلب على محمد بن عبد الله وحده . . .

ولهذا أخذوا يتصلون بطواغيت المشركين في قريش ويضعون فوق

نيران بغضهم لمحمد ودينه — يضعون زيتاً تآججت به النيران

أكثر فأكثر .

وكان لابد أن يبدأ الصدام المسلح بين محمد صلى الله عليه

وسلم وأصحابه من ناحية وبين المشركين من ناحية أخرى ، فكانت

موقعة بدر التي انتصر فيها نبي الله صلى الله عليه وسلم . وكان

مابعدهما من معارك طاحنة قاتل فيها المسلمون قتالاً مريراً نفاعاً .

عن دينهم وبنلوا النفس والنفيس من أجل إعلاء كلمة الدين

الحق . . . بين الاسلام .

ويمضى بنا ركب التاريخ لنشهد مقدمات الفتح الأبلج .

• عطر امرأة تُحِبُّنى •• امرأة أحد-العظماء •

فيرد عليه أبو نائلة بسخط :

— ألا تكف عن الاقتراء على نساء الآخرين ؟

فيتأمل كعب أصحاب أبي نائلة قائلاً :

— أين ما تريدون رهته عندى ؟ إذا كنتم تريدون رهن

أبنائكم هؤلاء فعددهم لا يكفى ولا بد أن تحضروا المزيد ••

فيقول أبو نائلة :

— إنا نستحي أن يعيرَ أبناؤنا ، فيقال : هذا رهينة

وسقى "أ" وهذا رهينة وسقىين •• وهؤلاء هم أصحابى جاءوا

عوناً لى ••

فيرد كعب فى قحةٍ :

— إنن ترهنون نساءكم •• أريد نساءكم رهناً •

فيجيبه أبو نائلة :

— ولا نساؤنا ياكعب •• وأنت أدرى بالسبب •

فيقول كعب بإصرارٍ خبيث :

— أريد نساءكم رهناً •• لن أعطيكم شيئاً قبل أن تحضروا

نساءكم إلى بيتى •

(١) •• وسقى • الوسق ، حمل بعير ، أو ستون صاعاً ، وعند أهل الحجاز ثلاثمائة

رطلا ، وعند أهل العراق أربعمئة وثمانون رطلا ١٠ هـ •

نستعدُّ بها .

فيؤكد له كعب - وكان من كبار المرابين^(١) - ومن
الفساق أيضًا أنه على استعداد لمعاونتهم بالسلاح والمال على أن
يكون لهم تحت يده رهن فيه ثقة ٠٠ فيوافق أبو نائلة ويخرج على
أن يعود في الغد عند منتصف الليل بالرهن ثم يتسلم السلاح .
ولا يكاد يخرج أبو نائلة حتى يعود كعب إلى الكتابة وهو

يقول :

- أين أنت أيها الشيطان العظيم ٠٠ يا شيطان شعري
البارع ٠٠ أين أنت لتري وتسمع ٠٠ لقد فعلت قصائد الأفاعيل
بالناس وهامم الذين آمنوا بمحمد أمس يريدون الارتداد ممن بينه
اليوم .

وفي منتصف ليل اليوم الثاني يحضر أبو نائلة مع بعض
أصحابه^(٢) ولا يكاد كعب يغرف خبر وصوله حتى يسرع إليه
مختلا ورائحة العطر قوية تفوح منه ، فيلتقاه أبو نائلة قائلاً :
- ما هذا العطر القوي الذي يفوح منك يا كعب ؟

فيقول كعب بخلاعة وخبث :

(١) المرابين : الذين يتعاطون المال بالربا ١٠ هـ .
(٢) أصحابه : هم محمد بن مسلمة ، وعبيد بن بشر ، والحارث بن اوس ،
وأبو عيسى بن جبر - وشيعهم الرسول بنفسه حتى البقيع ١٠ هـ (المحبر لابن حبيب ص
٢٨٢٠) .

أشد الحقد منذ آسلمت .

فيقول أبو نائلة :

— بل سأذهب إليه وأحتال عليه حتى يطمئن لي . . ثم أفعل
به ما أريد . .

ويمضى أبو نائلة إلى كعب بن الأشرف ويظل به حتى يطمئن
له . . ثم يقول :

— يبدو أننا قد أخطأنا عندما صدقنا محمد بن عبد الله
واتبعناه .

فيقول كعب في غرور :

— بون شك . . بون شك .

فيستطرد أبو نائلة قائلاً :

وقد جئناك اليوم لتقول إن قدوم هذا الرجل علينا كان من
البلاء . . بل هو البلاء نفسه . . لقد حاربتنا العرب ورمتنا عن
قوس واحدة ونحن الآن نريد التنحي عنه .

فيقول كعب وقد استخفه الفرح

— وما الذي يمنعكم عن ذلك ؟

فيجيب أبو نائلة .

— المال والسلاح يا كعب . . نحن لانملك المال ولا نملك
السلاح ولا نضمن إن تنحينا عنه ألا يحاربنا ، ولهذا لا بد لنا أن

– هات أيها الشيطان البارح .. هات الهجاء مريراً
 لانعاً .. لم يعرفه أحد من قبلي ولا يعرفه أحد من بعدي .
 وبترك كعب بن الأشرف لشيطان شعره ونعود لحمد بن
 مسلمة فيأذا هو يضرع في ابتهاج حار إلى الله قائلاً :
 – اللهم اكفنا شر كعب بن الأشرف في إعلانه الشر وقوله
 الشعر .. اللهم إني أتوجه إليك بما قاله نبينا الكريم محمد بن
 عبد الله .. فاستجب يارب العالمين .

وينتهي ابن مسلمة من ابتهاجه ويتجه يريد المسير .. وهنا
 يقبل عليه أبو نائلة . وكان أخاً في الرضاعة لكعب بن الأشرف وقد
 أسلم وحسن إسلامه .. فيقول :
 – إلى أين يابن مسلمة ؟

فيجيبه .
 – إلى رسول الله وأصحابه فهم قد اجتمعوا للتشاور في أمر
 كعب بن الأشرف . فيقول أبو نائلة والآنم يقطر من عبارته :
 – لقد ساعنى والله وحز في نفسى ما قاله كعب في رسول الله
 صلى الله عليه وسلم .. وقد قررت أن أذهب إليه وأزجره ، بل
 أهتده .. فإن لم يرجع عن غيئه فسوف يكون لى معه شأن آخر
 فيقول ابن مسلمة :

– أخاف عليك إن ذهبت إليه يا أبا نائلة فهو جاهد عليك

يتفرغ للعروس تفرغ للكتابة . . ولم يعجب هذا الحال عروسه
التي كانت تنتظر أن يحتفى بها ويحتفل وأن يكون لها وحدها جل
اهتمامه فقالت تعاتبه :

— ما هذا ياكعب . . أتتركنى ليلة عرسى لتكتب ؟
فلما لم يرد عليها راحت تكرر له القول وتطلب منه أن يترك
الكتابة ويتجه لها . . فقال كعب .

— أه لوتعلمين ماذا أكتب يا عروسى الجميلة . . إننى أكتب
قصيدة نم وهجاء في أعداء اليهودية . في محمد بن عبد الله
والدين الجديد الذى جاءنا به .

فقالت غزيلة وهى تحاول أن تصرفه عن الكتابة :
آلا تجد وقتاً آخر لكتابة هذه القصيدة غير ليلة عرسنا ؟
— أسف يا عروسى الحسناء . . فشىطان شعرى هو الذى
اختر هذه الليلة لا أنا . .

— اللعنة لهذا الشيطان ؟
— أتلعنين من سيقضى على محمد بن عبد الله القضاء
المبرم ؟ بل سيجعل دينه أضحوكة بين العرب جميعاً ؟ إنك حقاً
لبلهاء . .

وغيضت العروس واعتبرت تصرفه هذا إهانة لها فتركته
وانصرفت لشأنها . . بينما صاح هو :

— قل له يرجعُ إلى قِبلتنا التي كان عليها وَإِلَّا فسوف أكون
 حرباً عليه وعلى دينه ٠٠ حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة ٠٠ وهو يعلم
 أَنِّي رَبُّ الكَلِمَةِ في بلاد العرب جميعها .
 فسَخِرَ منه ابن مسلمة وقال له :
 — افعل ما بدالك يا كعب فلن نحفل بك ولن نهتم ونزلت
 الآيات الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي
 كَانُوا عَلَيْهَا * قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
 مُسْتَقِيمٍ ٢: ١٤٢ » . (صدق الله العظيم)
 ولم يهدأ كعب ولم يستقر به الحال ، وإنما راح يجتمع
 برءوس اليهود وطواغيتهم ويحرك الحِوَارَ والنقاش حول تحويل
 القبلة ويحاول أن يثير الناس جميعاً ضد محمد مستنداً إلى هذه
 الركيزة ٠٠ ولكنه لم يصل إلى بغيته ٠٠ وهنا أعلن للجميع أَنَّهُ
 سيحارب محمداً وحده ٠٠ وسوف يقضى عليه وعلى دعوته
 بالكلمة ٠٠

وراح يختال بينهم مؤكداً مرة أخرى أَنَّهُ رب الكلمة وكان
 كعب قد تزوج وَرَفَّتْ إِلَيْهِ عروسه غُرْبَلَةُ في نفس الليلة التي قرر
 فيها أَن يكتب قصيدة في ذم محمد وهجاء دينه ٠٠ ويدلا من أَن

تَرْضَاهَا * قَوْلٌ وَجْهَكَ شَبَّطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ * وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ

قُولُوا وَجْوهَكُمْ شَطْرَهُ ٢: ١٤٤ « صدق الله العظيم »

وأثار هذا التحويل غضب اليهود جميعاً فراحوا يعقدون

الاجتماعات ٠٠ ويتشاورون في هذا الأمر الجَلَل ، وذهب نفر منهم

إلى كعب بن الأشرف شاعرهم «١» وأحد زعمائهم الكبار وشكوا

له الأمر فذهب بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل أن يَمْتَل

بين يديه التقى بمحمد بن مَسْلَمَةَ وسأله :

— أين نبيكم ؟

فسأله ابن مسلمة : ماذا يريد ؟ فقال :

— أريد أن أسأله لماذا تحول عن القبلة التي كان عليها وهو

يزعم أنه على ملة إبراهيم ؟

فقال ابن مَسْلَمَةَ :

— كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى قبيلتكم

ليكون نلك أدعى لكم بالدخول في الإسلام ٠٠ فلما تبين له عنادكم

وصَلَّفكم صارح جبريل برغبته في التحول إلى الكعبة .

فقاطعه كعبٌ بغضب :

(١) كعب بن الأشرف : هو طائي : دان باليهودية ، يقيم في حصن قريب من المدينة ،

شعب بنسأء المسلمين ، فأمر الرسول بقتله ، فانطلق إليه نفر من الانصار فقتلوه ، وحملوا

رأسه في مخلاة . انظر الطبري جـ ٣ ص ١١٧ .



تحويل القبلة



وتمضى بنا قافلة الزمان ٠٠ فنرى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقد هاجر من مكة إلى المدينة في السنة الثالثة عشرة للمبعث ٠٠ تلك الهجرة التي تعتبر بداية للتاريخ الإسلامي ونقطة تحول كبرى في التاريخ الإنساني ٠٠

ونرى يهود المدينة - وكانوا من أخطر اليهود وأقوام وأكثرهم مالا وأشدهم حقداً على الإسلام والمسلمين - نراهم وقد أخذوا يكيدون لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ويتحدونه ويثيرون جدلاً خبيثاً ييثون به سموماً فتاكة في نفوس أهل المدينة ٠

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه في صلاتهم مستقبلين الشمال حيث يوجد بيت المقدس ٠٠ ولم يكن عليه الصلاة والسلام راضياً عن هذه القبلة ، وكان يتمنى في قرارة نفسه أن تكون الكعبة قبلته وقبلة المسلمين ، وأن يتجهوا إليها في صلاتهم ٠ واستجاب الله سبحانه وتعالى لما في نفس رسوله الحبيب وحقق له أمنيته فولاه القبلة التي يرضاها ٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قَدْ تَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ * فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

فراح أبو جهل يتفحصهم بنظرة الحُبِّثِ ثم قال في غيظ .
- آه ٠٠ هذا أمر قُضِيَ فيه بَلِيلٍ ، تمَّ التَّشاور فيه بغير هذا
المكان .

وحاول أبو جهل أن يفعل شيئاً . فراح إلى أبي طالب يحاول
معه ٠٠ وكان الأخير قد انتحى ناحية من الكعبة وجلس وحده
يرقب ما يدور . فقال أبو طالب :

- إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط ، أن الله قد سَلَطَ
على صخيفتكم هذه القَرَضَةَ «١» فَأَكَلْتُ كُلَّ مَا فِيهَا من جور وظلم
وقطيعة رَحِمٍ ولم تُبْقِ على شيءٍ غير اسم الله ٠٠ فإن كان ابن أخي
صابقاً نَزَعْتُمْ عن سوء رأيكم ٠٠ وإن كان كاذباً دفَعْتُهُ لكم
فقتلتموه أو استحبيبتموه .

فوافق كل من حضر . واندفع الرجال إلى الكعبة واتجهوا
يريدون الصخيفة المعلقة بها ٠٠ فإذا القَرَضَةُ قد أَكَلَتْهَا كلها ولم
تبق منها إلا كلمة (باسمك اللهم) «٢» .

(١) القَرَضَةُ هي الأرضة ، بويبة تأكل الخشب ، ا هـ .
(٢) (باسمك اللهم) كان العرب يصدرون بها صحفهم ، وعوض الله تعالى عنها
بالسملية

هذه لتجدونهم إليها منكم سراعاً .

فوافقه المطعم على ذلك وخرج معه إلى أبي البختري ثم إلى
زَمَعَةَ بنِ الأَسودِ " ١ " واجتمع الخمسة واحتاروا زهيراً لِمَى يعلن
رفضهم للحِلْفِ . . . فلما كان الصباح غدا زهير إلى الكعبة المشرفة
فطاف بها سبعاً ثم جمع الناس وقال :

— يا أهل مكة . . . أَنَاكُلُ الطعام . . . ونلبس الثياب ؟ وبنو
هاشم هَلْكَى في الحصار لايباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد
حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . . .

فصاح به أبو الحكم (أبو جهل) :

— كذبت يازهير . . . والله لا تُشَقُّ أبداً . . .

فصاح زَمَعَةُ في أبي جهل :

— أنت والله الكاذب وما رضينا كتابتها حين كُتِبَتْ .

فقال أبو البختري :

— صدق زَمَعَةُ . . . نحن لانرضى ما كتب فيها ولا نُقره .

وقال مطعم مؤيداً لقول أصحابه :

— إننا نبرأ إلى الله من هذه الصحيفة ومما كتب فيها .

فقال هشام :

— الكلُّ يبرأ منها ومما كتب فيها . . . فما بقاؤها إذن

(١) زمعة بن الأسود . كان يدعى بـ (زاد الركب) لجوده . وهو لسدي . ! هـ

فقال هشام .

— أَنْقَضِ الحِلْفَ يارَجُلْ .

فقال زهير :

— إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ . . . وَلَوْ كَانَ مَعِيَ آخِرَ لَقَمَتٍ فِي نَقْضِ

الصَّحِيفَةِ حَتَّى يَتِمَّ ذَلِكَ .

فقال هشام :

— اطمئنن لقد وجدت لك الرجل .

فَسَأَلَهُ زُهَيْرٌ عَنِ الرَّجُلِ ، فَأَشَارَ إِلَى نَفْسِهِ وَقَالَ :

— أَنَا . . .

فَعَادَ زُهَيْرٌ يَقُولُ :

— اِبْغِنَا رَجُلًا ثَالِثًا .

فقال هشام :

— أَفْعَلْ . . . وَإِنِّي لَذَاهِبُ الْآنَ إِلَى المَطْعِمِ بْنِ عَدِيِّ " ١ " بِنِ

نُوفَلِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةٍ . . . وَمَضَى مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى المَطْعِمِ فَقَالَ لَهُ :

— يَا مَطْعِمُ أَيْرِضِيكَ أَنْ يَهْلِكَ بَطْنَانِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَاةٍ وَأَنْتَ

شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ مُوَافِقٌ لِقَرِيشٍ فِيهِ ؟ أَمَا وَاللَّهِ لئنْ أَمَكَنْتُمُوهُمْ مِنْ

(١) المَطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ رَئِيسِ بَنِي نُوفَلٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَقَائِدُهُمْ فِي حَرْبِ الفِجَارِ ، وَهُوَ

الَّذِي أَجَارَ رَسولَ اللَّهِ لَمَّا انْتَصَرَفَ عَنِ أَهْلِ المُتَلَانِفِ ، وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ « لَوْ كَانَ المَطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هؤُلاءِ النِّتْنَى — يَعْنِي أُسَارِي بَدْرَ — لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ » ١٠ — فَفَتَحَ البَارِي

جـ ٧ ص ٢٤٩ .

افتمنعه أَنْ يَأْتِيَهَا بطعامها ؟ خَلَّ سبيل الرجل
 فرفض أَبُو جهل وتشاداً ٠٠ فأخذ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ لِحَى بَعِيرِ
 قَضْرِيَةِ بِهِ قَشَجَهُ ، ووطنه ووطناً شديداً ، وحمزة بن عبد المطلب
 قريب منهما يرى ذلك ويتأهب للبطش بأبى جهل ٠٠ وهم يكرهون
 مع هذا أَنْ يبلغ مثلُ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .
 وكانت هذه الواقعة بدايةً تتكرَّر البعض من قريش لذلك
 الحِلْفِ المشؤمِ الظالم ٠٠ .ويذاً تلك البعض يتعاطف مع
 المحاصرين ويفكر في فك الحصار عنهم ٠٠ وكان أول من فكر في
 نقض الحلف هو هشامُ بن عمرو بن ربيعة العامريُّ وكانت تربطه
 صلة رَحِمِ بِنْتِي عَبْدِ مَنْفٍ ٠٠ وكان يرسل الطعام إلى المحاصرين
 سرّاً في جوف الليل ٠٠ ولما استعصى عليه ذلك بعد أَنْ شددت قريش
 للحراسة ٠٠ ذهب إلى زُهَيْرِ بْنِ زَادِ الرَّائِدِيِّ فقال له :
 - يا زهير ٠٠ أقدم رضىيت أَنْ تأكل الطعام ، وتلبس
 الثياب ، وتتزوج النساء ، حيث علمت محاصرون ،
 لا يبيعون ولا يبتاع منهم ؟ أما إني أحلف بالله أَنْ لو كانوا آخوال
 أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ٠٠٠
 ما أجابك إليه أبداً ٠٠
 فانفعل زهير بقوله وصاح :
 - ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟
 واخوالك

مبلغاً جعل التمرة الواحد غداءً لاثنتين ليوم أو عدة أيام ٠٠ وكان طعامهم يقتصر على الخَبْطِ "١" وورق السَّمْرِ وما كان ينقله إليهم سراً بعض أقاربهم .

يقول ابن هشام في السيرة النبوية : إن أبا الحكم بن هشام (أبا جهل) لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسدٍ ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد عند زوجها عليه الصلاة والسلام في شِعْبِ أَبِي طالب ٠٠ فتعلق به أبو جهل وقال :
— أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ٠٠ ؟ والله لاتبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة .

ولحهما أبو البخترى بن هشام الأسدي "٢" فجاء يسأل

أبا جهل :

مالك وله ؟

فأجاب أبو جهل :

— يحمل الطعام إلى بني هاشم

فقال أبو البخترى .

— وما في هذا ؟ طعام كان لعمته عنده وقد بعثت إليه فيه ٠٠

(١) ٠٠ الخبْط ورق ينغض بالخباط ، ويجفف ويطحن ويخلط به بقيق أو غيره ويؤخذ بالماء فتؤجره الأبل ، والسمر شجر من العضاء ، اهـ .

(٢) أبو البخترى : هو العاص بن هشام ، من زعماء قريش ، ولم يعرف عنه إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحضر بدرًا مع المشركين ، ونهى عن قتله ، ولكنه قتل اهـ . امتاع الاسماع جـ ١ ص ٢٢ .

فقال زهير بنُّ زَادِ الرَّكْبِ «١» :

– أَرَى أَنْ تَفْرُضَ عَلَيْهِمْ حَصَارًا شَامِلًا .

قال أبو لهب :

– ماذا تعنى بقولك (حصاراً شاملاً) ؟

قال زهير :

حصار اجتماعى اقتصادى ، لا تُصْهَرُونَ إِلَيْهِمْ «٢»

ولا تبيعونهم شيئاً ، ولا تتباعون منهم .

فقال أبو سفيان يفرح :

– بَخٍ بَخٍ ٠٠ هذا رأى صائب ٠٠ لا بد أن تأخذ به وأن

نتحالف عليه ٠٠ وأن نسجل الحِطْفَ فى صحيفة نُعَلِّقُهَا

فى جوف الكعبة ٠٠ توثيقاً لحُرْمَتِهَا ولكى لا يخرج واحد منا على

الحِطْفِ . وينقضه .

والتزمت قريش بهذا الحِطْفِ التزماً شديداً واستمرت على

ذلك ثلاث سنوات لقى فيها محمد وأصحابه الأَمْرَيْنِ وقاسوا من

جهد الحصار ما لا يوصف .

ولما آحست قريش بحال المهاجرين وما يعانون غالت فى

الأمر ٠٠ فحالت بينهم وبين الطعام والكساء حتى بلغ بهم الجوع

(١) ٠٠ ابن زاد الركب – انظر – ازواد الركب لجوهم فى بلوغ الأرب جـ ١

ص ٩٢ .

(٢) لا تصهرون إليهم : أى لا تتصلون بهم بجوار ، لو نسب ، أو تزوج ، أ هـ

دين الله أفواجاً رغم إيذاء قريش لهم . . بل كان تمسكهم بدينهم
يزداد ويقوى كلما ضاغت قريش من ذلك الإيذاء .
وكان إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه واحتضان
النَّجَاشِيِّ للمسلمين المهاجرين إلى الحَبَشَةِ حَدَثَيْنِ قَوِيَّيْنِ قَضَيَا عَلَى
ما بقى من صير قريش . . فبدأت تتأهب لجولة حاسمة تقضى بها
على مجمد وعلى دعوته ، وجمع أبو سفيان كبار قريش وعظماءها
وقال لهم :

– الحرب ولا شيءَ غير الحرب يا معشر قريش . . الحرب
هى وحدها الكفيلة بالقضاء على هذه الدعوة التى تنتشر وكأنها
النار فى الهشيم :

فَأَمَّنَ أَبُو الْحَكَمِ (أَبُو جَهْل) عَلَى قَوْلِهِ قَائِلًا :

– نعم يا أبا سفيان ، وَنِعْمًا بِهَذَا الرَّأْيِ .

وقال زهير :

– تذكروا يا قوم أنكم سوف تخوضون هذه الحرب مع آل

عبد المطلب وبنى هاشم وليس مع محمد وأصحابه وحدهم . . وبنو

عبد المطلب وبنو هاشم من صميم قريش . . إنهم منكم وأنتم

منهم ، الدماءُ واحدةٌ .

فقال أبو سفيان :

– ماذا ترى غير الحرب ؟

عليهم ومكانتك عند الله فلم تفعل ٠٠ ثم سألك أن تعجل لهم بعض!

ما تُخَوِّفُهُمْ به من العذاب فلم تفعل .

ونظر إليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وكأنه يسأله

ماذا يريد هو ٠٠ فقال :

— والله لا أُؤمِّنُ بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى

فيه وأنا أطلع إليك حتى تأتيها ثم تأتي معك بأربعة من الملائكة

يشهدون أنك كما تقول ٠٠ وإيم الله لو أنك فعلت كل ذلك ما ظننت

أنى أُؤمِّنُ بك أو أُصدقك .

ولم يعلّق النبي صلى الله عليه وسلم بشيء على هذا المنطق

العجيب الغريب وإنما مضى إلى بيته وهو يدعو الله أن يهديهم

ويُنقذهم من دياجير الظلام التي يتخبطون فيها . .

ويُسْقَطُ في يد قريش بعد أن فشل الاجتماع الذي عقده

بالكعبة لمناقشة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وأزكى

سلامه ٠٠ وكانوا قد عقنوا الآمال الكبار على هذا الاجتماع

وصور لهم خيالهم المريض أنهم سوف يتمكنون من إفحام النبي

الكريم بجدهم ونقاشهم أو على الأقل يتمكنون من التأثير عليه

بالعروض البراقة المغرية .

ولكن رسول الله صلوات الله عليه وأزكى سلامه رفض كل ما

عرضوه ، واستمر يسير قدماً في نشر دعوته ٠٠ ودخل الناس في

— سَلُّ رِبِكَ يَا مُحَمَّدُ أَنْ يَبِيعَ لَنَا مَا مَضَى مِنْ آبَائِنَا وَلِيَكُنْ
فِيْمَنْ يَبِيعُ لَنَا مِنْهُمْ قَصِيُّ بِنِ كِلَابٍ فَإِنَّهُ كَانَ شَيْخَ صِدْقٍ ، فَإِنَّا
نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَهُ عَمَّا تَقُولُ أَهْوَى حَقِّ أُمَّ بَاطِلٍ .

وقال ثالث

— فَإِنِ صَدَّقُوكَ وَصَنَعْتَ لَنَا مَا سَأَلْنَاكَ صَدَقْنَاكَ وَعَرَفْنَا بِهِ
مَنْزِلَتَكَ مِنْ اللَّهِ وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ .
فَرَدَّ عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَدًّا كَرِيمًا جَعَلَهُمْ
يَقُولُونَ :

— إِذِنْ سَلُّ رِبِكَ يُرْسَلُ مَعَكَ مَلَكَ يَصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ وَيَرِاجِعُنَا
مَعَكَ . . . وَسَلِّهِ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ جِنَانًا وَقِصُورًا وَكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وَقِضَّةٍ
فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ ، وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُ .
وَاشْتَدَّ عِنَادُهُمْ وَكَثُرَ جِدَالُهُمْ وَاشْتَعَلَتْ خُصُومَتُهُمْ وَرَاحَ كُلُّ
مِنْهُمْ يَقْتَرِحُ اقْتِرَاحًا . . . وَيَطَالِبُ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ بِأَنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ
تَحْقِيقَ مَا يَقْتَرِحُ ، وَأَيِّقِنِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِبْثَ مَا هُمْ
فِيهِ مِنْ جِدَالٍ ، فَتَرَكَهُمْ وَمَضَى ، وَهَذَا أَسْرَعُ خَلْفَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي
أُمِّيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةَ وَصَاحَ

— يَا مُحَمَّدُ . . . عَرَضَ عَلَيْكَ الْقَوْمُ أَسْخَى الْعُرُوضِ فَلَمْ يَقْبَلْ
مِنْهُمْ . . . ثُمَّ سَأَلُوكَ أُمُورًا لِأَنْفُسِهِمْ لِيَعْرِفُوا بِهَا مَكَانَتَكَ عِنْدَ رَبِّكَ
فَلَمْ يَقْبَلْ . . . ثُمَّ سَأَلُوكَ أَنْ تَحْقُقَ لِنَفْسِكَ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ فَخِيبَكَ

الآباء وشتت الأديان وشتت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ٠٠ فما بقى أمر قبيح إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك .
وقال آخر :

— وقد عرضنا عليك الأموال وجمعنا لك منها ما يجعلك
أكثرنا مالاً ٠٠ وعرضنا عليك الشرف ٠٠ وقبلنا أن تكون سيداً
لنا لا تقطع بأمرٍ دونك ٠٠ وعرضنا عليك الملك ٠٠
وقال ثالث :

— وعرضنا عليك الطبَّ إن كان ما بك داءً تريد أن تَبْرَأ منه !
ورد عليهم الرسول الكريم مُعرضاً عن كل ما عرضوه عليه ،
رافضاً المالَ والشرفَ والملكَ والجاهَ ٠٠ وأفهمهم أن الله سبحانه
وتعالى قد بعثه إليهم رسولا ، وأنزل عليه القرآنَ وأمره أن يكون
بشيراً ونذيراً وقال لهم : إنه قد نصحهم فإن قبلوا النصيحة فهو
حظهم في الدنيا وفي الآخرة ، وإن ردوها فسوف يصبر لأمر الله
حتى يحكم بينه وبينهم ٠

ولم يعجب هذا القولُ قريشاً ٠٠ فأتبرئ لهم أحدهم يقول :
— لماذا لا تسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فيسئّرنا
هذه الجبال التى ضيقت علينا وييسّط لنا بلادنا ويفجّر لنا فيها
أنهاراً كأنهار الشام والعراق ومصر ٩٠٠
وقال آخر :

وَنَظَّمَ الكَلَامَ ٠٠ فَأَنَا أَيْضًا شَاعِرَةٌ أَحْسَنُ القَوْلِ والنَّظْمِ .
ولا يرد عليها أبو بكر الصديق فتخرج من الكعبة لتبحث في
مكان آخر وهي تَرْتَجِرُ :

مُنَّمَا عَصَيْنَا «١»

وَأَمْرَهُ قَلِينَا

وَيَيْنَهُ آبِينَا

وينظر الصديق رضى الله عنه إلى الرسول الكريم الجالس إلى
جواره يسأله في دهشة :

— يا رسول الله ٠٠ أما تراها رَأَتْكَ ؟

فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (مَا رَأَيْتُنِي ، لَقَدْ أَخَذَ
اللَّهُ يَبْصِرَهَا عَنِّي) .

ولما فشلت جميع المحاولات التي حاولها كفار قريش مع أبى
طالب عم النبي وبعثت المفاوضات والمساومات بخيبة الأمل ٠٠
احتشدوا في ساحة الكعبة وأرسلوا في طلب محمد ليواجهوه
مجتمعين ٠٠ وحضر الرسول الكريم ودخل بخطوات ثابتة إلى
مكانهم بالحرم ، فسلم وجلس ٠٠ فانبرى أولهم له وقال :
— يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك وإنا والله ما نعلم رجلاً
من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ٠٠ لقد شتمت

(١) منما - تقصد بالمنم - والعياذ بالله - محمداً عليه السلام ، ا هـ .

الرسول - يندفع في سخريته وتهكمه ويروح يكيل السباب والشتم
لابن أخيه .

وتنزل الآيات الكريمة على الرسول الكريم صلى الله عليه

وسلم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *
فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ١١١ : ١ - ٥ » .
(صدق الله العظيم)

وتبلغ هذه الآيات الرهيبة أم جميل بنت حرب زوجة عبد
العزى (أبى لهب) فلا تتعظ ولا تعتبر وإنما يشتعل غيظها
ويلتهب غضبها وتخرج إلى الكعبة تريد محمداً ، وفي يدها حجر
ضخم تنوى أن تشج به رأسه الشريف .

وتدخل المرأة الحفود إلى الكعبة وتدور بعينيها بين
الحاضرين تبحث عن رسول الله ، ولكن الله يعمى بصرها فلا
تراه . ففتجه إلى أبى بكر الصديق تسأله .

- أين صاحبك ؟ لقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدتته
لضربت رأسه بهذا الفهز " ١ " . إنه إن يكن شاعراً يحسن القول

(١) الفهر : هو الحجر الذى يملا الكف ، ١ هـ .

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

(صدق الله العظيم)

ونراه وقد أخذ طريقه إلى بيت الله الحرام حتى إذا وصل الصفا صعد عليه ونادى بأعلى صوته : (وَأَصْبَحَا هَ) فلما هرع القوم إليه قال صلى الله عليه وسلم :

(أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتَكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا

الْجَبَلِ . . . أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟) .

فيقولون : أجل . . . أجل . . . ما جرّبنا عليك كذباً قط .

فيقول صلى الله عليه وسلم : (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ

شديد) .

ويرتفع صوت عمه عبد العزّي « ١ » ساخراً متهكماً :

— تَبَّ لَكَ . . . أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ !

فلا يردُّ عليه الرسول الكريم ولا يحفل به ، فيندفع عبد

العزّي بكل ما فيه من قوة الكفر والعداوة للإسلام والرغبة في إيذاء

(١) . . . عبد العزّي : هو أبو لهب ، أحد الأشراف الشجعان في الجاهلية ، ومن أشد الناس عداوة للمسلمين ، وكان غنياً ، أحمر الوجه ، مات بعد وقعة بدر ، ولم يشهد لها . (تاريخ الإسلام للذهبي ج ١ ص ٨٤) .



مَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ

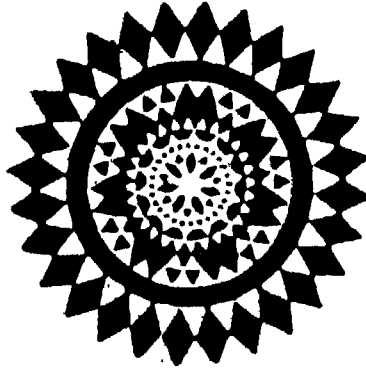
وتمضى بنا قافلة الزمان لنعيش تلك الفصول المشرقة من
قصة الكعبة المعظمة حيث نرى محمداً صلى الله عليه وسلم وهو
يجاهد ويكافح من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه القويم .
ونرى عظماء مكة وكبار شخصياتها مجتمعين بالبيت
الحرام وقد أخذتهم العزة بالباطل وآكلت الأحقاد أكبادهم
يتناقشون في أمر محمد ويقولون قولاً عجباً !!
فهذا الوليد بن المغيرة المخزومي يقول :
أيهبط الوحى على محمد وأترك أنا . . وأنا الوليد بن المغيرة
كبير قريش وسيد أشرافها ؟ !

وهذا أمية بن أبي الصلت شاعرٌ ثَقِيفٌ وعظيمٌها يقول :
- أيؤثر محمد بالنبوة وما عرفنا له مالا ممدوداً ولا ولدأ
معدوداً ولا جاهاً مشهوداً ؟

وتترك هؤلاء وغيرهم من أهل قريش في حقدهم وحسد
يعمهون ونتجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنجده وقد تلقى
من ربه كلمات . .

مسروراً • ونظرت إلى ما مات عليه أبي وإلى ذلك الرجل الذي كان
يغاش في فضله وكيف خُدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر
ولا يضر ولا ينفع •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إن هذا الأمر إلى الله ، فمن يَسَّرَه إلى الهدى تيسَّر له ،
ومن يَسَّرَه للضلالة كان فيها) •



أَعَزَّى لَنْ لَمْ تَقْتُلِي الْيَوْمَ خَالِدًا
فَبُؤْيِي بِأَثْمٍ عَاجِلٍ أَوْ تَنْصَرِي

فرجع خالد بن الوليد سيفه وهو يقول :

كُفْرَانِكَ يَا عَزَّى لَا سُبْحَانَكَ
إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

ثم ضربها بالسيف فجزَّلها بِأَثْنَتَيْنِ^(١) ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما رأى ، فقال النبي الكريم :

(نَعَمْ تَلِكِ الْعَزَّى قَدْ آيَسَتْ أَنْ تُعَبِّدَ بِيْلَادِكُمْ أَبَدًا)

ثم قال خالد :

— يارسول الله الحمد لله الذي أكرمنا بك وأنقذنا بك من الهلكة . . . لقد كنت أرى أباي يأتي العزَّى بخير ماله من الإبل والغنم فيذبحها للعزَّى ، ويقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا

اعزاء شدي شدة لا تكنبي على خالد القى الخمار وشعري فإنك إن لا تقتل اليوم خالدا تبؤي بئلا عاجلا وتنصري وفي قول خالد « يا عز كفرانك لا سبحانك » .
وكانت شيطانة تأتي إلى السموات الثلاث ، اهـ .

(١) باثنتين — وقتل سادنها ، وهو دبة الشيباني .

والمعروف أن الأصنام جميعاً قد انتهت على اختلاف أنواعها وأصحابها يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم السرايا في كل مكان . وأمرهم أن يُغَيَّرُوا على كل من لم يكن على الإسلام ، وأن يهدموا كل صنم ويحطّموا كل وثنٍ ثم يحرقوه . فخرج فرسان المسلمين كل إلى ناحية حيث نَفَذُوا أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وخرج خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً من أصحابه إلى العُزَّى فهدمها ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول : (أَهْدَمْتُمْ ؟) فأجاب خالد بالإيجاب . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : (هل رأيت شيئاً ؟) فأجاب خالد بالنفى . فقال له النبي : (فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدّمها . فتعجب خالد للأمر واندفع في غيظٍ وحنقٍ إلى مكان العُزَّى وجرد سيفه وهو يصيح مهدياً . فخرجت إليه من داخل الشجرة امرأة كُحَيِّزٌ سوداء عارية ناشرة شعرها تستغيث . فأسرع أحد السدنة إليها وهو يقول :

أَعَزَّى فَشُدِّي شَدَّةً لَا تُكْذِبِي
أَعَزَّى فَأَلْقِي ذَا الْقَنْبَاعِ وَشَمْرِي^(١)

(١) : وشمري - في كتاب الأصنام ص ٢٦ ←

سبحانه وتعالى ٠٠ وكانوا إذا فرغوا من الحج والطواف بالكعبة يطوفون باللات ثم بالعزى ويمضون عند كل منهما يوماً يحلون فيه وينحرون .

وكان لها سدنة يرتزقون من خلفها ٠٠ بل يجنون أرياحاً خيالية لا يتصورها العقل ٠٠ وكانوا يحجبونها عن الناس إذا لم يحتفلوا بها ويقيموا لها الطقوس .

عن أبي واقد الليثي - وهو الحارث بن مالك - قال :

(خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها : ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم وينبحون عندها ويعكفون يوماً ٠٠

فقلنا :

- يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط^(١) كما لهم ذات

أنواط^(٢)

فقال لنا صلى الله عليه وسلم .

(الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ قلت - والذي نفس محمد

بيده - كما قال قوم موسى) .

(١) ذات أنواط : الأنواط . المعاليق . وسميت بذلك لتعليقهم عليها ما شاموا .

- كنت منه في غرور ٠٠ والحمد لله قد أسلمت اليوم
وانتهيت من كل ما كان بالماضى .
عن ابن عباس : أن رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيفٍ
يبيع السمن للحجاج إذا مروا به فَيَلْتُ سويقهم ٠٠ فمات الرجل ،
فسميت : صخرة اللَّاتِ ، وحيكت حولها مع الأيام قصص
ونسجت روايات خرافية كثيرة (١) .
ويقال : إن الرجل لما مات وتفقده الناس قال لهم عمرو بن
ربيعة :

- إن ريكم كان اللَّاتُ فدخل في جوف الصخرة ٠٠
ثم أمرهم بعبادتها وزين لهم ذلك ٠٠ فعبدوا اللَّاتَ .
وكانت العُزَّى ثلاث شجرات سمراءَ بَنَخْلَةَ (٢) ، وكان أول
من دعا إلى عبادتها هو عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب بعد أن
أخبرهما عمرو بن لُحَيٍّ بأن ربهم يَنْصَيِّفُ بِاللَّاتِ لبردِ الطائفِ
وَيَشْتَوُ بِالْعُزَّى لحرِّ تِهَامَةَ .
فَعَكفَ النَّاسُ عَلَى اللَّاتِ وَالْعُزَّى يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) ٠٠ خرافية كثيرة : هدم اللات ، المغيرة ، وأبوسفيان ، فخرج النساء حسرا
بيكين عليها ، وكانت لثقيف ، ا هـ .
(٢) ٠٠ سمراء بنخلة : هي صنم ، أو سمرة عبدتها غطفان ، أول من اتخذها ظالم
ابن أسد فوق موضع يقال له ذات عرق ، بنى عليها بيتا ، سماه بسا ، فبعث إليها
الرسول خالد بن الوليد ، فهدم البيت وأحرق السمرة ، وهي نخلة الشامية ، على ليلتين من
مكة ١٠ هـ .

بيبعها في الأسواق - وكان أولاده يطوفون بها فيشتريها الناس ويذهبون بها إلى بيوتهم ٠٠ ولم يكن في مكة رجلٌ من قريش ليس في بيته صنم يمسحُه إذا خرج من البيت وإذا دخل تبركاً به وتيمناً .
فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم
المنادى أن يطوف بشوارع مكة منادياً .

- أيها الناس ٠٠ من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يترك في بيته صنم إلا كسره وأحرقه ، واعلموا أن ثمنه حرام .
واندفع عكرمة بن أبي جهل بنفسه إلى كل بيت في مكة يعرف
أن فيه صنماً فحطّمه وأحرقه وهو يقول :

- لقد عانينا الكثير ٠٠ الكثير من هذه الأصنام ولا بد من
القضاء عليها القضاء المبرم .
وقيل : إن هنداً بنت عتبة كان لها صنم تعلق عليه فلأند
الذهب وأساور الفضة وتصب عليه اللبن وتذبح له ٠٠ فلما
أسلمت أمسكت معولاً وحطّمته ، ورأتها إحدى صديقاتها تفعل
نلك فسألتها :

- لماذا تحطميته اليوم يا هند وقد نصحتك بالأمس الا
تعبيه فلم تأخذي بتصيحتي ؟
فأجابتها هند :

نقلهما عمرو بن لُحَيٍّ فجعل أحدهما بجوار الكعبة والثاني عند بئر
زمزم ، وأمر الناس بعبادتهما .

فكان الحاج إذا طاف بالبيت يبدأ بِإِسَافٍ فيستلمه ، فإذا
فرغ من طوافه ختم بنائله فاستلمها .

حتى جاء يوم الفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم
الكعبة وبها آنذاك ثلاثمائة وستون صنماً – وكان بيد الرسول
الكريم قضيبيّ – فكان يضرب به الواحد منها وهو يقول :
(جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۙ ١٧ :

(٨١

قال ابن إسحق

– لما صلى النبي صلى الله عليه وسلم الظهر يوم الفتح أمر
بالأصنام التي كانت بالكعبة وحولها فجمعت كلها ثم حطمت
وحرقت بالنار – وفي ذلك يقول الشاعر فضالة بن عمير :

أَمَّا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجَنُودَهُ
بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ

وَرَأَيْتَ نَوَّرَ اللَّهُ أَصْبَحَ بَيْنَنَا
وَالشُّرَكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ
ويحكى : أن بعضهم كان يصنع الأصنام في الجاهلية ثم

وكان الواحد منهم أينما وجد يضع الحجر ثم يطوف به كما يطوف بالكعبة ، ثم أخذوا يتخيرون الأصنام في الحجج والشكك ومع الأيام نسوا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وعبدوا الأوثان . وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات والخرافات ، وأصبح لكل قبيلة صنمها الخاص بالكعبة .

وكان هَبْلُ أَكْبَرَ أَصْنَامِ قَرِيشٍ مِنَ الْعَقِيقِ التَّائِرِ عَلَى صُورَةِ إِنْسَانٍ ، وَلَمَّا كُسِرَتْ يَدُهُ الَّتِي صَنَعَتْ قَرِيشٌ لَهُ يَدًا مِنْ ذَهَبٍ . وكان يقف على البئر في بطن الكعبة وإلى جواره خزانة للقرابين الخاصة به .

ولما طغت جرهم وبيغت وأحدثت في الكعبة ما أحدثت دخل رجل منهم هو إساف بن يعاق وامرأة منهم أيضا هي نائلة بنت يُعُوبَ «٦» إلى الكعبة وفسقا بها فمسخهما الله حجرتين ، فأخرجتا من الكعبة وتصبأ أحدهما على الصفا ، والأخرى على المروة ليعتبريهما الناس ، فلم يزل الأمر يترس ويتقادم حتى كانا يتتمسح بهما من يقف على الصفا والمروة . ثم صاروا وثنيين يُعبدان . . . ولما ارتفعت قيمتهما في أعين الناس بسبب الجهل

(١) نائلة بنت يُعُوبَ: هما إساف بن يعقوب ، ونائلة بنت زيد من جرهم ، أقبلا حجاجا من اليمن ففجرا بالبيت فمسخهما الله ، وعبدتها خزاعة وقريش . وفي بعض المراجع إساف بن يعقوب ، وإساف بن عمرو ، ونائلة بنت ديك ، ونائلة بنت سهيل . ١٠ هـ



ظهور الاسلام



وتمضى بنا قافلة الزمان لنرى فصلا من أعظم وأروع فصول
هذه القصة ٠٠ قصة الكعبة المشرفة ٠٠ نراها وقد أشرق فجر
الإسلام في ليلة القدر ، وخرج محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وسلم من غار حِراءِ^(١) بالكلمة الأولى التي تلقاها من ربه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأُ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم
٠ ٩٦ : ١ - ٥ « (صدق الله العظيم)

ويبدأ مع نور الإسلام فجر حياة جديدة للإنسانية كلها .
وتطهرت الكعبة من الأوثان وكل ما كان يداخلها أو خارجها من
تلك الأصنام التي كانوا ينحتونها بأيديهم في الصخر أو يصنعونها
من الخشب ثم يسجدون لها من نون الله .

ويقال إن أول ما كانت عبادة الحجارة في بنى إسماعيل عليه
السلام أنه كان لا يخرج من مكة أحد من أهلها أو من زوارها
الواقدين . إلا حمل معه بعضاً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم
والكعبة .

(١) غار حراء : جبل من جبال مكة ، كان يتعبد فيه رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وهناك نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي ١٠ هـ .

وهكذا حُلَّتِ المشكلة العويصة وحُقنت دماءُ قريش
واستمرت قريش في البناءِ حتى النهاية ، وهذا سألهم
النجار القبطي :

— هل تريدون أن تجعلوا له سقفاً أم تتركونه بلا سقف . ؟
فقالوا :

— بل اجعل لبيت ربنا سطحاً .

فجعل القبطي للكعبة سطحاً وجعل لها ميزاباً ثم جعل لها
من الداخل أدراجاً من الخشب وزيّن سقفها وجدرانها بمجموعة
من الصور والرسومات . . . كانت في مقدمتها صورة إبراهيم عليه
السلام كما تخيلّه . . . وصورة الملائكة . . . وصورة لريم وابنه عيسى
في حجرها . . . وكل هذه الصور تحمّل الطابع المسيحي ، وكان من
الطبيعي أن تكون كذلك . . . فالرجل كان مسيحياً على دين عيسى
ابن مريم .

وقد بقيت هذه الصور والرسومات والأصنام التي كانت
خارج وداخل الكعبة إلى أن انبثق نور الحق وجاء الإسلام « ١ » .

(١) . . . وجاء الإسلام : في صحيح البخاري ، وتاريخ الأزرقى ، وكتب السيرة : أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نزل البيت يوم الفتح . فرأى فيه صور
الملائكة . . . ورأى إبراهيم - عليه السلام - مصوراً في يده الأزام يستقسم بها .
فقال - قائلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ، ماشان إبراهيم والأزام « ما كان
إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » ٣ : ٦٧
ثم امر بتلك الصور كلها فطمست ١٠ هـ .

الباب ٠٠ يَفْصِلُ فِي خِلافِكُمْ !

فوافقت القبائل كلها على ذلك وتعلقت أعينهم بالباب الذى أشار إليه أبو حذيفة ٠٠ تتربب الداخل المجهول ليحكم بينهم وَيَفُضُّ خِلافَهُمْ . . .

وإنهم لذلك إذ يدخل محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ٠٠ فهتفوا جميعاً :

— هذا الأمين ٠٠ هذا محمد بن عبد الله الهاشمي ٠٠ قد

رضينا بحكمه .

واقبلوا جميعاً عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم فطلب ثوباً

ثم وضع الحجر بيده الكريمة وقال صلى الله عليه وسلم :

(لِيَأْتِ مِنْ كُلِّ رُبْعٍ مِنْ أَرِيَّاعِ قَرِيشٍ رَجُلٌ) .

فكان في رُبْعِ عَبْدِ مَنْفَعِ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وفي الرُّبْعِ الثَّانِي أَبُو

زَمْعَةَ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وفي الرُّبْعِ الثَّالِثِ الْعَاصُ بْنُ وائِلٍ . . . وفي الرُّبْعِ

الرَّابِعِ أَبُو حَذِيفَةَ بْنُ الْمُغِيرَةَ نَفْسَهُ .

ثم قال صلى الله عليه وسلم (لِيَأْخُذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِزَاوِيَةٍ مِنْ

زَوَايَا الثُّوبِ ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعاً) .

ثم ارتقى النبي صلى الله عليه وسلم على الجَدْرِ ورفق القوم له

الرُّكْنَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا مَوْضِعَهُ وَضَعَهُ بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ فِي مَكَانِهِ .

ولكن محاولاتهم كلها راحت عبثاً ٠٠ إذ استمر الخلاف
واستحكم وبلغ أشده وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء
وصاح كبيرهم :

— يا بني عبد الدار ٠٠ هذه جفنتنا قد امتلأت بالدماء ٠٠
فتعالوا واغمسوا أيديكم فيها ولنتعاقد على الموت إن فاتنا شرف
وضيع الحجر الأسود مكانه .
وجاء بنو عبد مناف وقالوا :

— لن يفوتنا هذا الشرف ٠٠ الموت لنا إن فاتنا ٠٠
وصاح بنو أسد :

— ونحن بنو أسد ومعنا بنو عدى نعلن أن هذا الشرف لن
يستأثر به غيرنا إلا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاماً تهضمه بطون
الوحوش في الجبال .

وهنا تقدم منهم أبو حذيفة «١» وصاح فيهم :

— كفى ٠٠ كفى يا معشر قريش لقد أردنا البرّ ولم نريد
الشر ٠٠ فلا تحاسدوا ولا تنافسوا ٠٠ فإن فعلتم تشبثت
أموركم وطمع فيكم غيركم ٠٠ حكّموا بينكم أول من يدخل من هذا

(١) أبو حذيفة — في سيرة ابن إسحاق: إن أبا أمية ابن المغيرة المخزومي هو الذي
حكم بهذا ، وكان عامئذ أسن قريش كلها ١٠ هـ .

– ارفعوا باب الكعبة عن الأرض واكبسوها حتى لا تدخلها
السيول ولا تُرْقَى إلا بسُلَّم ولا يدخلها إلا من أَرَبْتُمْ . وَإِنْ جَاءَ
واحد ممن تكرهون رميتم به فيسقط ويكون نكالا لمن رآه .
فاستحسن الجميع رأيه ونفذوا ما أشار به عليهم وبنوا
سافاً^(١) من حجارة وسافاً من خشب حتى انتهوا إلى موضع
الحجر الأسود فعادوا إلى الخِلاف من جديد واشتد بينهم تلك
الخلافا واحتدم .

وقال بنو عبد مناف :

– هو في الشق الذي وقع لنا ونحن أولى به من غيرنا . . .
وقالت تَيْمٌ ومخزوم : بل نحن أحق من الجميع بوضعه .
وَأَصْرَتْ كل قبيلة على أن تستأثر بشرف رفع الحجر الأسود
إلى مكانه من جسد الكعبة . . . واشتعلت الخصومة وتطايير الشَّرر
يُنذر باقتراب حربٍ طاحنة تَأْكُل الأخضر واليابس .
ويقيت قريش أربع ليالٍ والخطر يتهددها ، وراح الكل
يستعد ويعد العدة للقضاء على الآخر ، وحاول العقلاء والكبار من
رجال قريش أَنْ يحسموا الأمر قائلين : إِنْ رَفَعَ الحجر لم يكن
ضَمْنُ الاقتراع وأنه يمكن الاقتراع عليه من جديد .

(١) سافا : الساف ، كل عرق من الحائط . ا هـ .

ويطير قِدْحُ بنى عبد الدار وبنى أسد بن عبد العزى وبنى
عدى على الشُّقُّ الذى يلى الحَجَرَ وهو الشُّقُّ الشامى .
ويطير قِدْحُ بنى سَهْم وبنى جُمَح وبنى عامر بن لوى على ظهر
الكعبة وهو الشُّقُّ الغربى .
ويطير قِدْحُ تَيْم وبنى مخزوم على الشُّقُّ اليمانى .
ويأمرون بالحجارة أن تجمع بين منطقة آجباد والضواحي
فتسرع القبائل تنقل الحجارة تبركاً . . ويشترك محمد بن عبد الله
صلى الله عليه وسلم فى نقل الأحجار وهو ابن خمسة وثلاثين
عاماً « ١ » .

قال العباس :

رقابنا وأزرننا تحت الحجارة
فإذا غشيننا الناس ائترنا - فبيننا أنا أمشى ومحمد قدامى ليس
عليه شيء فخر فانبطح على وجهه فجئت أسعى وألقىت حجرى وهو
ينظر إلى السماء فقلت : ما شأنك ؟ فقام فأخذ إزاره ثم قال :
(نَهَيْتُ أَنْ أَمْشَى عُرْيَانًا) .

وبينما قريش تبني وتجتهد فى البناء وكل القبائل ممثلة فى
المجموعة التى تبني جاءهم أبو حذيفة وصاح فيهم :

(١) . . فى تحديد السنين خلاف بين المؤرخين ١٠ هـ .

وينظر بعضهم إلى بعض في ذهول ولا يلبث ذهولهم أن يتضاعف
ويتضاعف عندما ترتجف الأرض من تحت أقدامهم وتهتز مكة كلها
بفعل زلزالٍ قوِيٍّ يَرَجُّهَا رَجًّا عَنِيفًا قَاسِيًا !!

وهنا يتراجع الجميع عن مسّ هذه الأحجار بسوءِ بل يبدؤون
في البناء على الفور بعد أن أخرجوا كافة كنوز الكعبة من داخلها
وجعلوها في بيت أبي طلحة عبد الله بن عبد العزّي . . . كما أخرجوا
صنمَ هُبَلٍ «١» أيضًا ووضعوه مع بقية الأصنام بالساحة .
وتروح القبائل تتنافس في جمع الأحجار من كل مكان للبناء
ولكنهم يختلفون في بناءٍ مقدم البيت . ويشتد الخلاف بينهم
كالعادة . فيقول أبو أمية بن المغيرة :

— يا معشر قريش لا تنافسوا ولا تباغضوا فيطمع فيكم
غيركم ولكن جَزَّئُوا البيت أربعة أجزاءٍ ثم رَبَّعُوا القبائل فلتكن
أرباعاً ثم أقتَرِعُوا عند هُبَلٍ .

وأخذت قريش بقول أبي أمية . . . ويتم الاقتراع عند هُبَلٍ
بالساحة فيظهر قِدْحُ بنى عبد منافٍ وبنى زُهْرَةَ على الوجه الذي فيه
البابُ وهو الشقُّ الشرقي .

(١) صنم هبل : هو هبل خزيمية ، لأنه نصبه ، وكان اعظم الاصنام في جوف
الكعبة ، وكان من عقيق احمر على صورة إنسان أركبته قريش ويده مكسورة ، فجعلوا له يدا
من ذهب ، ا هـ - اصنام الكلبى ص ٢٧ .

أرضنا ٠٠ فلم نر مثلها من قبل .
وهنا يقول أبو حذيفة وهو يتأملها متفحصاً لونها الأخضر :
— ولم لا نحاول هدمها لنرى ما تحتها ؟
فيوافقه الجميع ويتحمس الشبان للأمر مدفوعين بحب
الاستطلاع ٠٠ ويبدأون في ضرب الأحجار بمعاولهم ضرباتٍ
مجتمعة ٠٠ ولكن المعاول تتحطم دون أن تتأثر .

فيصيح الوليد :

— اضربوها بالعتلة^(١) أو ضعوا العتلة بين اثنين منها ثم
حاولوا التفريق بينهما فقد يتحركان ويظهر لنا ما تحتها ؟
ويستمع الشباب لقوله ويمسك البعض منهم بالعتلة
ويضعونها بين حجرين ثم يحاولون رجزحتهما ٠٠ وفجأة يبرق في
المكان ضوءٌ يخطف الأبصار ٠٠ فيتراجعون في فزع وهم
يتساءلون عن هذا الضوء ومصدره ؟ وقبل أن يأتيهم الجواب
تنقلت من أحد الأحجار قطعة صغيرة وتستقر على الأرض ٠٠
فيسرع إليها أبو وهب ويمسك بها ليفحصها ولكنها تطير من يده
وتعود إلى مكانها في الحجر مثل ما كانت ، قبل أن يتمكن من
ذلك .

(١) العتلة : حديدة كانها رأس فأس ، ١ هـ .

– اللهم لم نَزَعْ «١» ٠٠ اللهم لا تريد إلا الخير :

ويتقدم من الكعبة ويصعد إلى سطحها ويبدأ يضرب
أحجارها بالمِقْوَل ٠ والقلوب من حوله واجفة خائفة تتوقع أن
يُصاب هو ويصابواهم بسوء ٠ ولكن شيئاً لا يحدث للوليد ٠ ولا
يحدث لهم ٠ ومع ذلك فإنهم يبقون على خوفهم ويقررون الانتظار
ليلتهم ، ليروا ما يكون من أمر الوليد وأمرهم ٠

وتسهر قريش كلها تلك الليلة خائفة ترتعد وتتوقع الشر ينزل
بالوليد وبهم ويصبح الوليد غادياً إلى بقية الهدم لم يمسه سوءٌ
فيسرعون جميعاً خلفه بالمعاول ويفعلون مثل ما يفعل ٠

وتنتهى معاولهم إلى حجارة صماء ضخمة على شكل أسنمة
الجمال ثابتة في الأرض ، لا تتأثر بأقوى المعاول في يد أقوى
الرجال ٠ وتأخذهم الدهشة من أمر هذه الأحجار ويروحون
يتسألون عن كُنْهها ؟ فيجيبهم الوليد :

– هذه هي القواعد التي أمر الله سبحانه وتعالى نبيه

إبراهيم عليه السلام برفعها ٠

فيقول أبو وهب :

– دون شك يابن المغيرة ، وإنما لحجارة غريبة ليست من

(١) ٠٠ لم نزع – وغالب الروايات « لم نزع » وهي كلمة تقال عند التسكين
والثانيس ١٠ هـ

— يا قوم ٠٠ هل تريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة ؟
فأجابه أبو حذيفة :

— إنما نريد الإصلاح ولا شيء غيره .
فقال الوليد :

— إن الله لا يهلك المصلحين ٠٠ فهيا ارفعوا معاولكم ولنبداً
الهدم والعمارة ولا تدخلوا في عمارتها إلا من طيب أموالكم ٠٠ ولا
تدخلوا مالاً من ربا ولا مال مئسر ولا مهر بغي ، وجنبوها الخبيث
من أموالكم ، ولا تظلموا فيه أحداً من الناس فإن الله لا يقبل إلا
طيباً « ١ » .

وهنا يتساءل أبو وهب :

— ومن الذي يعلوها فيبدأ الهدم ؟

فيجيبه الوليد :

— أنا لها ٠٠ سوف أبدأ أنا الهدم وأنا شيخ كبير فاني ٠٠
فإن أصابني أمر كان آجلي قد دنا ٠٠ وإن كان غير هذا فإني
أحمد الله على الحاليين ٠٠ أين المعول ؟

فيقدم له أحدهم معولا فيمسك به وهو يردد :

(١) ٠٠ إلا طيبا : وذكر السهيلي : أن الوليد نحل هذا الكلام ، وإنما قاله أبو

وهب . ج ١ ص ١٢٧ هـ .

— ها قد تخلصنا من الحيّة وأنقذنا الله من خطرهما ولم يعد
لدينا ما يمنعنا من تنفيذ ماسبق وأشرت به .
فيوافق الجميع على رأى الوليد ويأخذون فى دراسة كيفية
الهدم والبناء وتكاليفها. «١» .
ويدخل إلى الحرم من يبلغهم أن سفينة كبيرة قد رمى بها
البحر إلى شاطئ جده فتحطمت ، وأن صاحبها الرومى — وهو
تاجر يريد أن يبيع أخشاب سفينته .
ويجد القوم فى هذه الأخشاب ما هم محتاجون إليه لكى
يعينوا بناء الكعبة . . . فيستقدمون الرجل ويتفقون معه على شراء
الأخشاب وكان بمكة رجل قبلى نجار تهيأ لهم أن يستقيدوا بما له
من خبرة فى البناء والنجارة .
وعلى الفور يبدأ الاستعداد لعملية الهدم والبناء ويجتهد
الوليد فى ذلك أيما اجتهاد . ولكن الكثيرين من وجهاء قريش
وكبارهم ظلوا خائفين مترددين . . . فجمعهم الوليد وسألهم : لماذا
الخوف والتردد . فأجابوه :
— نحن نهاب هدم بيت الله !
فصاح فيهم :

(١) . . . وتكاليفها : صح أن قصيا جدد بناء الكعبة بعد إبراهيم والعمالقة وجرهم .

متماسكاً بعد الحريق من جدران الكعبة ؟

أبو وهب : نحن لانمانع في إعادة بناء الكعبة يابن المغيرة ،
ولكن البناء لا بد أن يسبقه الهدم ، ونحن نتهيب أن نهدم بيت
الله .

أبو حذيفة : ولاتنس هذه الحية الضخمة التي لا يستطيع
أحد أن يقترب منها :

أبو وهب : نعم يابن المغيرة . . هذه الحية لا بد من عمل
حساب لها . . فما من أحد يقترب منها إلا أحزَّالتُ « ١ » وكشَّتُ
وفتحت فاما تريد ابتلاعه .

ويرفع الوليد رأسه إلى السماء ويهتف :
- اللهم إن كان لك في هدم الكعبة رضاً فأتمه واشغل عنا
هذه الحية .

وبينما رجالات قريش في نقاشهم الحائر يتقافهم الخوف
والرهبة ويدفعهم الأمل والرغبة في إنقاذ الكعبة من حالها . . إذ
ببشرٍ ضخم ينقضُّ على الحية ويدور صراع رهيب بينهما ينتهي بأن
يحملها بين مخالبه وينطلق إلى السماء فيرتفع الهتاف والتهليل . .
ويصيح ابن الوليد :

(١) أحزَّالت : أي رفعت ننبها ، وكانت هذه الحية بيضاء البطن ، سوداء المتز . لها
رأس كراس الجدى ، بقيت في بئر الكعبة خمسمائة عام . ١٠ هـ .

ماتمسك بكسوة الكعبة ثم تمتد منها إلى الأخشاب فتحترق هي الأخرى وتتصدع الجدران بفعل الحريق ثم يتداعى بعضها بسبب مداهمة السيل الذي أحدث فيها تصدعاً .

وتقف قريش بعد الحريق حائرة لاتدرى ماذا تفعل ولا كيف تتصرف ، ويدور النقاش طويلاً حاراً بين رجالاتها . . . وينقسم الناس إلى فريقين - فريق يقول بضرورة هدم الكعبة وإعادة بنائها ويقف على رأسه الوليد بن المغيرة ، وفريق يقول بعدم هدمها ويقف على رأسه أبو وهب بن عمرو (١) . . . وتمرُّ الأيام وقريش في خلافها الذي يزداد ويشتد يوماً بعد يوم . . .

وكانما أراد الله سبحانه وتعالى أن يحسم هذا الخلاف وأن ينقذ الكعبة من تلك الحال الذي وصلت إليه بسبب الحريق . . . فأرسل إليها سيلاً جارفاً يحمل كميات ضخمة من الردم الذي بأعلى مكة .

وتمتلئ الساحة من حول الكعبة بهذا الردم ويرتفع الماء فيصل إلى ثلاثة أرباع البناء فيتصدع ما بقى من الجدران سليماً . . . ويجمع الوليد بن المغيرة رجال قريش ويدور النقاش :
الوليد : ما رأيكم وما قولكم وقد أتى السيل على ما كان

(١) ابن عمرو : هو خال أبي رسول الله ، وكان شريفاً ، وكان يهاب هدم الكعبة ، يقال : إنه أخذ حجراً منها ، فوثب من يده إلى موضعه ١٠ هـ .

وَيْتَعِدُ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ

وتمضى بنا قافلة الزمان في سيرها إلى الأمام . . فنرى عبد الله وقد ترك عروسه بعد أيام من الزواج وسافر مع القافلة المتجهة إلى الشام في عير قريش - في تلك الرحلة التي لم يعد منها - ونرى أمنة تَضَعُ وليدها يتيماً فيكفله جده عبد المطلب ويسعد به ويسعد الناس معه بهذا الغلام الذي صادف مقدمه يوم هزيمة الأشرم على نحو ما ذكرنا سابقاً .

ويموت عبد المطلب فيكفله عمه أبو طالب . ويكبر الوليد وَيَبْرُجُ من الصِّبَا إلى الشباب ويتميز بصفات لم يعرفها الناس من قبل في صبيٍّ أو شابٍّ . . صفاتٍ خُلُقِيَّةٍ سامية تجعلهم يطلقون عليه لقبَ : الصادق الأمين . .

ونرى محمداً لا يتعامل مع الأصنام كما يتعامل الناس . ولا يسجد لها أو يحفل بها ، وإنما يتجه إلى الكعبة فيطوف بها مَعْظَمًا مَكْرَمًا كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وتتوالى السنوات وتحترق الكعبة بشرارة طارت من جَمْرَةِ امرأةٍ جَاعَتِ تَعَطَّرَهَا بِالْمِسْكِ وَالْعُودِ « ١ » . . وَتُمْسِكُ النَّارُ أُولَ

(١) ظاهر عبارة السهيلي : ان قصة هذه المرأة حدثت زمن ابن الزبير ، أما التجمير فكان من زمن الجاهلية . .

وقد عرضت عليه كل مالها ومال أهلها .

وعن ليلي العَدَوِيَّةِ التي اعترضت سبيلَهُ هي الأُخْرَى وَحَاوَلَتْ
معه جهد الطاقة . . . فرفض . . . فراحت صديقاتها يَلْمُنَّهَا على هذا
التصرف منها ، فقالت لهن :

– التَّمَسَّنَ العُذْرَ لِي . . . فما رأيت مثله وسامةً وَسِحْرًا . . .

إِن في وجهه نوراً ما عرفته في أَحَدٍ من قَبْلِ . . . وما سمعت عن فتِي
أَفْتَدَى قَبْلَهُ بِمَائَةٍ مِنَ الإِبْلِ .

حقاً إِن التاريخ يعيد نفسه . . . بِالْأَمْسِ البعيد أمر إبراهيم
عليه السلام بذبح ولده إسماعيل عليه السلام ثم أنقذه الله من
الذبح بكبش عظيم – وأبقى عليه ليقوم بدوره الضخم الذي أُعَدَّ له
على الأَرْض – واليوم يهّم عبد المطلب بذبح ولده عبد الله ، ثم يفتديه
بمائة من الإبل ويبقى عليه ليقوم بدوره العظيم الذي أُعَدَّ له أيضاً
على الأَرْض .

حقاً ما أَقْرَبَ الشَّبَهَ بين الأَمْسِ واليَوْمِ . . . وَحقاً ما أَقْرَبَ
الشَّبَهَ بين النَّبِيحِينَ ” (١) .

(١) بين النبيحين – وفي الحديث انه قال انا ابن النبيحين ودعوة ابراهيم .

وهنا اطمأن قلب عبد المطلب ، فقام ينحر الإبل في بطون
الأودية والشعاب وعلى رؤوس الجبال . . لم يصد عنها إنسان ولا
طائر ولا وحش . . ولم يأكل منها هو ولا أحد من ولده .
فكانت تلك أول دية بلغت المائة من الإبل ، ثم جاء الإسلام
فثبتت الدية عليها .

وبعد أن انتهى عبد المطلب من نحر الإبل أخذ بيد ولده عبد
الله وسارا حتى وصلا وهب بن عبد مناف - وهو يومئذ سيد بني
زُهرة نسباً وشرقاً - فخطب ابنته أمنة لولده عبد الله .
وبدأت الأُسران تستعدان للزفاف .

وبلغت قصة افتداء عبد الله بمائة من الإبل وقصة الأمانة
التي يحملها إلى أهل مكة جميعاً . فحدثت أمور هي أقرب إلى
الخيال منها إلى الواقع . . فقد خرجت جميلات الأُسَرِ الكبيرة من
خُدورهن واعترضن طريق عبد الله وراحت كل واحدة منهن تُغريه
بالزواج منها . .

وتروى الكثير من القصص عن بنت نوفل بن أسد بن عبد
العزى بن قصى - أنها قالت له :
- على مثل الإبل التي نُحرتُ عنك اليوم إن قبلت الزواج مني
الساعة . .

وعن فاطمة بنت مُرٍّ - وكانت من أجمل النساء وأعفهن -

كله ويكون بداية هداية جديدة للناس وأساساً للعدل والخُلق
والسَّلام بين البشر .

وتزداد دهشة القوم ويحاولون الاستزادة من معلوماتها
ولكنها لاتستجيب لهم وتقول لعبد المطلب :

— اذهب أنت ومن معك واحرص على هذا الغلام حرصك على
مَقَلَّتَيْكَ . . بل على خياتك . . أما أنا فقد آدبت واجبى وأنهيت
أَعْمَالِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَلَسْتُ أَبَالِي مَايَكُونُ مِنْ أَمْرِ أَحْبَابِ الْيَهُودِ مَعِي
بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ الْحَقَّ وَأَمَنْتُ بِهِ « ١ » .

ورجع عبد المطلب ومن معه إلى مكةٍ ودخلوا البيت الحرام
واقترعوا على الغلام وعلى عشر من الإبل ، فخرجت القرعة على عبد
الله . . فزادوا عليها حتى بلغت المائة ، فخرجت على الإبل . .
وهنا هَلَّتْ عَرِيْشٌ وَكَبَّرَتْ وَطَلَبَتْ مِنْ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَنْ يَنْحِرَ الْإِبِلَ عَلَى
الْفُورِ ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَفْعَلَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنَ الْأَمْرِ وَأَعَادَ
الْقَرْعَةَ مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَتْ تَخْرُجُ عَلَى الْإِبِلِ « ٢ » .

(١) . . وأمنت به : نكر النورى في شرح صحيح مسلم : أن الكهانة في العرب ثلاثة
أضرب : أحدها : أن يكون للانسان رثى من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من
السماء ، وهذا القسم بطل من حين بعث - صلى الله عليه وسلم .
الثانى : يخبره بما يطرا ويكون في أقطار الأرض ، وهذا لا يبعد وجوده ، لكنهم
يصدقون ويكذبون ، والنهى عن تصديقهم عام .

الثالث : المتجموع وقد أكنبهم الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم . هـ .
(٢) نكر الأصببهاى : أن أبا سياره هو أول من جعل النية مائة من الإبل
وفي البروض جـ ١ ص ١٠٣ « أول من ودى بالإبل من العرب زيد بن بكر بن هوازن »
ولم يذكره السنكوتارى في الأوائل ص ١٠٨ - ١٠ هـ .

يضع النور في صلب هذا الغلام لينقله إلى ولده الذى قدر له أن يكون رسولا نبياً - ثم تستطيع قوة على الأرض أن تنبج الغلام؟ ما يقدره الله سبحانه وتعالى لا يملك أحد من الخلق أن يغيره .
وَيَصْمُتُ التَّابِعُ مَرْغَمًا أَمَامَ قَوْلِهَا . . وَيَذْهَبُ نَلْكَ النَّهَارِ وَيَحِلُّ بَعْدَهُ الْبَغْدُ وَيَعُودُ الْقَوْمُ إِلَى قُطْبَةِ وَكُلَّهُمْ لَهْفَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ فِي قِصَّةِ وِلْدِهِمْ . . فَتَقُولُ لَهُمْ :

- كم الدية فيكم ؟

فيقولون :

. - عشرة من الإبل .

فيشرق وجه قُطْبَةَ بِالْفَرْحِ وَتَقُولُ :

- حسناً . . ارجعوا إلى دياركم فقبروا غلامكم وقربوا

عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها بالقداح . . فإن خرجت على الغلام زيدها عشرة فعشرة حتى يُقْبَلَ الْفِدَاءُ وَاعْلَمُوا أَنَّ غْلَامَكُمْ

هَذَا يَحْمَلُ فِي صُلْبِهِ أَطْهَرَ وَأَعْظَمَ نَطْفَةَ لِأَطْهَرَ وَأَعْظَمَ بَشَرًا .

ويدهش القوم ويتسألون عن معنى هذا القول الأخير . .

فتجيبهم :

- هذا هو الحق الذى سوف تثبته لكم الأيام . . فانظروا

مطلع فجر حياة جديدة على جزيرتكم . . بل على العالم أجمع . .

فَعَمَّا قَرِيبَ يَشْرُقُ عَلَيْكُمْ نُورٌ دِينَ جَدِيدٍ لَا يَلِيبُ أَنْ يَنْتَشِرَ فَيَعَمَّ الْعَالَمَ

وأنه يحمل أمانة كبرى ٠٠ وسوف تعلمون في يوم من الأيام قيمة ما يحمل .

ويحاول القوم معرفة نوع هذه الأمانة التي يحملها الولد ، ولكن قُطْبَةَ ترفض أن تفيدهم بشيءٍ وتقول :

— دعوني ٠٠ لا تسألوني عن شيءٍ الآن ٠٠ ارجعوا عنى اليوم حتى يأتيني تابعي «١» فأسأله .

ويمضى القوم إلى ديارهم على أن يعودوا إليها في الغد ، وتنفرد قُطْبَةُ بتابعها الذي يقول لها :

— دعهم ينبجوه ولا تحاول إنقاذه .
فترد عليه قُطْبَةُ وقد عَقَدَتْ حَاجِبِيهَا دهشةً وتعجبًا من قوله :

— كيف وهو يحمل أظهر بذرة عرفتُها البشرية ٠٠ يحمل نور محمد سيد الخلق أجمعين .
فيقول لها التابع :

— إن في نبحه القضاء على هذه البذرة ٠٠ على النور الذي يحمله أيتها الغيبية الحمقاء .

فتقهقه قُطْبَةُ ساخرة منه وتقول :
— بل أنت الأحمق والغبي ٠٠ أنتصوّر أيها الجاهل أن الله

(١) ٠٠ تابعي : تقصد الجنى الذي ياتينا ١٠ هـ .

يأتى بابنه حتى ينبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟
وتشاورت قريش في الأمر واستقر رأيها على استشارة
(قُطَيْبَةَ بِنْتِ سَجَاحِ) « ١ » العَرَّافَةِ على طريق خَيْبَرَ « ٢ » ، فإن
أمرت بنبحه ٠٠ نبحوه ، وإن أمرت بالفداء فَنَدْوَةٌ بِأَمْوَالِهِمْ
جميعها - ونزل عبد المطلب على رأى القوم وانطلقوا بالولد على
طريق خَيْبَرَ « ٢ » .

وتستقبلهم العَرَّافَةُ متسائلة عن سبب حضورهم إليها !
فيقول المُقْبِرَةُ :

- إِنَّا الْيَوْمَ فِي مِحْنَةٍ وَقَدْ تَرَكْنَا الْأَهْلَ فِي مَكَّةَ قُلُوبًا وَاجْفَةً
وَأَنْفُسًا وَاللَّهِ بَعْدَ أَنْ وَقَعَتِ الْقِرْعَةُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لِيُنْبِحَ
فِدَاءً لِنَذِيرٍ قَدْ نَذَرَهُ أَبُوهُ عِنْدَ الْكَعْبَةِ مِنْ سِنَوَاتٍ ٠٠ وَقَدْ جِئْنَاكَ
طَامِعِينَ فِي إِتْقَانِ الْوَلَدِ بِفِدْيَةٍ مِنَ الْمَالِ أَوْ الْإِبِلِ .

وهنا اندفع عبد المطلب يقول لها :

- وَلَئِنْ أَنْقَذْتَهُ فَسَوْفَ يَكُونُ لَكَ الْمَكَافَأَةُ الَّتِي تَبْغِيهَا .
وَتَنْظُرُ إِلَيْهِمْ قُطَيْبَةُ فِي دَهْشَةٍ ثُمَّ تَقُولُ :
- أَعْرِفُونَ أَنَّ هَذَا الْوَلَدَ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيمٌ جَدًّا ٠٠

(١) قطيبة بنت سجاح : قال السهيلي : اسمها قطيبة في كتاب الغوامض ، واسمها
سجاح في روايتي ابن إسحاق : ١ هـ ج ١ - من ١٠٢ .

(٢) خيبر : هي على طريق الشام ، سميت لحصون فيها يقال لها : خيبر ١٠ هـ .

كانت لعبد المطلب وحده سقاية زمزم للحجاج لا ينازعه في مائها
أحدٌ من قومه من قريش .

وكان عبد المطلب قد نذر حين أمر بحفر زمزم لئن حفرها وتم
له أمرها وتتام له من الولد عشرة ذكور ليذبحنَّ أحدهم عند
الكعبة ٠٠ فولد له عشرة أولاد ذكور كان آخرهم جميعاً عبدُ
الله «١» .

فصبر عبد المطلب حتى بلغوا مبلغ الرجال ، ثم دعاهم إلى
الوفاء بنزله ، فلبوا طائعين .

ولجأ إلى القرعة ، فخرجت على عبد الله ٠٠
فأعادها مرة ومرتين ، وفي كل مرة كانت تخرج على عبد
الله ، فقام إليه لينبجه ، وامتلأ الولد لأمر أبيه ، ولكن قريشاً كلها
تهبُّ لمنع هذا الحدث من الوقوع وعلى رأسها المغيرة بن عبد الله
المخزومي وهو يومئذ من كبار رجالات قريش وعظمائها .

وصاح المغيرة في عبد المطلب :

— والله لا تنبجه أبداً حتى تُعذرَ فيه ، فانك إن تفعل تكن
سنةً علينا في أولادنا وسنةً علينا في العرب جميعاً ، ولا يزال الرجل

(١) ٠٠ كان آخرهم جميعاً عبد الله : هكذا يقول أهل السير ، ورده السهيلي ، لأن
حمزة أصغر منه ، والعباس أصغر من حمزة ، فله كان أصغرهم حين أراد النحر .

من البئر حتى صاح مهللاً ، فقامت قريش كلها وقال أحدهم

– يا عبد المطلب ، هذه بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا

فَأَشْرِكُنَا مَعَكَ .

فقال عبد المطلب :

– ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم

وَأَعْطَيْتَهُ مِنْ بَيْنِكُمْ .

فقال أحدهم :

– أَنْصِفْنَا يَا عَبْدَ الْمَطْلَبِ فَإِنَّا نَحْنُ نَخَاصِمُكَ

فِيهَا .

فَأَجَابَهُمْ عَبْدَ الْمَطْلَبِ :

– لا . . . ولكن هلموا إلى أمرٍ تَصِفِ «١» بينى وبينكم . . .

نضرب عليها بالقداح «٢» : . . . نجعل للكعبة قَدْحَيْنِ ولى مثلهما

ولكم كذلك ، فمن خرج له قَدْحَاهُ على شيء كان له . . . ومن تخلف

قَدْحَاهُ فلا شيء . . .

وَصُرِّتِ الْقِدَاحُ ، فخرج قَدْحًا الكعبة على الذهب وقَدْحًا عبد

المطلب على الأسياف والدرع . . . وتخلف قَدْحًا قريش . . . ومن ثم

(١) إلى أمر نصف : من الانصاف ، أى العزل . . . هـ

(٢) بالقداح : أى السهام ، وكانوا يستقسمون بها ، ومن اسمائها : صريح

وملصق ، ونعم ، ولا ، وعقل ، وغفل ، وافعل ، ولا تفعل . . . هـ الميسر والقداح لابن

قتيبة الدينورى . . .

وينادى على ولده في قوة ويطلب منه أن يدافع عنه حتى ينفذ ما أمر به ، ويكمل الحفر .

فيقول الرجل ساخرًا :

– يدافع عنك ؟ وماذا يستطيع ولد واحد وحيد لاحول له ولا قوة أن يفعل ؟ ويغضب عبد المطلب ويعزّ عليه أن يعير بقله الولد ويذّر إن حفر زمزم وتم له أمرها وولد له عشرة نفر ثم بلغوا مبلغ الرجال لينحرنّ أحدهم عند الكعبة – ثم يستمر في الحفر والناس من حوله يشاهدون ما يفعل . وفجأة يظهر له غزالان من الذهب ، فيصيح بفرح غامر :

– هذان هما الغزالان اللذان دفنتهما جُرهُم حين خرجت من

• مكة

ويظهر له بعد الغزالين أسيافٌ ودروعٌ وسلاحٌ ، فيزداد فرحه ويبدأ طمع قريش ، ويقول أحدهم :

– يا عبد المطلب آجرتنا مما وجدت . . . إن لنا معك في هذا

شركًا وحقًا . فيرفض عبد المطلب هذا الطلب منهم ويقول :

– لا والله ، فهذه كلها لبيت الله الحرام وليست لي .

واستمر عبد المطلب في الحفر حتى ظهرت له الأحجار التي

تغطي فتحة البئر ، ثم رفع الأحجار وما إن رأى الماء يتنيط^(١) .

(١) ينبط أى ينبع .

— إِنْ نَمَضَى إِلَيْهَا غَدًا وَنَحْفِرُ عِنْدَ قَرْيَةِ النَّمْلِ حَيْثُ يَنْقُرُ

• الغراب

ومضى عبد المطلب مع ولده الحارث إلى قرية النمل بالبيت

الحرام فوجدوا الغراب ينقر في الأرض بين وَثْنَيْ إِسَافٍ وَنَائِلَةَ «١»

وعلى الفور أمسك عبد المطلب بالمعول وراح يحفر بين الوثنيين

• وكانا لا يزالان بالكعبة إلى تلك الحين

وما كادت قريش تراه يفعل حتى أسرع إليه نفر منهم

وقالوا :

— ما هذا الصنيع يا عبد المطلب • لِمَ تَحْفَرُ فِي مَسْجِدِنَا ؟

فيقول عبد المطلب :

— إِنِّي أَحْفَرُ بَحْثًا عَنِ بَيْتِ زَمَزَمَ •

ويحاولون منعه من الحفر • فيصمم عليه قائلًا :

— وَلِمَ لَا أَفْعَلُ وَالْحَجِيجُ يِعَانُونَ أَشَدَّ الْعَانَةِ مِنْ قَلَةِ الْمَاءِ •

ويندفع من بينهم رجل قائلًا :

— وَاللَّهِ لَا نَتْرُكُكَ تَحْفَرُ تَحْتَ وَثْنَيْ إِسَافٍ وَنَائِلَةَ الَّذِينَ نَنْحَرُ

عندهما •

فيثور عليه عبد المطلب ويصيح :

— بَلْ سَأَحْفَرُ مَهْمَا فَعَلْتُمْ ، وَلَنْ يَصُدَّنِي عَنِ الْحَفْرِ أَحَدٌ •

• (١) إساف ونائلة مسخا حجرين وضعا عند الكعبة ، ثم عبدا مع الاصنام

١ - الاصنام ص ٢٩ •

فسأله :

– وما هي طَيِّبَةٌ ؟

فلم يجبه وانصرف عنه . . فقام من نومه متعجباً .
وفي الليلة التالية رأى في نومه نفس الشخص وهو يقول له :

– احفر بَرَّةً « ١ » .

فسأله :

– وما هي بَرَّةٌ ؟

فلم يجبه وانصرف عنه . فلما كانت الليلة الثالثة ونام عبد

المطلب جاءه نفس الشخص وقال له :

– احفر زَمَزَمَ . . إنك إن حفرتها لن تندم . . هي تراث من

أبيك الأعظم ، لا تنزف أبداً ولا تدم . . تسقى الحجاج الأعظم
مثل نَعَامٍ جافِلٍ لم يُقَمِّمَ « ٢ » .

فسأله عبد المطلب عن مكانها . فقال :

– عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم ، غدا بين

الفرث والدم .

وقام عبد المطلب من نومه واستدعى ولده وروى له ما كان من

الرجل ومنه . فقال الحارث :

(١) طيبة ، لأنها للطيبيين – وبرة لأنها للابرار ، وقيل لها . المضمونة ، لأنها ضن بها

على غير المؤمنين ١٠ هـ .

(٢) الحافل المقلوع بجملته ولم يتوزع ا هـ السهيل حـ ١ ص ١٠١ .

– ولم لا نحاول البحث عنها ثم نحفرها من جديد “

ويصمت عبد المطلب لحظات ثم يقول :

– نعم الرَّأْيُ رَأْيٌ يَا وَلَدِي .. دَعْنِي أَفَكِّرْ فِي الْأَمْرِ

ويزداد تحمس الحارث لأبيه فيقول :

– الْأَمْرُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْكِيرٍ يَا أَبْتَ ، طَمَسَ الْعَيُونَ لَا يَقْضِي

عَلَيْهَا نَهَائِيًّا .. وَلَوْ أَنَّنَا أَعَدْنَا حَفْرَهَا فَسَوْفَ تَتَفَجَّرُ كَمَا

كَانَتْ .. رُبَّمَا أَكْثَرَ ..

فقال عبد المطلب :

– هَذَا صَحِيحٌ .. وَلَكِنْ لَكِي نَعِيدُ حَفْرَهَا يَجِبُ أَوْلَا أَنْ

نَعْرِفَ مَكَانَهَا ..

فقال الحارث :

– فَلْنَحْفَرْ فِي كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَلِنَطْلُبِ الْعُونَ مِنْ اللَّهِ

سُبْحَانَهُ ، وَتَعَالَى ، فَهُوَ خَيْرٌ مَعِينٌ .

فقال عبد المطلب :

– وَأَنْعِمَ بِاللَّهِ يَا وَلَدِي .. اذْهَبِ أَنْتِ وَشَأْنُكَ وَدَعْنِي هُنَا

فَسَوْفَ أَقِيمُ فِي حِجْرِ إِسْمَاعِيلَ أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَنَا .

وَأَقَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ فِي حِجْرِ إِسْمَاعِيلَ .. وَفِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى

رَأَى فِي نَوْمِهِ أَنَّ شَخْصًا يَقُولُ لَهُ :

– احْفَظْ طَبِيَّةَ ..

بمصالحهم وسعيه الدائم في سبيل خيرهم .
نراه يفكر في التغلب على مشكلة نقص المياه . . وما يعانيه
حجاج البيت بسبب المشقة في الحصول على الماء من خارج البيت
ونقله إلى داخله .

ويزداد اهتمام عبد المطلب بهذه المشكلة عندما تنتهي إليه
السقاية ضمن ما انتهى إليه من مسئوليات الحرم ، ونسمعه
يحدث ولده الحارث في الأمر فيقول :

– عليّ أَنْ أَجِدَ حَلًّا سَرِيحًا لِهَذِهِ الْمَشْكَالَةِ مَهْمَا كَلَفَنِي الْأَمْرُ

ففكر معي . . ويشترك الحارث معه في التفكير ثم يقول :

– أَلَمْ تَسْمَعْ يَا أَبْتِي بِقِصَّةِ زَمَزَمَ . . تِلْكَ الْعَيْنُ الَّتِي تَفْجَرَتْ

لِجَدْنَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمُّهُ هَاجِرًا قَدِيمًا « ١ » ؟

فيقول عبد المطلب :

– كَيْفَ لَمْ أَسْمَعْ بِهَا يَا وَلَدِي ؟ لَقَدْ سَمِعْتَ الْكَثِيرَ عَنْهَا . .

وَأَنَا أَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْبَيْتِ . . فِي مَكَانٍ مِنْهُ ، وَلَكِنْ هَذَا

الْمَكَانُ غَيْرُ مَعْلُومٍ لِأَحَدٍ . . لَقَدْ طَمَسَتْهَا جُرُوهٌ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ

مَكَّةَ مَطْرُودَةً مَقْهُورَةً . . طَمَسَتْهَا وَضِيَعَتْ مَعَالِمَهَا تَمَامًا « ٢ » .

فيقول الحارث بحماس :

(١) ذكره الزبير بن بكار في جمهرة نسب قريش ١٠ هـ .

(٢) هي وطاة جبريل وسقيا إسماعيل ثم حفرها إبراهيم وغلبه عليها نو القرنين ثم

دغستها حرهم ثم اطهرها الله لعبد المطلب ١ هـ .

أُعِيذُهُ بِالْبَيْتِ ذِي الْأَرْكَانِ
حَتَّى أَرَاهُ بِالسَّيِّغِ الْبُنْيَانِ
أُعِيذُهُ مِنْ شَرِّ ذِي شَنَّانِ
مَنْ حَاسِدٍ مُضْطَرِبِ الْعِنَانِ

وتقدم أحدهم من سيد قریش وسأله : ماذا سيطلق على

الوليد . فأجاب على الفور :

— محمد . . . نعم . . . محمد . . .

نعاد السائل يقول .

— ولماذا اخترت له هذا الاسم ؟

فقال عبد المطلب وهو يتطلع إلى السماء :

— أريد أن يكون محموداً في الأرض وفي السماء .

حِفْظُ الزَّمَانِ

وتعود بنا قافلة الزمان إلى الوراء خطوات لنرى مشهداً من

مشاهد هذه القصة الرائعة لأعظم بيت عرفته البشرية قاطبة . . .

وأول بيت وضع للناس على الأرض . . . مشهداً سبق واقعة أبرهة

وجيشه وعاصرها . . .

فنرى عبد المطلب بن هاشم وقد آلت إليه إمارة مكة ، فشرف

قدره بين أهلها شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه . . . وعظمت مكانته

واستقرت محبته في نفوس الناس ، لما رأوه من اهتمامه

الجبال وأقبلوا على الكعبة يطوفون بها شاكرين ربها وربهم الكريم
الذى منّ عليهم بالنجاة وحفظ للبيت الحرام مكانته – وتجاوبت
أرجاء البلد الآمن بأصوات الشاكرين الحامدين وصاح
شاعرهم "١" ينشد

فَتَنَكَّلُوا عَنْ بَطْنِ مَكَّةَ إِنَّهَا

كَانَتْ قَدِيمًا لَا يَرَامُ حَرِيمَهَا

سَأَلَ أَمِيرَ الْجَيْشِ عَنْهَا مَا رَأَى

وَلَسَوْفَ يُنَبِّئِي الْجَاهِلِينَ عَلِيمَهَا

سِتُونَ أَلْفًا لَمْ يَتُوبُوا أَرْضَهُمْ

بَلْ لَمْ يَعْشَ بَعْدَ الْإِيَابِ سَقِيمَهَا

وقد ضاعف من فرح قريش بهذا اليوم السعيد أن وُلِدَ

لسيدها وشريفها عبد المطلب في صباحه حفيده ابنٌ ولده الفقيد عبد

الله ٠٠ فما كاد الخبر يصل إليه وهو يحتفل في البيت الحرام

باندحار أبرهة وجيشه – حتى أسرع إلى بيت آمنه وحمل الحفيد –

متوجهً الفرحة وعاد إلى البيت الحرام وراح يطوف بالكعبة وهو

ينشد :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْطَانِي

هَذَا الْغُلَامَ الطَّيِّبَ الْأَرْدَانِي

(١) هو عبدالله بن الزبيرى ١ هـ

– انظر يا مولاي ٠٠ انظر إلى هذا الشيء الذى تسقطه
الطيور على رؤوس الجند! يا إلهي ٠٠ إنها تسقط أحجاراً صغيرة
لا يكاد الواحد منها يستقر على رأس الرجل حتى ينهار ويتهاوى
كالعصف المأكول ٠٠

ونظر أبرهة مذهولاً ٠٠ بل مصعوقاً ٠٠ ورأى الطيور
الجارحة وهى تنقضُّ على جنوده بشرامة فتقضى عليهم الواحد بعد
الآخر ٠٠ ولم ينتبه إلى أحدها وهو يقترب منه ويصيبه ٠٠ وصاح
أبرهة فى ألمٍ وذعر :

– ويلاه ٠٠ لقد أصابنى أحدُها ٠٠ أدركونى ٠٠
أغيثونى ٠٠ أدركنى يا عتودة ٠٠ أدرك مولاك ٠
ولم يستطع عتودة أن يحرك ساكناً ، فقد أصابته الطيور هو
أيضاً ، وسقط إلى جوار مولاة يتلوى من الألم ٠٠

وخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأبرهة
معهم ينتثر جسده وتسقط أنامله أنملة أنملة ٠٠ وكان نُفيل هو
الوحيد الذى نجا من هجوم الطيور الجارحة المتوحشة ، وكان
يسمع صياحهم وضراعاتهم إليه بأن يدلهم على أقرب طريق إلى
اليمين وهو يقهقه ويقول :

أين المفرُّ والإله الطالبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ
وفرحت قريش بما أصاب أصحاب الفيل وتركوا رؤوس

ويزداد عجب أبرهة ورجاله ويحاولون دفعه ناحية اليمن فيقوم
مُهرولا ٠٠ فيوجهونه ناحية الشام فيفعل مثل ذلك ٠٠ فيوجهونه
نحو المشرق فيتهيأ للانطلاق ، فيعاودون توجيهه ناحية مكة فَيَبْرُكُ
ثانية ويأبى أن يتحرك .

وبلغت هذه الأخبار مسمع عبد المطلب وأصحابه المعتصمين
برؤوس الجبال ، فأشرق على وجوههم نور اليقين والإيمان وشعروا
بالغبطة أن استجاب الله عزَّ وجلَّ لدعائهم ٠٠
ويَسَّ آبرهة من الفيل فقرر أن يسير بدونه ، فصاح في
جنوده :

— دعوا الفيل ٠٠ دعوه واندفعوا إلى الأمام ثم اهْجُمُوا على
الكعبة واهدموها هيا ولنجعلها أثراً بعد عين ٠٠
واندفعت الجموع الهادرة على الطريق إلى هدف قائدهم
وكلهم أمل أن يحققوا له ما أراد .
ولما أصبحوا على مقربة من الكعبة أظلم الجو من فوقهم
وشعروا كأن سحابة سوداء تقترب منهم ، وخاف البعض منهم
وراح البعض الآخر يذوق النظر إلى السحابة ، وهنا تأكّدوا أنها
ليست سحابة بل هي طيور غريبة الشكل سوداء اللون تقترب منهم
وهي تصرخ صراخاً مفزعاً ثم تنقضُّ على رؤوس الجنود وتسقط
سيئاً ٠٠ فصاح عتودةٌ :

جَرُوا جَمُوعَ بِلَادِهِمْ
 وَالْفِيلَ كَى يَسْبُوا عِيَالَكَ
 إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَكَعْ
 بَتَّنَا فَأَمْرٌ ۰۰ مَا بَدَا لَكَ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، ثم انطلق هو ومن معه إلى شَعَفِ الجبال وظلوا فيها ينتظرون ما أبرهه فاعل بمكة إذا دخلها وما سوف يفعله به صاحب البيت سبحانه وتعالى .
 ويسير أبرهه بجيشه يتقدمه الفيل حتى ظاهَرَ مكة من ناحية الجنوب ، وهنا يتجه نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبِ الخَنْعَمِيِّ إلى جنب الفيل وَيَلْتَقِمُ أُذُنَهُ ثم يقول هامساً :

— اَبْرُكْ أَيُّهَا الْفِيلُ ۰۰ إِنَّكَ فِي بِلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ ۰۰ لَا تَتَقَدَّمْ
 خُطْوَةً وَاحِدَةً ۰ فَيَبْرُكُ الْفِيلُ وَلَا يَتَحَرَّكُ إِلَى الْأَمَامِ خُطْوَةً وَاحِدَةً ۰
 وَيَدْبَهُشُّ أَبْرَهَةَ لِلْأَمْرِ وَكَذَلِكَ جُنُودُهُ ۰ وَيَصِيحُ أَبْرَهَةَ أَمْرًا سَائِسًا
 الْفِيلَ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى التَّحَرُّكِ قُدُمًا ۰ وَيَحَاوِلُ السَّائِسُ عَيْثًا ۰۰ إِذْ
 يَأْبَى الْفِيلُ أَنْ يَتَحَرَّكَ قَيْدَ أُنْمَلِيَّةٍ فِي الْإِتِّجَاهِ الَّذِي يُوْجِّهُونَهُ إِلَيْهِ ۰۰
 أَى اتِّجَاهِ مَكَّةَ ۰

فيأمرهم أبرهه بإحضار المحاجين "١" وإيخالها في جسده ۰۰ فيفعلون ، ولكن الفيل يظل في مكانه كما هو ۰۰

(١) المحاجن : عصا معطوفة الرؤوس للضرب ١٠ هـ .

وتمضى بنا قافلة الزمان لنشهد الفصل الأخير من مأساة
أبرهة المزوّعة وجيشه ، ونرى كيف انتهت قصتهم بفاجعة لم
تعرف البشرية مثلها من قبل . . . فاجعة جعلتهم عبرة لمن يعتبر ،
وعظة لمن شاء أن يتّعظ . . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ
كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ
بِحِجَابٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۝١٠٥-١٠٦ » .
(صدق الله العظيم)

عندما انصرف عبد المطلب من حضرة الملك أبرهة اتجه إلى
البيت الحرام حيث وجد الناس هناك يَصْرَعُونَ إلى رب الكعبة أن
يحفظ بيته - فأمرهم جميعاً بالخروج من البيت . . . بل من مكة
كلها - والتَحَرَّزُ في شَعَفِ الجبال خوفاً عليهم من سطوة الجيش
والمعرة .

ثم قام ومعه نفر من قريش يدعون الله سبحانه وتعالى
ويستنصرونه على أبرهة وجنده . . . تم أمسك عبد المطلب بحلقة
باب الكعبة وصاح في ابتهاج حار .

يَارَبِّ إِنِّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ
رَحْلَتَهُ فَامْنَعْ رَحَاكَ

هو دينك ودين آبائك وأجدادك لا تكلمنى فيه ؟

فأجابه عبد المطلب فى هدوء :

– مهلا أيها الملك .. إننى أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربًّا

يحميه !

فصاح به أبرهة فى سخط وهو يقوم من مجلسه ويتجه إلى

سرير مَلِكِه بعظمة :

– ما كان ليمنع عليَّ .

فقال عبد المطلب :

– أنت وذاك .. إهدمته إن استطعت ، ولكن رُدَّ عليَّ إِبلى .

فقال أبرهة :

– قد رددناها عليك وسوف نمضى إلى البيت فنجعله أثرًا

بعد عين !

ويدخل إلى أبرهة فى نفس اللحظة من يقول : إن بالباب سيِّدٌ

هذيلٌ^(١) يعرضُ ثلثَ أموالِ تِهامةَ على أن يرجع أبرهةُ فلا يهدمَ

الكعبة .. وهنا يصيح أبرهة فى غرور وصَلْفٍ وكبرياء :

– بل سأهدمها ولو عرضت على أموال الدنيا كلها .. لقد

آن الأوان لحذف هذه الكعبة من سجل الوجود ..

(١) هو خويلد بن وائله الهذلي ومعه يعمر بن نفاعة بن عدى سيد بنى بكر ١٠ هـ

— ببابك هذا عبد المطلب سيد قريش ورأسها يستأذن عليك
وهو صاحب عير مكة . . . وهو يطعم الناس بالسُّهول . والوحوش :
برؤوس الجبال ، فَأَنزَلَهُ وَأَسْمَحَ لَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِحَاجَتِهِ
وعلى الفور دعا أبرهة عبد المطلب وطلب منه أن يجلس إلى
جواره . . . فقال له عبد المطلب :
— اجلس على سرير ملكك . . . لا والله أيها الملك ، لا يكون
هذا أبداً .

فقال له أبرهة وهو يجامله :
— إِنَّنِي أَجْلِسُ أَنَا مَعَكَ عَلَى الْأَرْضِ تَعْظِيمًا لِقُدْرِكَ وَتَكْرِيمًا
لشخصك .

ويعد أن جلس إلى جواره سأله عن حاجته فقال عبد
المطلب :

— حاجتي أَنْ يَرُدَّ الْمَلِكُ عَلَيَّ الْمَائَتِي بِعَيْرِ الَّتِي أَصَابَهَا لِي !
فدهش أبرهة لهذا القول ونظر إليه بسخرية قاسية وقال :
— أهذا ما جئت تطلبه مني ؟ أنت شريف مكة وصاحب
الأمر والنهي فيها جئت تكلم أبرهة العظيم في مائتي بعير ؟ هل
نسيت أنني قد جئت أهيم بيت عبايتكم ؟ أهدم كعبتكم
المعظمة ؟ . . . أتكلمتني في مائتي بعير تريد استردادها ، وتترك بيتاً—

وعاد حَنَاطَةً بَعْدَ الْمَطْلَبِ وَبَعْضُ قَوْمِهِ ، وَجَلَسَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ
يَنْتَظِرُ الْأَمْرَ بِالدَّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، وَهَذَا عِلْمٌ بِقِصَّةِ ذِي نَفَرٍ . وَكَانَ
صَدِيقًا قَدِيمًا لَهُ . فَاخْتَلَى بِهِ وَقَالَ لَهُ :

— يَا ذَا نَفَرٍ ٠٠ هَلْ عِنْدَكَ غَنَاءٌ فِيمَا نَزَلَ بِنَا ؟
فَأَجَابَهُ نُو نَفَرٍ :

— وَمَا غَنَاءٌ رَجُلٍ أَسِيرٍ فِي يَدِ مَلِكٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْتُلَهُ بِكَرَّةٍ أَوْ
عَشِيَّةٍ ؟

فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ :

— الْحَقُّ مَا تَقُولُ وَلَكِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسَاعِدَنَا وَلَوْ بِالرَّأْيِ
السَّلِيمِ ؟

فَأَشَارَ عَلَيْهِ نُو نَفَرٍ قَائِلًا .

— مَا عِنْدِي غَنَاءٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا نَزَلَ بِكُمْ إِلَّا أَنْ (أَنْيْسًا)
سَاسَ الْفِيلَ صَدِيقَ حَمِيمٍ لِي فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ وَأَوْصِيَهُ بِكَ وَأَعْظَمَ عَلَيْهِ
حَقَّكَ ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَشْفَعَ لَكَ عِنْدَ الْمَلِكِ بِخَيْرٍ إِنْ اسْتَطَاعَ ؟

فَفَرِحَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ بِهَذَا وَهَتَفَ :

— حَسْبِيَ هَذَا مِنْكَ يَا صَدِيقِي ٠٠ حَسْبِيَ وَاللَّهِ ٠٠

وَمَضَى نُو نَفَرٍ إِلَى أَنْيْسٍ وَأَوْصَاهُ ، فَمَضَى بِدَوْرِهِ إِلَى آبِرْهَةَ

وَقَالَ لَهُ :

(تِهَامَةٌ) من قريش وَأَصَابَ فِيهَا مَائَتِي بَعِيرٍ لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَهُوَ يَوْمُنَا رَأَسُ قَرِيشٍ وَسَيْدُهَا .

وَمَا أَنَّ عَلِمَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ بِذَلِكَ حَتَّى جَمَعَ النَّاسَ بِالْكَعْبَةِ وَصَاحَ فِيهِمْ :

– أَيُّهَا الْقَوْمُ هَذَا أَبْرَهَةٌ الْحَبَشِيُّ يَعْسُكِرُ عَلَيَّ مَشَارِفِ مَكَّةَ .
وَقَدْ أَرْسَلَ رِجَالَهُ فَاغْتَصَبُوا أَمْوَالَنَا وَمَا نَمْلِكُ . . . فَمَا رَأَيْكُمْ ؟
فَصَاحَ الْقَوْمُ مِنْ خَوْلِهِ :

– لَأَبْدَ مِنْ قِتَالِهِ وَتَأْدِيئِهِ . . . فَلنُخْرِجُ إِلَيْهِ وَلنُكْفِرَ الْحَرْبُ
بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ .

فَاسْتَطْرَدَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ قَائِلًا :

– إِنَّهَا مَعْرَكَةٌ غَيْرُ مَتَكَافِئَةٍ سَوْفَ تَنْوِبُ فِيهَا قَرِيشُ أَمَامَ
طَاغِيَةِ لَأَيْرَحِمَ ثُمَّ تَتُوبُ بِعَارِ الْهَزِيمَةِ . فَاتْرَكُوا الْأَمْرَ لِلَّهِ وَحْدَهُ .
وَعَادَ أَبْرَهَةٌ بِرَجُلٍ مِنْ رِجَالِهِ يُقَالُ لَهُ : (حَنَاطَةُ الْجِمَيْرِيِّ)
وَقَالَ لَهُ :

اذْهَبْ إِلَى مَكَّةَ وَاسْأَلْ عَنِ سَيِّدِ أَهْلِهَا وَشَرِيفِهِمْ ، ثُمَّ قُلْ

لَهُ : إِنْ أَبْرَهَةٌ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبِكُمْ ، إِنَّمَا جَاءَ لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ ، فَلِإِنْ لَمْ
تَعْرِضُوا لَهُ بِقِتَالٍ فَلَا حَاجَةَ لَهُ بِدِمَائِكُمْ ، فَلِإِنْ هُوَ لَمْ يُرِدْ حَرْبِي
فِيَأْخُضْرِهِ إِلَيَّ .

– أيها الملك أبق على حياتي وسوف أكون لبيك بأرض

العرب . وهاتان يداي على قبائل خثعم بالسمع والطاعة ؟!

فاستجاب أبرهة لرجائه وأعفاه من القتل وأخذته ليليا حتى

وصل الطائف . واتجه أبرهة إلى بيت (اللات) هناك على قمة

الجبل فخرج عليه مسعود بن معتب في رجال من ثقيف وقالوا له

– أيها الملك . . . إنما نحن عبيدك سامعون لك منطيعون

لأوامرك وليس لك عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا بالبيت الذي

تريد . . . وإن شئت أرسلنا معك من يدك عليه ؟!

فتجاوز أبرهة عنهم ، وتطوع أحدهم وهو

(أبورغال) (٢) بأن يدلهم على مكة ويصل بهم إلى الكعبة ،

وسار أمامهم يحدولهم ويحمسهم حتى وصلوا إلى مكان يسمى

(المغمس) (٣) على مقربة من مكة بين (جعرانة ، والشرايع)

وهناك هلك أبورغال بداء غريب أصابه ، فدفن بنفس المنطقة –

وقد رجمت العرب قبره .

وعسكر أبرهة في المغمس وبعث رجلا يقال له : (الأسود بن

مفصود) على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فاغتصب أموال أهل

(١) هو أبو ثقيف . من ثمود جاء ذكره في الحديث في سنن أبي داود ، ودلائل النبوة ،

فار عليه السلام . إنه أصابته النعمة حين خرج من الحرم ١٠ هـ .

(٢) ورد ذكره في شعر عبدالمطلب ، أو أمية ونفيل ، وهو بطريق الطائف ١٠ هـ .

— يا قوم إن أبرهة يريد هدم الكعبة وإنى أدعوكم إلى قتاله
ومجاهدته عن بيت الله الحرام وما يريد تخريبه وإفناءه !

فأجابه البعض واستعدوا لقتال أبرهة ورجاله ، واشتبك
الفريقان في قتالٍ مريرٍ أسرف فيه نو نقر ، وسيقٍ مقيداً إلى أبرهة
الذي ما كاد يراه حتى صاح في رجاله :
— اقتلوه ومثلوا بجثته ليكون عبرة لمن يعتبر . .

فقال له نو نقر في هدوءٍ :

— مهلاً أيها الملك لا تقتلني فعسى أن يكون بقائى على قيد
الحياة أفضل لكم من قتلى . وعسى أن يكون مقامى معك خيراً من
ذهابى عنك إلى غير رجعة ؟ ففكر أبرهة لحظات ثم أشار إلى رجاله
بما يفيد الابتعاد عن ذى نقر والإبقاء على حياته .

واستأنف أبرهة والجيش والفيل سيرهم إلى أن وصلوا
أرض (خنعم) وهناك تصدى لهم نفيل بن حبيب الخنعمي في
قبائل من خنعم — شهران ، وناهيس^(١) — ودارت معركة حامية
هزم هيها نفيل وأصحابه وجرى عبثاً أسيراً إلى أبرهة الذي أصدر
أمرًا بقتله ، فصاح به نفيل :

(١) شهران أبو قبيلة من خنعم ، وى نامس شرفهم وعددهم ، وهما ابنا عفرس

١٠٢ . كتاب القبائل لابن عبد البر ص ١٠٢ .

مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٢-٢٧ « (صدق الله العظيم)
 ويبدأ المشهد الثاني من مأساة أبرهة الأشرم فنراه وقد
 اشتعل غضبه عندما لم يتحول الحجاج العرب إلى بنائه الفخم
 الضخم الذى أقامه وأنفق عليه من الوقت والجهد والمال الكثير
 الكثير - ونرى كيف ازداد هذا الغضب لهيباً عندما استقدمه
 النَّجَاشِيَّ وَسَخِرَ مِنْهُ. ومن بنائه ، فراح يفتعل الأسباب لكى يثير
 النَّجَاشِيَّ ضَدَّ الكعبة وَيَسْتَعِدِّيهِ عَلَيْهَا لِيَهْدِمَهَا !!
 فادعى : أَن بعضاً من العرب "١" قد دخل القلبيس وأحدث
 فيها - وأرسل من يُبَلِّغُ النَّجَاشِيَّ بهذا ، ثم ذهب إليه بنفسه
 ليستأنذه فى هدم الكعبة ومحوها من الوجود !
 فأنن له النجاشي وزوده بجيش جرارٍ من الجنود والأحباش
 كما زوده بفيلٍ ضخمٍ مُدْرَبٍ على اقتحامِ المعارك .
 وسار أبرهة مزهواً بجيشه وفيله إلى الكعبة يريد هدمها
 فخرج له رجل من أشرف اليمن وسادتها ، يقال له : نو
 نَقَرٍ "٢" ، ونصحه بالعدول عن سيره والعودة بجيشه ، ولكن
 أبرهة رفض نصحيته واستمر فى سيره ، فاتجه نونقَرٍ إلى قومه
 ومن أجابه من سائر العزب وصاح فيهم :

(١) هو احد بنى فقيم ، ممن كانوا يذنبون الشهور على العرب ١٠ هـ .

(٢) نونقَرٍ - هو قيل من اقبال حمير ١٠ هـ .

من قبلك ٠٠ وقد نقلت إليها أروع ما حواه قصرُ الْمَلِكَةِ بَلْقَيْسَ «١»
من أعمدة الرخام وأحجار المرمر وتُحف الذهب والفضة - ثم زدت
عليها الكثير ، ولست بِمُنْتَهَى حَتَّى أَصْرَفَ حجاج العرب إليها
وأجعلهم ينسون تماماً أن في مكة بيتاً يَحْجُّ إِلَيْهِ)
وَصَادَفَ هذا العمل هوى في نفس النجاشي الذي كان يُقلقه
وَيَقِضُّ مَضْجَعَهُ - كزعيم للدين المسيحي في المِنَاطِقَةِ - تهافت
الحجاج العرب على الكعبة في مكة المكرمة .

وانتظر النجاشي وانتظر معه آيْرَمَةُ وانتظر الجميع أن
يتحول حجاج العرب عن الكعبة العظيمة إلى كنيستهم (القَلَيْسِ)
بصنعاء .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وبقيت الكعبة قبلة العرب
جميعاً ومحط أنظارهم ومهبط أفئدتهم لا يجرؤ على منافستها أو
انتزاع حبيها من النفوس آي بناء آخر مهما بلغ من العظمة
والفخامة والأبهة ٠٠

نعم لقد بقيت ، وسوف تبقى أبد الدهر ، يؤمها الحجاج من
كل فج عميق وكلهم شوق متوهج وحنين متلهف ٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَآذَنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ

(١) بلقيس - هي ملكة سبا ١٠ هـ .

طاعة لك ٠٠ إلا أنني كنت أقوى على حكم اليمن منه وأضبط
وَأَسْوَسَ لِأَهْلِهَا

فابتسم النجاشي وقد استحسن لباقه أبرهة ثم قتل .
— لقد أقسمت أن أطأ أرضك وأجز رأسك يا أبرهة
فقال أبرهة في خضوع :

— لن تحنت في قسمك يامولاي ٠٠ لقد حلقت رأسي كله
عندما بلغني قسمك هذا وجئت بشعري إليك — وأيضاً جئت
بجرايب من تراب أرضي لتضعه تحت قدميك فَيَبْرَ بِذَلِكَ قَسْمَكَ !
فصاح النَّجَاشِي معجباً بذكائه وحسن تصرفه :

— أيها الماكر الخبيث ٠٠ إنك داهية والله ٠٠ وإنك لأقدر
على حكم اليمن وسياسة أهلها وضبط الأمور فيها من غيرك .
هيا عد إلى هناك وأثبت بأرضك حتى يأتك أمري .

وعاد أبرهة إلى اليمن وأقام فيها على خوف من غدر النجاشي
وراح يفكر كيف يستطيع الحصول على رضائه ، وهداه تفكيره إلى
أن يبني له كنيسة كبيرة بضنعا يجعلها تحفة من تحف البناء
والعمارة ، وعندما انتهى من بنائها أسماها : القليس وكتب إلى
النجاشي يسترضيه قائلا :

(مولاي النَّجَاشِي ٠٠ لقد بنيت لك كنيسة لم يبني مثلها ملك

وهكذا خرج أبرهة من المعركة منتصراً ولكن مشروم
الشفيتين - وهذا ما جعلهم يطلقون عليه اسم : **أَبْرَهَةَ الْأَشْرَمِ** .
بل إن الجنود عندما رأوا **أَرْيَاطًا** يسقط صريعاً صاحوا مهللين :
(انتصر **أَبْرَهَةٌ** وانتهى **أَرْيَاطٌ** فليحكم **أَبْرَهَةٌ** **الْأَشْرَمُ**
البلاد) .

ووصلت الأخبار إلى **النَجَاشِي** "١" ملك الحبشة فهاج وماج
وصاح غاضباً :

- لقد تم ذلك بغير علمي . . . لقد اعتدى أبرهة على أميري
أَرْيَاطٍ وقتله دون إذن مني - والله لا أدع **أَبْرَهَةَ** حتى أطأ أرضه
وأجز ناصيته .

وسمع أبرهة بهذا التهديد فابتسم في خبث ثم قال :

بل أنا الذي سيذهب إليه قبل أن يتحرك بجيشه إلينا
وأسرع أبرهة إلى **النَجَاشِي** وعندما مثل بين يديه ولح الغضب
يتطاير شرراً من عينيه انحنى في خضوع واستسلام قائلاً :
- أيها الملك العظيم . . . إنما كان **أَرْيَاطٌ** عبداً من عبيدك
وأنا أيضاً عبد من عبيدك . ولكننا اختلفنا فيما بيننا . . . وكلنا

(١) النجاشي - اسمه . اصحمة . وتشدد ياءه وتخفف . ا هـ .

الفريقين فتناحرا وتقاتلا وسالت الدماءُ غزيرة ، فكتب أبرهة إلى أرياط :

(٠٠) إنك لاتحسن إذ تفرق بين الأحباش وتجعل بعضهم عدواً لبعض ، وإنى لأرجو أن تحصر الخلاف بينى وبينك ، وأن تبرز لى وأبرز لك - فمن أصاب صاحبه انصرفت إليه أمور الحكم) .

فلما قرأ أرياط الرسالة صاح ساخراً واتفجر ضاحكاً .
- يدعوني إلى النزال ٠٠ إنن فقد أنصف ٠٠ سوف أبرز له وأبرزه وأقضى عليه ٠٠ .
وخرج أبرهة إلى ساحة المبارزة وخلفه عبد له يحمى ظهره اسمه : (عتودة) وخرج أرياط وحيداً لا يحمى ظهره أحد - واصطف الجنود على الجانبين ٠٠ جنود أبرهة على اليمين ، وجنود أرياط على اليسار :

وبرز الخصمان ودار صراع رهيب جبار استطاع أرياط " ١ " في بدايته أن يسدد الحربة إلى وجه أبرهة فيصيبه في حاجبة وعينه وشفثيه - وقد أثارت هذه الضربة نائرة أبرهة فاندفع بجنون نحو خصمه وحمل عليه حملة أردته قتيلا .

(١) يكنى بأبي صحم أ هـ . الطبرى . ج ٢ ص ١٠٩ وعدم صرفه أول

مأساة أبرهة الأشرم

وتمضى بنا قافلة الزمان لنشهد تلك المحاولات الغاشمة
الفاشلة التي حاولها الملوك والحكّام في كل بقعة من بقاع الأرض
عبر الدهور والعصور ليصرفوا الحجاج عن الكعبة ويحولوا
اتجاههم إلى بيوت أخرى أقاموها وزينوها وجعلوها فتنة للقلوب ،
وبهجة للناظرين .

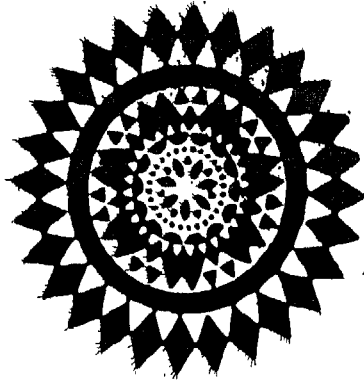
فذلك بيت ضخم فخم أقامه القسائنة بالحيرة "١" ،
وتلك القليس "٢" - كنيسة أبرهة الأشرم في صنعاء .

كانت اليمن تحت حكم الأحباش ، وكان يقوم عليها الحاكم
حبشى أرياط من قبل ملك الحبشة - ثم نازعه في حكمها حبشى
آخر ، هو أبرهة بن الصباح وكنيته (أبو يكسوم) - واشتد
النزاع بينهما وانشق الناس تبعاً لذلك فريقين - فريق يؤيد أرياطاً
والثاني يؤيد أبرهة . واتسعت شقة الخلاف - مع الأيام - بين

(١) مدينة كانت في موضع النجف بالقرب من الكوفة بين الخورنق والسدير كانت
مسكن ملوك العرب في الجاهلية ١٠ هـ .

(٢) كنيسة بقيت اثارها حتى زمن ابي العباس ، فخر بها عامله على اليمن وباع ما
امكن بيعه من العاج والابنوس والذهب والفضة ١٠ هـ . بلوغ الارب ج ١ ص ٢٥١
وتاريخ البرى ، والكامل لابن الاثير ١٠ هـ .

– لقد كانت : السقاية ، والرفادة ، والقيادة ، مسئوليات
ضخمة طالما اعتزبها الذين تولوها منذ القدمِ اعتزازاً وعاد الزمن
ثم أنشد يقول :
بَيْتٌ بَنَاهُ لَنَا قَدَمًا أَوَائِلُنَا وَأَوْرَثُوهُ طَوَالَ الدَّهْرِ أَخْرَانَا !



ورفض بنو عبد الدار التنازل عن شيء مما أعطاه لهم قسماً

وانضم بنو أسد وبنو زُهْرَةَ وبنو تَيْمٍ وبنو الحرث إلى بنى عبد مناف - بينما انضم إلى بنى عبد الدار : بنو مخزوم وبنو سَهْم وبنو جَمَحٍ وبنو عَدِيٍّ .

وظلت عامر بن لؤى ، ومحارب بن فهر : على الجياد . .
وعقد كل طرف على أمرهم حلفاً وثيقاً بينهم . وأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة بالطيب فوضعت بجوار الكعبة ثم غمس الجميع أيديهم فيها ومسحوا الكعبة فسموا المطيبين .
وعقد بنو عبد الدار حلفهم عند الكعبة وأخرجوا جفنة دم وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا الكعبة - فسموا : لعقة الدماء .

وأوشك القتال أن يشتعل ولكن عبد المطلب اعترض طريق المقاتلين وكان مهاباً مسموع الكلمة للطرفين وصاح بهم

- مهلاً أيها الرجال . . مهلاً يا بنى عبد مناف . . مهلاً يا بنى عبد الدار ، فلندع الحرب والقتال ولنتفاهم بالحسنى ، فهذا أفضل لنا جميعاً . . سيكون لبنى عبد الدار : الحجابة ، واللواء ، والندوة ، ويكون لنا : السقاية ، والزفادة ، والقيادة .
فصاح بنو عبد مناف معترضين ولكنه استطاع أن يقنعهم

وقال :

يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك . ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أمراً من أمورِها إلا في دارك .

– هذا فضل أنت جدير به أيها الأب العظيم .

وتنازل قصيُّ لولده عبد الدار عن كل ما كان بيده من أمر قومه ، وقبيل عبد منافٍ ما قضى به أبوه ، فقد كان قصيُّ لا يخالف ولا يردُّ عليه شيء صنعه .

ومات قصي فتسلم عبد الدار كل المسئوليات الوظيفية بالكعبة وجلس مكان والده بدار الندوة ، وقام بكل ما كان يقوم به قصيُّ للناس .

وظلت قريش على هذا الوضع سنوات وسنوات ثم اجتمع بنو عبد مناف وفكروا تفكيراً جديداً . . . فقال عبد شمس :
– نحن أولى من أبناء عبد الدار بكل ما بين أيديهم ؟ فوافقهم نوفلٌ وأيده قائلًا :

– ذلك لشرقنا عليهم وفضلنا فيهم . . . ولو أنهم يدعون أنهم أصحاب الشرف والفضل وحدهم .
فقال عبد شمس :

– لا بد أن ننتزع منهم كل ما منحهم إياه جدنا قصيُّ ، ولو أدى الأمر إلى انتزاعها بالقوة .

العليا ، خاصة بعد أن شَيَّدَ دارَ النَّدْوَةِ " (١) وجعل بابها يفضى إلى بيت الله الحرام مباشرة وكان يجلس فيها فيصرف أمور الناس ويحل مشاكلهم - الخاصة والعامة - يساعده في ذلك ولده عبد مناف الذى حاز - عن هذا الطريق - شرفاً كبيراً وعرف بين الناس بعلو المكانة وصدق الكلمة .

ولما كَبِرَ قَصَى وعلت به السن عزَّ عليه ألا يدرك ولده الْبِكْرُ عَبْدُ الدار ما بلغه ولده الثانى عبدُ مناف من شرف وعزة فاستدعاه وقال له :

- يا عبد الدار . . لقد استطاع أخوك عبد مناف أن يحقق لنفسه وأولاده ما لم تستطع أنت أن تحقق لنفسك وأولادك . وأنه ليعزُّ عليَّ أن أراك وأنا أترك الدنيا على هذا الحال !

- الإمر لله ثم لك يا أبت فافعل ما تشاء وإن شاء الله تجدنى راضياً بكل ما يكون منك ويرضيك .

- والله لألْحِقَنَّك بالقوم - وإن كانوا قد شَرَفُوا عليك ولأَحْبِبَّنَكَ بِذُرْوَةِ الشرف حتى لا يدخل أحد الكعبة حتى تكون أنت الذى يفتحها لهم . ولا يَعْقدُ لقریشٍ لَحْرِيها إلا أنت بيدك . ولا

(١) الندوة المشاورة وسميت دار الندوة بمكة لأنه كان إذا حدث بهم أمر ندوا إليها فاجتمعوا المشاورة ويقال لها . دار الدعوة ، ودار المفاخرة ، وهى من المسجد الحرام

— أَلَا إِنِّي قَدْ شَدَّخْتُ^(١) مَا كَانَ بَيْنَكُمْ مِنْ دَمٍ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ . . . وَلَا تَبَاعَةَ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فِي دَمٍ . وَإِنِّي قَدْ حَكَمْتُ لِقَصِيَّ بِحِجَابَةِ الْبَيْتِ مَعَ وِلَايَةِ أَمْرِكَةَ نَوْنِ خِرَاعَةَ لِمَا جَعَلَ لَهُ حُلَيْلُ^(٢) سَيِّدَ خِرَاعَةَ السَّابِقِ . وَأَنْ يُخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَتِكَ . وَأَنْ لَا تَخْرُجَ خِرَاعَةَ مِنْ مَسَاكِنِهَا .

وهكذا استقرت شئون البيت في يد قصى — أوبالأصح ولاية الكعبة إلى أبناء إسماعيل عليه السلام بعد أن حرّموا منها طويلاً ، وهم أحق الناس بها .

واهتم قصى بشئون الكعبة اهتماماً كبيراً فقام بتنظيمها كما قام باستحداث وظائف جديدة ومسئوليات دينية محدّدة فجعل الحِجَابَةَ مَنْصِبًا شَرِيفًا يَتَوَلَاهُ هُوَ بِنَفْسِهِ وَجَعَلَ مِفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ . وَجَعَلَ نَفْسَهُ الْمَسْئُولَ عَنْ كُلِّ مَا فِي الْكَعْبَةِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْهَدَايَا وَجَعَلَ الرِّفَادَةَ تَلَى الْحِجَابَةِ وَوَضَعَهَا أَيْضًا فِي يَدِهِ وَنَظَّمَ شُئُونَ السَّقَايَةِ وَاسْتَحْدَثَ مَنْصِبًا آخَرَ هُوَ اللِّوَاءُ لِتَنْضُمَ تَجْتَهُ الْقِبَائِلُ إِذَا مَا دَعَا الدَّاعِيَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ .

وكانت كلمة قصى في قومه — مدى حياته — هي الكلمة

(١) شدخت — أي أبطلت ١٠ هـ .

(٢) حليل — هو حليل بن حبشية بن سلول ١٠ هـ .

قُصِيَ ٠٠ ولكن خزاعة ثارت لذلك وانتزعت المفتاح عنوة منه وأبى قُصِيَ هذا منهم وجمع سادات قومه من قريش ومن بنى كنانة وقال :

— نحن أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة ٠٠ فقريش سليلة إسماعيل بن إبراهيم ، وصريح ولده .

ودعاهم إلى إخراج خزاعة وحلفائها بنى بكر . وقد استعان بأخيه من أمه (رزاح) بن ربيعة ٠٠ فجاء رزاح بقضاعة لنصرة أخيه .

ونشببت الحرب طاحنة بين قريش ومن حالفها وبين خزاعة وبكر ، ودار القتال في منى ، وسقط الكثيرون قتلى وجرحى من الطرفين ٠٠ ثم تدخلت القبائل العربية الأخرى بين الطرفين وعظم عليهم سفك الدماء في الحرم ، وتم التفاهم على أن يفصل في النزاع — يعمر بن عوف — وكان سيداً شريفاً مهاباً مسموع الكلمة من الجميع ٠٠ فقال لهم :

— موعدكم فناء الكعبة غداً ٠٠ على أن تعدوا القتلى من الفريقين .

واجتمع الناس بالكعبة وأقبل يعمر بن عوف ثم وقف ليعلن حكمه ، فأنصت الجميع ، وتكلم يعمر فقال :

وكان الغوث يَحْصُ قضاةً بذلك ، لأنها كانت تستحل
القتال في الأشهر الحرم .

وخرج قصيُّ يؤدى فريضة الحج لأول مرة ٠٠ فرأى من
تصرَّف أولاد الغوث (الصَّوْفَةِ) ما جعله يسخط عليهم ٠٠ ويرى
أن قريشاً أحقَّ بذلك الشرف منهم ٠٠ وانتهت أيام الحج وأقام
بمكة ٠٠ وراح يطوف بالبيت الحرام ٠٠ وكان كلما وقف أمام
الكعبة سأل نفسه :

— لماذا لا تكون ولايةً البيت لقريش ؟

وكان قصيُّ حكيماً متزناً التفكير ٠٠ فصبر حتى اكتملت
قواه وعظم شرفه واتجهت الناس في مكة بقلوبها إليه ٠٠ فتزوج من
(حُيَيِّ)^(١) "١" ابنة سيد خزاعة ، وهكذا تمت المصاهرة بين سليل
قريشٍ وأشرف سادات خزاعة ، ورزق من حُيَيِّا بعبدِ الدار وعبدِ
منافٍ وعبدِ العزَّى وعبدٍ ٠٠ وانتشر ولده وكثر ماله واستطاع أن
يحصل على ثقة وحب حَمِيهِ "٢" والدزوجته الذي كان بيده مفتاح
الكعبة ٠٠ يفتحها وحده ، فيإذا مرض أعطى المفتاح لابنته حُيَيِّا
أو بعض ولدها .

فلما حضرت الوفاة والد حُيَيِّا أسلم مفتاح الكعبة إلي

(١) حُيَيِّ — على وزين سعدي ، وهي بنت حليل — بضم أوله — الخراعي ١٠ هـ .
(٢) الحمء وميه لغات : أبوزوج المرأة وأبو امرأة الرجل أو أخوها أو عمها ١٠ هـ .

فلبث قُصِيَ حتى دخل الشهر الحرام ٠٠ ثم خرج في حاجٍ
قُضَاعَةً وهو يتلطف على لقاء أخيه زُهْرَةَ الذي سمع أنه من سادات
قريش وأبناء عمه وأهله جميعاً .

والتقى بهم فرحبوا به أشد الترحيب وفرحوا به غاية
الفرح ٠٠ واستشعر هو بينهم العزة والكرامة ٠٠ وكان أول ما
أثار اهتمامه : أن قريشاً خسر الناس وأكرمهم لم تكن لها ولاية
البيت ، وإنما كانت لِحِزَابَةِ ٠٠ وأن الإجارة للناس بالحج لم تكن
قريش أيضاً ٠٠ وإنما كانت في أبناء الغوثِ بنِ مُرَّةِ بنِ أَدِّ بنِ
طابِخَةَ بنِ إلياس .

وسأل عن السبب وعرف ما كان من خِزَاعَةِ مع قريش ٠٠
وما كان من جُرْمِهَا قَبْلَهَا ٠٠ وعرف قصة أبناء الغوثِ وأن أهمهم
كانت عقيماً فنذرت إن هي ولدت نكراً أن تجعله من خدام
الكعبة ٠٠ فلما منَّ الله عليها بالغوث وهبته للكعبة خادماً وسادناً
الْبِسْتَةَ ثوباً من الصُوفِ فقيل له ولأولاده من بعده (صُوفَةٌ) « ١ »
وَسَبَّ الغوثُ فتولى الإفاتضة بالناس من عرفة ٠٠ وكان إذا دفع
بالناس يقول :

لَا هُمْ إِنِّي تَابِعٌ تَبَاعَهُ « ٢ » .

(١) صوفة : أبوحى من مضر ، والصوفة كل من ولي شيئاً من عمل البيت ١٠ هـ .

(٢) التباعة ما يترتب على الفعل من الخير والشر ، واستعماله في الشر أكثر كالتبعة .

١ هـ ، ٢ لاهم « يسبق تفسيرها بهامش صفحة ٦٢ الماضية .

خيرٌ من رهطه .. وآباءك أشرف من آباءه .. أنت من قريش ..
جدك إسماعيلٌ عليه السلام .. وأخوك زهرة .. وبنو عمك

بمكة .. وهم جيران بيت الله الحرام .

– ابن من أنا إذن يا أمّاه ؟

– ابن كلاب بن مرة بن كعب .

فسألها :

– وفيم إقامتي هنا إذن ؟ سألتُ بقومي .

فقالَتْ له أمّه :

– أنتِ وشأنك يا ولدي .. لقد بلغت مبلغ الرجال .. ومن

حَقَّكَ أَنْ تُوَجَّهَ نَفْسُكَ الْوَجْهَةَ الَّتِي تَرْضَاهَا .. فَلِإِنْ شِئْتِ بِقِيَّتِ

مَعْنَا عَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ ، أَنَا أُمُّكَ وَرَبِيعَةُ أَبُوكَ .. وَإِنْ شِئْتِ

رَحَلْتِ عِنَّا وَلِحَقَّتْ بِأَهْلِكَ فِي مَكَّةَ ؟

– سألْتُ بقومي يا أمّاه .. نعم ، سبأعود إلى أهلي وأرضي ..

الطبيبة الطاهرة المباركة ، سبأعود إلى جوار الكعبة المعظمة التي

بناها أجدادي بإمر الله سبحانه وتعالى ..

فقالَتْ أُمُّهُ :

– آجَلُ الذَّهَابِ يَا وَلَدِي حَتَّى يَدْخُلَ غَلِينَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ

فَتَخْرُجَ مَعَ حَاجِّ الْعَرَبِ .. فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ

قِصَّة

وتَمَضَى بنا قافلة الزمان فنصل إلى مرحلة أُخرى من قصة الكعبة المعظمة ، حيث نراها في عهد قُصَيِّ بْنِ مَرَّةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ الَّذِي هُوَ قُرَيْشٌ سَلِيلُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَرِيحٌ وَوَلَدُهُ .

شَبَّ قُصَيٌّ غَرِيبًا لَا يُعْرِفُ إِلَّا أَنَّهُ ابْنُ رَبِيعَةَ زَوْجِ أُمِّهِ حَتَّى جَاءَ يَوْمٌ اخْتَلَفَ فِيهِ مَعَ رَجُلٍ مِّنْ قِضَاعَةَ فَسَبَّهُ الرَّجُلُ وَعَيَّرَهُ قَائِلًا :

— أَنْتَ لَسْتَ مِنَّا . . . وَإِنَّمَا أَنْتَ فِينَا مُلْصَقٌ .

فَغَضِبَ قِصَى وَسَأَلَهُ : مَاذَا يَعْنِي بِهَذَا الْقَوْلُ ؟

فَقَالَ الرَّجُلُ :

— لَا تَسْأَلْنِي وَإِنَّمَا اسْأَلْ مَنْ جَاءَتْ بِكَ إِلَى أَرْضِنَا ؟

فَهَمَّ قِصَى أَنْ يَضْرِبَ الرَّجُلَ ، وَلَكِنَّهُ كَظَمَ غَمِيزَهُ وَتَرَاجَعَ عَنِ ضَرْبِهِ ، ثُمَّ دَخَلَ إِلَى أُمِّهِ يَسْأَلُهَا :

— قَالَ لِي الْقِضَاعِيُّ : إِنِّي لَسْتُ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا أَنَا مُلْصَقٌ فِيهِمْ . . . أَرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ الْحَقِيقَةَ ؟

قَالَتِ الْإُمُّ :

— لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ يَا بَنِيَّ . . . لَسْتُ مِنْهُمْ . . . وَلَكِنْ رَهَطَكَ

أموالكم ٠٠ فهل رأيتم من هالكٍ رجَع ؟ أو ميّتٍ انتشر ؟ والدارُ
أمامكم والظنُّ غيرُ ما تقولون ٠٠ أيها الناس زينوا حرَمكم

وعظّموه فسوف يأتي له نبأٌ عظيمٌ ٠٠ وسوف يخرجُ منه نبىٌ
كريمٌ ٠٠ أما والله لئن كنتُ فيها ذا سَمْعٍ وبصرٍ ويَدٍ ورجلٍ لتَنصَبْتُ
فيها تنصَّبَ الجَمَلِ ٠٠ ولأرقلُ فيها إرقالَ الفَحْلِ) ٠

وظل يدعو الناس إلى الله في هَوَادَةٍ ولينٍ ٠٠ ولكنهم لم
يستجيبوا له ولم يفكروا أحدهم في العمل بقوله !!

ومات كعبٌ وأصبح ابنه مَرَّةً سَيِّدَ ساداتِ قريش من بعده
ولم يستطع مَرَّةً أيضاً أن يصنع شيئاً وبدأ القُرَيشيون يهاجرون
من مكة إلى البلاد التي استقر بها آجداهم وظلت الحياة الدينية في
أُمَّ القري على ما كانت عليه من فساد ٠

ومرت الأيام واكتملت شهوراً وأصبحت الشهورُ سنواتٍ
وتعاقبت السنواتُ ومات مَرَّةً وتزعم ولده كلابٌ قريشاً من بعده
وحاول هو أيضاً أن يصنع شيئاً ٠٠ ولكن خِزَاعَةَ استطاعت أن
تطرده إلى خارج مكة حيث عاش مع أولاده وأولاد إخوته يحفر
الآبار ويرعى الإبل والغنم ٠

ومات كلابٌ وترك ولديه : زيداً ، وزُهْرَةَ مع أمهما فاطمة
بِنْتِ سَعْدِ ٠٠ وكان زيدٌ فطيماً ، وزُهْرَةُ قد بلغ مبلغ الرجال ٠٠

نساءً ورجالاً وارتفعت أصواتهم تهدر بهتافٍ غريب شاذ لفته لهم
الكهنة وتجار الدين ، هو :
(لييك اللهم لبيك .. لبيك لاشريك لك لبيك .. إلا شريك هو
لك .. تملكه وما ملك) .

وسمع كعب بن لؤى هذا الهتاف فتار وصاح :
- (لا إله إلا أنت سبحانك .. لبيك اللهم لبيك .. لبيك
لاشريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك .. لاشريك
لك) .

ولكن صوته ضاع وسط الهدير المرتفع للألوف المؤلفة التي
كانت ترد الهتاف الأول تماماً كما ضاعت جهوده وجهود الفئة
المؤمنة عندما حاولوا وضع الناس على الصراط المستقيم والعودة
بهم إلى حظيرة الدين الحق .. وقرر كعب أن يجمع الناس في
الكعبة ليخطب فيهم ويعرفهم بخطئهم وفساد مفاهيمهم .. ولكن
أحداً لم يجتمع له إلا الفئة التي آمنت به من قريش .. فقام فيهم
بخطيباً وقال :

- (أيها الناس .. أما بعد .. فاسمعوا وأفهموا وتعلموا
واعلموا .. ليل داج ونهار ضاح .. والأرض مهاد .. والسماء
بناء .. والجبال أوتاد .. والنجوم أعلام .. والأولون
كالآخرين .. فصلوا أرحامكم .. واحفظوا أصهاركم وتمروا

قال مالك :

— لو أن ذلك مقدّرٌ وسوف يقع ٠٠ فهل يمنع سفكك لدماء العرب وقوعه ؟

ونظر سابورٍ إلى مالكٍ نظرة تقدير ٠٠ فقد قال قولاً بسيطاً
ولكنه كان حكيماً ٠٠ ثم قال :

— لقد أوقفت القتل والتعذيب عن العرب ٠

ولو تكشف الغيب في هذه اللحظة لسابورٍ لعلم أن هذا
العربي الذي يخشى ظهوره بين العرب والذي تنبأ له المنجمون بأنه
سيدك عرش فارس ويطفيء النيران المقدسة ويحطم الأصنام ٠٠
ليس إلا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي الذي ينتهي
نسبه إلى مالك القرشي الواقف أمامه ٠

مضت السنوات وخزاعة تتاجر في الدين ٠٠ وكانت مكة
تموج بالخرافات والضلالات ٠٠ والناس يتخبطون في دياجير
الظلم والظلام ٠٠ وكانت الفئة المؤمنة وعلى رأسها كعب بن لؤي
ابن قهر بن مالك بن النضر تحاول إنقاذ الناس من هذا التخبط
والعودة بهم إلى حظيرة الدين الحق ٠٠ دين الله الواحد الأحد وعبثاً
راحت محاولاتهم ٠٠ فقد استمرت خزاعة على غيها واستمر
الناس على ضلالهم ، بل إن الطين زاد بلة ٠٠ وانحدر الناس إلى
هاوية الكفر والشرك ووصل بهم الحال أن طافوا بالكعبة عراًياً

– ولمَ لا أفعل ؟ وقد أنبأني المنجّمون أنه سيظهر في العرب

رجل يزول على يديه مُلْكُ فارسَ ويُمحى دينها .

فقال مالك :

– المنجّمون لا يصدقون دائماً .

فعاد سابورٌ يقول :

– وَنُبُوءَةُ سَاسَانَ « ١ » ؟

فقال مالك :

– وماذا تقول نُبُوءَةُ سَاسَانَ ؟

فأجاب سابورٌ :

– تقول : إن رجلاً من العرب سيأخذ سرير مُلْكِ فارس

ويصبح الرؤساءَ مرءوسين له . . ويضع مكان تماثيل الآلهة

ومواقد النار المقدسة بيتاً معموراً بلا صور وبلا تماثيل .

فسأله مالك :

– إذا كانوا صادقين . . فليقولوا من آية قبيلة ذلك

الرجل ؟

فقال سابور على الفور :

– لو عرفت في آية قبيلة سيظهر لأقنيت تلك القبيلة وحققت

دماء العرب أجمعين .

(١) ساسان – باسم جد ملوك الأكاسرة ، ولم ينكره الفيروزآبادي . ١٠ هـ

الصراع بين خزاعة وقريش

كانت خزاعة تريد من وضع قريش في الصف الأول من جيشها الذاهب لقتال التبايعَة أن تقضى عليها أو على معظم رجالها ٠٠ ولكن فآلها خاب ٠٠ وبدلاً من أن يهلك القريشيون في هذه الحرب انتصروا وكسبوا المجد والشهرة بين العرب وأصبح لهم الشرف الرفيع يتحدث عنه وعنهم كما تحدثوا من قبل عن أبيهم مالكٍ وجدهم النضر بن كنانة ٠

وكان جدهم قد اجتهد حتى جمعهم ولَمَّ شملهم ووجد صفوفهم وأعادهم مرة أخرى إلى بيت الله الحرام الذي كانوا قد تركوه تحت ضغوط قبيلة جرهم ٠٠ وقد أطلق عليه العرب منذ ذلك الحين كلمة قريش : نسبة إلى (تقريشهم) ٠٠ أى تجميعهم ٠ وكان مالكٌ أبوهم هو الذي تجرأ على مواجهة (سأبور) ذى الأكتاف - الذى كان ذكره يثبت الرعب بين العرب جميعاً - وقد ذهب إليه ليتناقشه في عنوانه للعرب وقال له بعد أن أخذ منه الأمان لنفسه :

- جئت أسألك ٠٠ لماذا تضطهد العرب ؟

فقال له سأبور :

ويذهب الملك تبع الحميري إلى البيت فيطوف بالكعبة معظماً
لها وينحر عندها ويحلق رأسه ثم يقيم بمكة ستة أيام ينحر فيها
للناس ويسقيهم العسل ثم يحضر أفخر الثياب ويقوم بعمل كسوة
للكعبة منها ٠٠ كما يقوم بوضع أبواب لها بمفاتيح تفتح وتغلق
حسب الحاجة .

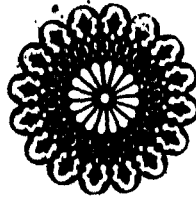
وأكثر من هذا فإنه يضع شعراً في الكعبة يقول فيه « ١ » :

وَكَسَوْنَا الْبَيْتَ الْبَنِي حَرَمَ اللَّهِ

مَلَاءَ مَنَاضِدًا مَبْرُودًا
وَنَحَرْنَا بِالشَّعْبِ « ٢ » سِتَّةَ أَلْفِ

فَنَسَرَى النَّاسَ نَحْوَهُنَّ وَرُودًا
ثُمَّ سَرِنَا عَنْهُ نَوْمٌ سَهِيلاً « ٣ »

فَرَفَعْنَا لِوَاعِنَا مَعْقُودًا



(١) انظر السلوك والتبر المسبوك للمقريزي ١٠ هـ .
(٢) هما شعبان في مكة وشعب بنى عامر وشعب على ولم يذكرهما ياقوت ١٠ هـ
(٣) نخم هند طلوعه ينقض الصيف عند العرب وتنضج الفواكه ١٠ هـ .

التغير المفاجيء في الجو والغريب على المنطقة ، فيقول كبيرهم :
- لقد جئت آيها الملك تريد التخريب والتدمير لبيت لم يقو
أحد من قبل على مسسه بسوء . وهذه غصبة السماء أرسلتها إلى
الأرض في صورة هذه العاصفة الهوجاء .

ولا يقتنع الملك بهذا القول وينتظر حتى تهدأ العاصفة تماماً
ثم يعاود السير بجنوده نحو مكة . .

ولا يكاد يتقدم أميالا حتى يصاب بمرض ثقيل غريب
لايستطيع أطباؤه له علاجاً . فقد تقيح رأسه وانبعث منه صديد له
رائحة شديدة الكراهية جعلت الجميع ينفرون منه حتى
الأطباء . . فيستقدم الأبحار مرة أخرى ويسألهم الإنقاذ ؟ فيقول
له كبيرهم نفس القول ويضيف :

- لقد أراد الهنليون هلاكك أيها الملك وهلاك جنودك . .
فنحن لإنعلم بيتاً لله اتخذه في الأرض لنفسه غير الكعبة التي
نصحوك بهنمها - ونحن فعلت لتهلكن ولتهلكن من معك جميعاً .

وهنا يتراجع الملك عن عزمه نهائياً ويطلب من الأبحار مزيداً
من النصح فيشيرون عليه أن يظوف بالبيت ويعظمه ويكرمه ويحلق
رأسه عنده ويذل حتى يخرج منه . . فيوافق الملك على الفور ويأمر
بقطع أيدي وأرجل الهنليين وضرب أعناقهم .

— لو عرفت ما فيه أيها الملك . . ووقفت على حقيقة كنوزه
 وَحَفَّه . . لما قلت هذا القول . . هذا البيت فيه من اللؤلؤ
 والزَّيْرَجِدِ والياقوت والذهب والفضة وفيه من التحف والهدايا . .
 ما لا يستطيع حمله مئات من الرجال الأَشْدَاءِ الأَقْوِيَاءِ .
 وَيَنْبَهَرُ الملك بما يسمع من الهُدْيِ فيطلب المزيد من
 الإيضاح . فيقول الهُدْيُ " ١ " ؛

— إنه بيت بمكة يعظمه العرب جميعاً ويفدون إليه وينحرون
 عنده . . ويعتمرونه ويحجونه . . وأنت أولى أن يكون ذلك البيت وشرفه
 وذكره لك . . والرأى عندي أيها الملك أن تسير إليه فتخرجه ثم تبني
 عندك بيتاً كبيراً مماثلاً يتحول إليه حجاج العرب جميعاً وتتحول
 إليه بالتالي الأموال والهدايا والكنوز التي يحملونها .
 ويقتنع تبع الحميريُّ بهذا الرأى ويخرج على رأس جيش

ضخم يريد تخريب الكعبة وهدمها . . ولايكاد يقترب من مكة حتى
 تهبَّ عليه وعلى جنوده عاصفة هوجاء من تلك العواصف الحاملة
 للرمال فتحول بياض النهار إلى سوادٍ وتجعله والجنود يدورون
 حول أنفسهم في دوامات عنيفة رهيبية !!

ويذهل تبع ويأمر بإحضار الأخبار ليسألهم عن سر هذا

(١) الهدى — نسبة إلى أبي حن من مضر ، والهدلى أصوب من الهديل ١٠ هـ .

وكانت خزاعةٌ تتوقع أن تنقضَّ عليها قريش في يوم من الأيام
وتنتزع هذه الولاية وزاد من خوفها أن بعض القرشيين قد هجروا
أعمالهم وانقطعوا في الحرم لتدريس الدين الصحيح .. دين
إبراهيم الحنيف .

فما إن جاء تبعُ الأول «أ» يريد هدم الكعبة وتخريبها حتى
احتالت خزاعةٌ على قريش فجعلتها في مقدمة الجيش الذي خرج
لقتاله .

وكانت النتيجة أن هُزم تبعٌ وعادَ مقهوراً مدحوراً .
ومن بعده جاء تبعُ الثاني فتصدى له نفس الجيش وكانت
الهزيمة من نصيبه أيضاً .. وسقط في هذه المعركة قيسُ حفيدُ فِهْرٍ
قتيلاً .

ومن بعده جاء تبعُ الثالث .. ويسمى تبعاً الحميري .
وكان نفر من هذيلٍ يحقدون عليه ويتمنون زوال ملكه .. فقال له
كبيرهم :

— أيها الملك .. هل نَدَلُّك على بيت مال دائر أغفلته الملوكةُ
من قبلك ؟

— إذا كانت الملوكةُ قد أغفلته .. فما حاجتى أنا إليه ؟

(١) التبابعة : هم ملوك اليمن ، ولا يسمى بهذا اللقب إلا إذا كانت له حمير
وحضرموت ١٠ هـ . تاريخ الحضارة .

فَسَحَّتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ تَبْكِي لِبَلَدِهِ
بِهَا حَرَمٌ بَادٍ وَفِيهَا الْمَشَاعِرُ

خِزَاعَةُ

وَلَيْتَ خِزَاعَةُ الْبَيْتِ وَأَهْلُ مَكَّةَ غَارِقُونَ فِي وَثْنَيْتِهَا
وَالنَّاسُ قَدْ انْحَرَفُوا عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، وَاجْتَهَدُوا
فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ الَّتِي تَكْدَسَتْ دَاخِلَ الْكَعْبَةِ وَخَارِجَهَا ، بَلْ
وَأَصْبَحَتْ لَهَا كَعْبَاتُ خَاصَّةٌ بِهَا ۰۰ فَكَانَ لِمَنَاةَ بَيْتٌ ۰۰
وَاللُّعْزَى بَيْتٌ ۰۰ وَفَسَدَ الْإِعْتِقَادَ بَيْنَ النَّاسِ ، إِلَّا فِئَةً مِنْهُمْ ظَلَمُوا
يَتَّقُونَ بِالسَّمَاءِ وَيَسْتَبْخُونَ اللَّهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ ۰۰ وَعَقَمَتِ نِسَاءُ
مَكَّةَ فَلَمْ تَعُدَّ تُنْجِبُ رِجَالًا يَسْتَطِيعُونَ إِنْقَادَ هَؤُلَاءِ الْمَلْحِدِينَ مِنْ
إِلْحَادِهِمْ ، وَكَثُرَ فِيهَا الْعَرَّافُونَ وَالْمَنْجَمُونَ وَالْكَهَّانَ الَّذِينَ يَبِيعُونَ
لِلنَّاسِ بَرَكَاتِ الْأَلْهَةِ ۰۰ وَبَدَأَتْ حَضَارَتُهَا تَنْهَارَ رُوَيْدًا رُوَيْدًا ۰۰
وَكَانَ فَهْرُ بْنُ مَالِكٍ زَعِيمٌ قَرِيشِيٌّ يَهْرَعُ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ فِيمَا شَجَرَ مِنْ خِلَافَاتٍ ، وَيَلْجَأُونَ إِلَيْهِ لِيُشِيرَ عَلَيْهِمْ
وَيُوجِّهَهُمُ التَّوْجِيهَ الصَّحِيحَ ۰۰ وَكَانَتْ خِزَاعَةُ تَنْظُرُ إِلَى فِهْرِ وَمَنْ
مَعَهُ مِنْ آلِ قَرِيشٍ نَظْرَةً تَوَجُّسَ وَخِيفَةً ۰۰ جَقًّا إِنْ وَايَةَ الْبَيْتِ فِي
خِزَاعَةٍ وَلَكِنْ قَرِيشِيًّا صَاحِبَةَ الْحَقِّ الْأَوَّلِ فِي وَايَةَ الْبَيْتِ تَزْدَادُ عَدَدًا
وَمَا لَا وَشَرَفًا فِي كُلِّ يَوْمٍ ۰

وظلت جُرْهُمُ ساردة في غيها إلى أن سلَّطَ الله سبحانه وتعالى
عليها خُزاعة^(١) فحاربتُها وانتصرتُ عليها ، وأخرجت جبابرتَها
من مكة أدلة صاغرين .

– وفي هذا يقول شاعرهم .

وَقَائِلِيَّةٍ وَالذَّمْعُ سَكْبٌ مُبَادِرُ
وقد شَرَقَتْ بِالذَّمْعِ مِنْهَا الْمَحَاجِرُ :
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجَوَيْنِ «٢» إِلَى الصِّفَا
أَنْيَسُ وَلَمْ يَسْتَمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

فقلتُ لها والقلبُ منسى كأنما
يَلْجَلِجُهُ بَيْنَ الْجَنَاحَيْنِ طَائِرُ :
بلى ، نحن كنا أهلها فأزالنا
صُروفَ الليالي والجُنودُ العواثرُ
وكنّا وُلاةَ البيتِ من نابتِ أتى
نَطُوفُ بذاك البيتِ والخيرُ ظاهرُ
فَأَخْرَجْنَا مِنْهَا الْمَلِيكَ بِقُدْرَةٍ .
كذلك بِالْأَحْوَالِ تَجْرِي الْمَقَادِرُ .

(١) من ولد عمرو بن لحي . ١٠ هـ . القصد والامم لابن عبد البر .

(٢) الحجون – مرتفع بأعلى مكة عنده مدافن أهلها . ١٠ هـ .

— أدركونى ٠٠ أغيثونى ٠٠ النجدة يا قوم ؟
والتف حوله بعض من كانوا يطوفون بالكعبة وحاولوا رفع
الحَجَرِ الضخم عن صدر الرجل ولكن الحجر أبى أن يتزحزح وظلَّ
جاثماً فوق صدر الرجل وهنا سأله أحدهم :

— ما هى قصتك أيها الرجل ٠٠ لا شك أنك قد ارتكبت
جُرماً بالكعبة ، أو أحدثت فعلاً ظالماً ؟
فأجاب اللصُّ باكياً :

— نعم ،، لقد دخلت بقصد السرقة من مال الكعبة وكنوزها
فسقط على هذا الحجر ، فحسبتُ على هذا النحو ٠٠٠

وأخذ اللصُّ يستعطف الرجال أن ينقذوه ويعلم توبته مؤكداً
أنه لن يعود إلى ما فعل ثانية .

وهنا استطاع الرجال زحزحة الحجر عن فتحة البئر
وإخراج الرجل سالماً .

ورغم هذا فقد تكررت محاولات الجرهميين لسرقة أموال
الكعبة وكنوزها ٠٠ وهنا بعث الله سبحانه وتعالى حية ضخمة لها
رأس كراس الجدبى بيضاء البطن سوداء المتن فكانت فى البئر
خمسائة عام ، انقطعت فيها السرقات تماماً .

الله - هو عمرو بن لُحَيٍّ جَدُّ خَزَاعَةَ الْأَعْلَى «١» . . . وقد وافقت
جُرْهُمُ عَلَى ذَلِكَ وَاتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا أَصْنَامًا تَعْبُدُهَا وَضَعْتَهَا فِي جَوْفِ
الْكَعْبَةِ وَتَبِعَتْهَا الْقِبَائِلُ . . . فَصَارَ لِكُلِّ مِذْيَبٍ مِنْهَا صَنَمٌ تَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى رَبِّ
النَّاسِ .

وقد أجمعت المراجع والمصادر جميعها على ارتكابهم
الفواحش والموبقات على مقربة من الكعبة العظيمة .
وقالت عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها :

(مَا لِنَا نَسْمَعُ أَنْ إِسَافًا ، وَنَائِلَةَ «٢» كَانَا رَجُلًا وَامْرَأَةً مِنْ
جُرْهُمٍ أَحَدِنَا فِي الْكَعْبَةِ ، فَمَسَخَهُمَا اللَّهُ حَجْرَيْنِ ، لَاعْتِدَائِهِمَا عَلَى
حَرَمَةِ الْكَعْبَةِ) .

وكثرَت السَّرِقَاتُ دَاخِلَ الْبَيْتِ وَلَمْ يَعِدِ النَّاسُ يَأْمَنُونَ عَلَى
أَمْوَالِهِمْ إِذَا دَخَلُوهُ ، بَلْ إِنْ بَعْضُ أَهْلِ جُرْهُمٍ كَانَ يَسْرِقُ أَمْوَالَ
الْكَعْبَةِ ذَاتِهَا .

وقيل : إِنْ سَارِقًا مِنْ جُرْهُمٍ دَخَلَ الْبَيْتَ الَّتِي فِيهَا كَنُوزُ
الْكَعْبَةِ وَحَمَلَ مِنْهَا مَا اسْتَطَاعَ حَمَلَهُ وَأَرَادَ الْهَرَبَ بِهَا . . . وَهَذَا
سَقَطَ فَوْقَهُ حَجَرٌ ضَخْمٌ فَحَبَسَهُ دَاخِلَ الْبَيْتِ ، فَصَاحَ مُسْتَغِيثًا

(١) انظر خبر بحثه عنها في جدة في تاريخها للانصارى في المقدمة . ١ هـ

(٢) هما : إساف بن يعلى ، ونائلة بنت زيد . ٤ هـ . الأصنام للكلبى ص

ورأى بنو إسماعيل الذين أُحْجِمُوا عن الاشتراك في القتال
لحساب أحد الطرفين - رأوا أن المشاحنات لن تنتهى بين الطرفين
وأن الفتنة تطل برأسها فمشوا بالصلح بين جرهم والسَّمِيدِيِّينَ
واستجاب الطرفان للصلح . وقام مُضاضٌ فَنَحَرَ وطبخ وأطعم كلَّ
من حضر ذلك الصلح - وهكذا استقرت الأمور لمُضاضٍ ، وانتهى
أول قتال دمويٍّ وقع في الوادي المقدس .

ولما خلا الجو لجرهم بغوا وطغوا وأكلوا أموال الكعبة
واستأثروا بما يُهدى وفَرَضُوا الإِتاواتِ على الحجاج والمُعتمرين
والقوافل التجارية التي تمر بمنطقة مكة . . . وأقامت جرهم تحوُّ
ثلاثمئة سنةٍ لا يَنزَعُها في ولاية البيت أحد .

وقد أصاب الكعبة خلال هذه الفترة تصدُّعٌ وانهايارٌ لبعض
جدرانها بسبب السيول . . . فقامت جرهم بإصلاحها وترميم
الجدران التي تصدعت منها وزادت في ارتفاع بنائها .

ومدَّ الله الجرائمَةَ في طغيانهم يعمهونَ فترة من الزمن
أحدثوا خلالها في الكعبة أحداثاً عظيماً . . . فقد أقاموا الأصنام
من حولها . . . أصناماً صنعوها بأيديهم من الحجارة
والخشب . . . وكان أول من جلب هذه الأصنام إلى الكعبة -
وحرض الناس على أن يعبدوها ويجعلوها واسطة بينهم وبين

أصحابه هاربين فسيطر مَضَاضٌ وحده على مكة شِمَالاً وجنوباً
ورقف على الجبل يخطب في الناس ويقول :

وَنَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْحَيِّ عَنُوةً
فَأَصْبَحَ فِيهَا وَهُوَ حَيْرَانُ مَوْجِعُ
وَمَا كَانَ يَبْغِي أَنْ يَكُونَ سِوَاؤُنَا
بِهَذَا مَلِكًا حَتَّى أَتَانَا السَّمِيدُ
فَذَاقَ وَيَالَا حِينَ جَاوَلَ مُلْكَنَا
وَعَالَجَ مِنَّا غُصَّةً تَتَجَرَّعُ
فَنَحْنُ عَمَرْنَا الْبَيْتَ كُنَّا وَلَاتَهُ
نُدَافِعُ عَنْهُ مَنْ أَتَانَا وَنُدْفَعُ
وَمَنْ كَانَ يَبْغِي أَنْ يَلِي ذَاكَ عِرْنَا
وَلَمْ يَكُ حَيٌّ قَبْلَنَا ثُمَّ يَمْنَعُ
وَكُنَّا مُلُوكًا فِي الدُّهُورِ الَّتِي مَضَتْ
وَرِثْنَا مُلُوكًا لَا تُرَامُ فَتَوَضَّعُ
وَنَزَلَتْ جُرْهُمٌ مِنْ أَعَالِي الْجِبَالِ وَرَاحَتْ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ

تنشد :

لَا هُمْ « ١ » إِنْ جُرْهُمًا عِبَانُكَ
الْقَوْمُ طَرَفٌ وَهُمْ قِلَانُكَ

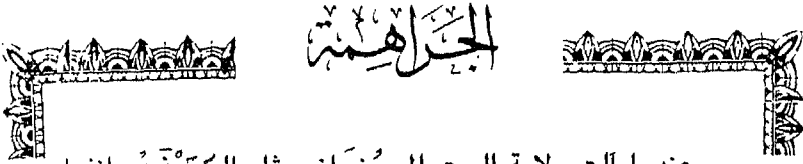
(١) لاهم - أى اللهم .

روحانية الملائكة ، وجعل في بعض خَلْقِ ابن آدم ..
وقد نجحت هذه الأسطورة فصدقها الناس وانتشرت بينهم
انتشار الريح ، وهكذا فتحت جرمهم للشيطان باباً واسعاً يدخل
منه إلى القلوب التي آمنت بالله الواحد الأحد .
وحاول السَّمِيدُ أَنْ يقضى على هذه الأسطورة ، واجتهد
رجالها في سبيل ذلك ، ولما لم يتحقق لهم ذلك قرروا شن الحرب على
الجرائمه .. وقاموا يعدون الجياد ويتأهبون لخوض المعركة بكل
ما لديهم من سلاح وعتاد فسُمِّي المكان (أَجْيَاد) "١" .

وعلم مُضَاضٌ - في جباله بشمال مكة - باستعداد
السَّمِيدِ .. فخرج وأصحابه والسلاح في أيديهم يقعقع قعقعة
تتجاوب في أرجاء مكة فسميت جباله (جبال قَعِيقَان) "٢" .

والتقى الفريقان ودار قتال عنيف سفكت فيه الدماء وسالت
على أرض أم القرى التي حرم الله فيها القتل والقتال - ثم التقى
مُضَاضٌ والسَّمِيدُ في صراع رهيب سقط خلاله السَّمِيدُ قتيلاً وفرَّ

(١) أجباد - موضع بمكة بين الصفا وقيل في سبب تسميته . ان تبعاً ربط خيله فيه .
وقيل : كانت به خيل إسماعيل - عليه السلام - وقيل : إن مضاضاً ضرب في ذلك الموضع
أجباد مائة رجل . - ١٠ -
(٢) جبال قعيقان - اسم جبل بمكة ، سمي لقعقعة الأسلحة فيه بين قطوراء
وجرمهم . - ١١ -



الجِزَاهِمَةُ

عندما آلت ولاية البيت إلى مُضَاضٍ ثار السَّمِيدُوعٌ وانفعل
بالغضب وراح يترقب الفرص لانتزاع الولاية منه ، ولما طال به
الزمن دون أن تتاح له هذه الفرصة أخذ ينافسه منافسة النَّدِّ
للنِّدِّ . .

فلما بدأ مُضَاضٌ يَعْشُرُ^(١) التجارة التي يدخل أصحابها
من الشمال لينفق منها على البيت وحجابه صَمَمَ السَّمِيدُوعُ على أن
يَعْشُرَ التجارة ممن يدخل مكة من جنوبها . . ولم يكتف بذلك بل
راح يبيث الدعاوات السيئة عنه وعن الجراهمة بصفة عامة .

وبلغت أنباء هذه الدعاوات سَمَعَ مُضَاضٍ ، فصمَّم على أن
يقابلها بما هو أقوى . . وراح الدعاة من الجانبين يملأون جُودَ
الوادي المقدس بحكاياتٍ مختلفة ، وروايات صنعها خيالهم .

وكانت الغلبة لِدِعاوةِ مُضَاضٍ ، إذ استطاع أصحابه أن
يقروا في نفوس معظم الناس أن نسب الجراهمة يرجع إلى مَلَكٍ من
الملائكة يقال له (عَرَّعَرُ) هبط إلى الأرض من السماء فنزعت عنه

(١) يعشر - أى يأخذ عشر أموالهم . ١٠ هـ .

وظل نابت على طريق أبيه وجده - عليه السلام - وظلت

ولاية الكعبة له .

وكانت قبيلة جُرهم قد تكاثرت في شمال مكة حتى ملأت

الفجاج وجعلتها تضيق على أصحابها الأصليين أبناء إسماعيل -

وكان على رأسها مَضاض بن عمرو الجرهمي ، وهو رجل قوى

الشكيمة عنيف التصرفات تعتبر كلمته بين قومه القانون غير

المسجل ، ولا يجرؤ أحد - مهما كان - على مخالفته .

وكان العماليق قد غطوا جنوب مكة ، وكان على رأسهم

السَّمِيدَعُ «١» ، وكان رجلاً طموحاً عصبياً المزاج يحقد على جُرهم

لصلة النسب بينها وبين إسماعيل وأولاده . . وكان يتحين الفرص

للاقتصاص عليهم والفتك بهم .

وقد حرص نابت على بقاء الوثام بين القبيلتين لئلا تسفك

الدماء في البيت الحرام الذي جعل آمناً للناس ومثابة وحرم فيه

القتل والقتال .

وظل الأمر هكذا حتى وافته المنية فأوصى بالولاية لأخيه

قَيِّدَر ، ولكن قَيِّدَر كان شيخاً ضعيفاً لم يقو على أمور الولاية

فاستأثر بها مَضاض بن عمرو والجرهمي .

(١) السميذع - بالذال المهملة . وبالذال المعجمة ، وصرح بعض اللغويين : ان

إعجابه خطأً في . تاج العروس .

وخرج نابتٌ بإخوته الأحد عشر واتجهوا إلى عَرَقاتٍ وفي نفسه ما فيها من الأسى والألم لمرض أبيه ٠٠ تلك الفارس العملاق الذى لم يقعه شيء فى يوم من الأيام عن العمل فى سبيل الله وفى سبيل نشر دعوته ٠٠ وعندما وقف على عرفةً انطلق لسانه بالدعاء للوالد الحبيب ٠٠ ولم يتوقف لسانه عن تلك الدعاء ، حتى أتم مناسك الحج جميعها وعاد بالناس إلى الحرم فطافوا بالكعبة سبعاً ، ثم تركهم ودلّف إلى أبيه فما كاد إسماعيل يراه ومن خلفه إخوته حتى صاح :

– ادفنونى إلى جوار أمى

ثم لفظ أنفاسه الأخيرة : ٠٠ فانكفأ الأبناء الإثنا عشر على صدر أبيهم العظيم ببيكونه ٠٠ وينرفون الدمع حاراً غزيراً ٠٠ وفجأة رفع نابتٌ رأسه وأشار إلى إخوته أن يتوقفوا عن البكاء وأن يستعدوا لحمل الرسالة التى بدأها جدّهم إبراهيم – عليه السلام – واستمر فى القيام بها أبوه إسماعيل – عليه السلام – وأصبح لزاماً عليهم أن يحملوها من بعد أبيهم ويعملوا على نشرها بين الناس وتنفيذ تعاليمها

فاستمع الأخوة وتراجعوا جميعاً ، ثم توقفوا عن البكاء – وبدأ كل منهم يستعد للقيام بالدور الذى أعدّ له -

مَوْتِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

كَانَ الْهَتَافُ الْخَالِدُ : - (لبيك اللهم لبيك ٠٠ لبيك لأشريك

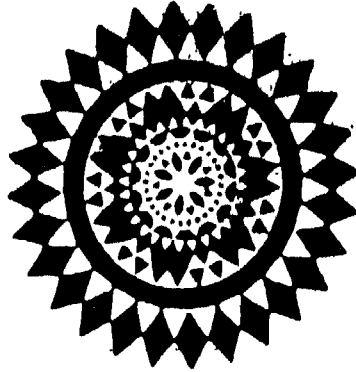
لك لبيك،، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك ٠٠ لأشريك
لك ٠٠) - كان هذا الهتاف الخالد يرتفع من حناجر الألواف من
حجاج بيت الله الحرام فتهتز له جنبات مكة ٠٠ وترتجف له
القلوب الخاشعة المؤمنة ٠٠

وكان نائبٌ يقوم على رعاية الحجاج ويقدم لهم كل ما
يحتاجون إليه من طعام وشراب - بمساعدة من معه من الأهل
والصحاب والعمال ٠٠ عندما أسرع إليه أحد العمال يعلن : أن
المرض قد تضاعف على أبيه - تلك المرض الذي أقعده عن تأدية
مناسك الحج ٠٠ فترك ما هو فيه وأسرع إلى أبيه ليطمئن على حاله
ويرى ما إذا كانت تلك الحال تسمح له بمرافقة الحجاج إلى عرفات
أم لا تسمح بذلك ؟ . . .

ودخل نائبٌ على أبيه فوجد إخوته جميعاً قد جلسوا إلى
جواره - فأتجه إلى أبيه وانحنى على فراشه في حنان وحب ، ثم
سأله عن حاله ، فقال إسماعيل عليه السلام :
- اذهبوا ٠٠ حُجُّوا قَبْلَ أَنْ لَا تَحُجُّوا .

- كيف حالك اليوم يا أبتاه ؟
 فابتسم إبراهيم - عليه السلام - في ارتياح وقال :
 - أصبحت اليوم بارئاً بحمد الله تعالى يا بُنَيَّ .
 ثم جمع أولاده وأحفاده وقال لهم :
 - « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُونَنِي إِلَّا وَاللَّهِ وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ »
 ثم أسلم الروح إلى خالقها .

١٢٢ : ٢



وانتشر دين إبراهيم - بواسطة اولاده الأول وهؤلاء الذين
رزق بهم أخيراً - في ربوع الأرض ، وأصبح له في كل بقعة ، من
بقاعها داعية يدعو باسمه إلى عبادة التوحيد .

وأحس إبراهيم بعد ذلك بأنه قد أدى الرسالة وعمل ما
استطاع على تبليغ دعوة الواحد الأحد ، فركن إلى الهدوء والراحة
في مدينة (حَبْرُون)^(١) أو مدينة الخليل ، كما كانت تسمى
واستأنن إسماعيل في الخروج لدعوة الناس بعد أن جعل
الولاية على الكعبة وشئونها لولده نابت ، فأنن له ٠٠ وطاف
إسماعيل بالكعبة ، ثم ركب جواده إلى تِهَامَةَ بلاد العمالقة
الجبابرة ومنها انطلق إلى اليمن ، وما زال يجوب البلاد داعياً للدين
القيوم مبيداً بنوره ظلمات الجهل والخرافة التي رانت على عقول
الناس طويلاً حتى أسلم من شرح الله قلبه للإسلام ودخل في ملة
إبراهيم من قَدَّر له الخير والسعادة ، ثم أخذ طريقه إلى مكة ٠٠

وهناك علم بمرض أبيه فانتقل على جواده إلى (حبرون) ودخلها
وقد استسلم إبراهيم عليه السلام إلى مرض الموت وكان في كل
لحظة يفتح عينيه ويسأل من حوله : هل وصل إسماعيل ؟ ثم
جأته البشرى بوصوله ودخل إليه إسماعيل في لهفة وقال :

و (١) اسم القرية التي فيها قبر إبراهيم عليه السلام ببيت المقدس ٠ ١ هـ

موت إبراهيم عليه السلام

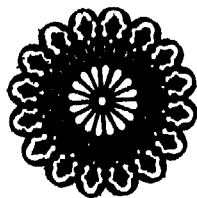
سمع إبراهيم عليه السلام بموت هاجر فقرر السفر الى مكة
 وخرج في قافلة ضمت كل من أراد التعزية في موتها وزيارة الكعبة
 المعظمة ، ولما لاح لهم البيت الحرام من بُعد ارتفعت تلبيةات
 إبراهيم ومن معه ، ولما دخلوه استقبلهم إسماعيل ثم مضوا
 جميعاً فاستلموا الحجر الأسود ، ثم طافوا طواف القدوم ثم
 اتجهوا إلى حجر إسماعيل فوقفوا أمام القبر ، ثم قال إبراهيم
 عليه السلام :

– السلام عليك يا أم إسماعيل ٠٠ لقد وجدت ما وعدك الله
 حقاً ، وإنَّا بك إن شاء الله للاحقون ٠

وعاش الخليل إلى جوار الكعبة فترة كان همَّ إسماعيل فيها
 البحث عن زوجة صالحة لأبيه ، فقد كان في سنِّ وصحة لا
 تسمحان له بالبقاء دون زوجة ترعى صالحه – وتزوج إبراهيم
 عليه السلام من (قنطورة بنت مفلح)^(١) من العرب العاربة
 الذين نزلوا حول بئر زمزم ، فأنجب منها : مثنى ومثين ،
 ويقشان ، وزمران ، ونشق ، وسرج ٠

(١) ويقال قنطورا بنت يقطن الكنعانية وتزوج بعدها حجور بنت امين فولدت له
 خمسة اطفال ٠ كتاب التعريف والاعلام للسهيل ٠

ولما وصل إسماعيل عليه السلام مدينة الخليل علم أن أخاه
 إسحق قد رزق بولدين تَوَّامَيْنِ هما : عِيْصُو ، ويعقوب ٠٠ وقد
 احتفل به إبراهيم وإسحق احتفالا كبيرا ٠٠ بل احتفلت به مدينة
 الخليل كلها احتفالا زادها جمالا على جمالها ، ولكن إسماعيل
 أحس الوحشة وشعر أن كل ما في الأرض لا يغنيه عن الوجود إلى
 جوار الكعبة واستلام الحجر الأسود والصلاة في الحرم ٠٠ فودع
 أباه وأخاه وبقية الأهل والناس وانطلق على الطريق يريد مكة ٠٠
 وما إن وصلها حتى بلغه خبرٌ أزعجه ٠٠ ذلك أن أمه كانت على
 فراش الموت تحتضر ٠٠ وأسرع إليها فإذا هي شاخصة ببصرها
 إلى الكعبة تبتهل في صمت والناس من حولها في صمت رهيب كأنما
 على رؤوسهم الطير ٠٠ وما إن وصل إلى فراشها حتى لاحت على
 وجهها ابتسامة خفيفة ثم لَفَظَتْ أَنْفَاسَهَا ، وبكى إسماعيل أمه ،
 وبكى الأحفاد جدتهم ، وبكى الناس جميعًا تلك المرأة المؤمنة
 الصالحة التي اختارها الله أمًّا للعرب جميعاً
 وُفِنَتْ هاجر في حِجْرِ إسماعيل ٠



— إن أحدهم قد صَادَ بعضًا من حَمَامِ الْحَرَمِ .
فَأَرْسَلَ إِسْمَاعِيلَ إِلَى نِكَالِ الرَّجُلِ وَاسْتَقْدَمَهُ وَسَأَلَهُ عَنِ الْأَمْرِ
فَأَقْسَمَ الرَّجُلُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ وَأَنْ كُلَّ مَا اصْطَادَهُ كَانَ مِنْ خَارِجِ
الْحَرَمِ .

وحتى ذلك الوقت لم يكن للحرم حدودٌ تفصلُ بينه وبين
الْحِلِّ ، فَتَبَهَّتْ هَذِهِ الْوَاقِعَةُ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى ضَرْورَةِ
إِقَامَةِ حُدُودٍ تَفْصِلُ بَيْنَ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ، لِيَكُونَ الْحَرَامُ بَيِّنًا وَالْحَلَالُ
بَيِّنًا .

وعلى الفور قام بإقامة هذه الحدود . . . فجعلها من جهة
الطائف على طريق عرفة من بطن نَمْرَةَ "١" . . . وجعلها من جهة
العزاق ، ومن جهة الْجِعْرَانَةِ "٢" ومن جهة جُدَّة ، ومن طريق
التنعيم "٣" ، ومن طريق اليمِّين .

وانتظر أن يزوره أبوه ليعلم رأيه فيما فعل ولكن إبراهيم
عليه السلام تأخر في ذلك بسبب وفاة سارة ثم زواج إسحق من
رفقا بنت بتواثيل . . . فركب قاصداً أباه للتعزية ، وأخاه
للتهنئة .

(١) نمره — على طرف عرفة بها انصاب الحرم ١٠ هـ .

(٢) الجعرانة — هي بين الطائف ومكة والى مكة هي اقرب ١٠ هـ .

(٣) التنعيم — موضع بقرب مكة في الحل ١٠ هـ .

يقول ابن إسحق :

« كانت مكة لا تُقرّ فيها ظلماً ولا بغياً ولا يبغي فيها أحدٌ على أحدٍ إلا أخرجته ، ولا يُريدها ملكٌ يستحلُّ حرمتها إلا هلك مكانه . ويقال : إنها ما سُمّيت (بيبكة) إلا لأنها كانت تبتكُ أعناقَ الجبابرةِ . . . أى تكسرُ أعناقهم إذا أخذوا فيها شيئاً » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ٢٢ :

• « ٢٥ »

(صدق الله العظيم)

هَوَتْ هَاجِرَةٌ

كانت الكعبة تقف شامخة وسط مكة والحمام يزامل الذين يطوفون بها في طوافهم . . . وإسماعيل قد جلس في ناحية من الحرم يعلم بعض الناس أصول دينهم . . . بينما جلست هاجرٌ في ناحية أخرى وحولها زوجة ولداها وأحفادها وهي تقرأ لهم صُحف جدّهم إبراهيم عليه السلام .

ودخل شاب إلى إسماعيل وتقدم منه يقول :

- ٦٤ -

جاء جبريل عليه السلام فأراه المناسك كلها ، ثم قام إبراهيم عليه السلام على المقام فحمد الله وأثنى عليه سبحانه بما هو أهله ثم قال إبراهيم :

– يا أيُّها الناس إن الله عز وجل بنى بيتاً فحُجَّوه ٠٠ يا أيُّها الناس آجِبُوا رَبَّكُمْ ٠٠ يا أيُّها الناس كُتِبَ عليكم الحج ٠ فأجابوه :

– لبيك اللهم لبيك ٠

وقيل : إن إبراهيم عليه السلام أَسْمَعَ مَنْ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ النِّسَاءِ ، فَأَجَابَ مَنْ آمَنَ وَمَنْ كَانَ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ يَحُجُّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٠ والحج الذي أُنزِلَ بِهِ إبراهيم عليه السلام خامس أركان الدين ودعامة من دعائم الإسلام ٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَاللَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۖ » :

٩٧ « (صدق الله العظيم)

وهكذا استقرت مكانة مكة – أمّ القرى – ببناء الكعبة المعظمة ٠ وأصبحت العاصمة الدينية للمسلمين جميعاً ، ورسخ في الناس اليقين أن مكة بلدٌ مُكْرَمٌ ٠

قال إبراهيم عليه السلام :

— جاءَ به من لم يَكِلْنِي إِلَيْكَ ۝ جاءَ به جبريل — عليه

السلام — يا ولدي ۝

وهكذا بنى إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل — عليهما السلام —
الكعبة المعظمة بأمر من الله سبحانه وتعالى ۝

وكان ارتفاع البناء إلى السماء تسعة أذرع ، وطوله من
الشمال إلى الجنوب مما يلي الناحية الشرقية : اثنين وثلاثين
نراعا ۝ ومن الشمال إلى الجنوب مما يلي الناحية الغربية أحداً
وثلاثين نراعاً ، ومن الشرق إلى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية أى
من الحجر الأسعد إلى الركن اليماني عشرين نراعا ، ومن الشرق
إلى الغرب مما يلي الجهة الشمالية أى من جهة حِجْرِ إسماعيل
اثنين وعشرين نراعا ۝

وجعل للبيت بابين ملاصقين للأرض ، أحدهما : جهة
الشرق مما يلي الحِجْرَ الأسعد ، والثانى : من الجهة الغربية مما

يلي الركن اليماني على سَمْتِ الباب الشرقى ، وحفر بداخله بئراً
يكون كخزانة له ، ولم يجعل له سقفاً ، ولا وضع على فتحات
الأبواب أبواباً ثقلاً وتفتح ۝

وبعد أن انتهى إبراهيم — عليه السلام — من بناء البيت

«أَنَا دَعْوَةٌ إِبْرَاهِيمَ وَبِشَارَةِ عِيسَى وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ
حِينَ وَضَعْتَنِي وَقَدْ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاعَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ» .

وكان إبراهيم - عليه السلام - يبنى ، وإسماعيل - عليه
السلام - يناوله الأحجار ، إلى أن أُقيم البناءُ واكتمل فقال
إبراهيم - عليه السلام - لولده :

— إِيَّتَنِي بِحَجَرٍ آضَعُهُ هُنَا لِيَكُونَ عَلَمًا لِلنَّاسِ مِنْهُ يَبْدَأُونَ

• الطواف

فذهب إسماعيل - عليه السلام - إلى بطن الوادي يبحث
عن حَجَرٍ مُمَيَّزٍ يَضِلُّحُ لَهُذِهِ الْغَايَةِ وَتَأَخَّرَ فِي الْبَحْثِ ، فَجَاءَ جَبْرِيلُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَجَرِ الْأَسْعَدِ ، وَكَانَ اللهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ
هَذَا الْحَجَرَ جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ (١) فِي مَكَّةَ حِينَ غَرَقَتْ الْأَرْضُ فِي
طُوفَانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ••

•• فوضعه جبريل - عليه السلام - في مكانه ••

وعاد إسماعيل فرأى الحجر الأسعد فأخذته الدهشة من
شكله وضوئه فقد كان حجراً يتلألأ بنور وهماج فأضاء بنوره المكان
من حوله •• قال إسماعيل - عليه السلام - :

— مَا هَذَا يَا أَبَتِ ؟ وَمَنْ جَاءَكَ بِهَذَا الْحَجَرِ ؟

(١) جبل ابن قبيس جبل مشرف على المسجد الحرام ، سمي باسم رجل من مذحج •

• أو جرهم • هـ • معجم البلدان لياقوت •

وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۲۲ : ۲۶ « .
 (صدق الله العظيم)

وعلى الفور بدأ إبراهيم - عليه السلام - ومعه ولده
 إسماعيل عليه السلام يزيلان الأطلال ويطهران مكان البيت من
 الصخور والأحجار ، وعندما تم لهما ذلك وظهرت القواعد
 الأساسية للبيت أخذوا معاً في بنائه من جديد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ * رَبَّنَا
 تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ
 نُرِّيئِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
 وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۲ :
 (صدق الله العظيم) ۱۲۷ - ۱۲۹ « .

وقد أجمع علماء المسلمين على أن المراد بالرسول الذي دعانا
 إبراهيم - عليه السلام - ربه عز وجل أن يبعثه في نريته : هو
 محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - ولذلك يقول رسولنا
 الكريم

بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

وَلَبِثَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعِيدًا عَنْ مَكَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا ، فَوَجَدَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبْرِي نَبَالَاً لَهُ تَحْتَ نُوْحَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ زَمْزَمَ .

فَلَمَّا رَأَاهُ إِسْمَاعِيلُ أَسْرَعَ إِلَيْهِ وَعَانَقَهُ فِي حَنَانٍ وَقَامَ لَهُ بِوَأَجِبِ الضِّيَافَةِ . وَبَعْدَ أَنْ اسْتَرَاحَ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَظَرَ إِلَى وَلَدِهِ مُتَفَحِّصًا ، ثُمَّ قَالَ :

- يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ

- فَاصْنَعْ يَا أَبَتِي مَا أَمَرْتُ بِهِ .

- وَتَعَيَّنِي يَا وَلَدِي ؟

- وَأُعِينِكَ يَا أَبَتِي .

- إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هُنَا بَيْتًا .

وَأَشَارَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الرَّبْوَةِ الْحُمْرَاءِ الْمُرْتَفِعَةِ ذَاتِ

الْأَطْلَالِ .

بِنَاءُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا

- آين إسماعيل ؟
- خرج يبتغي لنا .
- وكيف أنتم . : كيف عيشكم ؟
- نحمد الله على ما نحن فيه من خير وسعةٍ ونعمةٍ كبرى .
- ما طعامكم وما شرابكم ؟
- اللحمُ ، والماءُ . . ماءٌ زمزم العذبُ .
- فسرّه قولها هذا وهتف :
- اللهم بارك لهم في اللحم ، والماءِ . ثم قال لها :
- إذا عاد زوجك فأقرئيه السلام ، وقولى له يُثَبِّتُ عَتَبَةَ
بَابِهِ ، فبإِنها صلاح البيت .
- (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ
حَبٌّ . . ولو كان لهم لدعا لهم فيه) .
- وعاد إسماعيل عليه السلام فروت له زوجته ما كان ، فقال :
- هذا أبى ، وقد أمرنى أَنْ أَحْتَفِظَ بِكَ زوجة لى .
- وقد عاشت هذه الزوجة مع إسماعيل وأنجبت له ولده الأول
نابتاً " ١ " ، وقيل : إن الزوجة الثانية لإسماعيل كانت فتاة
مصرية أرسلت أمه في طلبها ، وأنها هى التى أنجبت له نابتاً .

(١) له منها اثنا عشر ولداً أولهم نابت ويعدّه فينذر وأزبل وميشى ومسمع ومانش وبعصا
أرد ويطور ونبش وطليما وقينما ١٠ هـ . (سيرة ابن إسحاق) . وفى ضبط هذه الأسماء
خلاف ، وإسماعيل بنت أيضاً نكرها الطبرى اسمها : نسمة ١٠ هـ .

— إذا جاءَ زوجك فأقرئيه السلام ، وقول له يُغَيِّرُ عَتَبَةَ
بابه .

فلما عاد إسماعيل من الخارج أتى شيئاً فسأل زوجته :

— هل جاءكم من أحد ؟

— نعم جاءنا شيخٌ مُسِنٌَّ تبدو عليه آثار السفر الطويل ،

فسألني عنك فأخبرته . . . وسألني عن عيشتنا ، فشكوت له الجهد
والشدة ؟

فقال إسماعيل :

— وهل أوصاك بشيء ؟

— نعم . . . أمرني أن أقرأ عليك السلام وأقول لك غَيْرُ عَتَبَةَ

بابك .

فقال إسماعيل :

— ذاك أبي . . . وقد أمرني أن أفارقك . . . الْحَقَى السَّاعَةَ

بأهلك .

وعاد إبراهيم عليه السلام إلى سَارَةَ وإسحق ، والفئة التي

أمنت به في أرض كَنْعَانَ وأقام هناك ما شاء الله له أن يقيم ثم رجع

إلى مكة فوجد إسماعيل متزوجاً من شَامَةَ بنتِ مَهْلَهٍ (١)

فسألها :

(١) شامَة بنت مهلهل — قيل : بنت مضاض بن عمرو الجرمي ١٠ هـ : وهي

ثالثة واسمها : رعدة ، وقيل : هي بنت الحارث بن مضاض ١٠ هـ .

الجنوب ٠٠ وما إن وصل إلى مكة حتى أسرع إلى بيت إسماعيل
وطرق الباب ٠٠

وفتحت له صدًا ، فقرأَ عليها السلام فلم ترد ٠٠ وسألته :

— ماذا تريد ؟

— هل من منزل ؟

— لا ٠٠

— وأين إسماعيل ؟

— خرج بيتغى لنا .

— وكيف حالكم ؟

— نحن في أسوأ حال ٠٠ لانكاد نجد القوت الضروري ٠٠

والماء قد غلظ ، فلم يعد يروينا أو يطفىء ظمآننا .
فساءة إن يكون هذا رذها خاصة وأنه يعلم أن الحياة لم
تكن كما ذكرت ٠٠ وإنما كانت رضية هانئة ٠٠ ولم يعجبه أن
تكون هذه المرأة زوجاً لولده الذي يعدّه لحمل الرسالة من بعده ٠٠
فأين هي من سارة التي تحملت ما تحملت في سبيله وسبيل أدائه
لِلرسالة التي اختاره لها الله سبحانه وتعالى ؟ وأين هي من
هاجرَ المؤمنة الصابرة التي كان قدومها عليه خيراً وبركة ؟
وهمت صدًا إن تغلق الباب ٠٠ فصاح بها :

وفي الوقت الذي كان يفكر فيه إبراهيم عليه السلام هذا التفكير كانت هَاجِرٌ تفكر تفكيراً آخر ٠٠ كانت تفكر في زواج ولدها ٠٠ وكانت تريد له زوجة صالحة تكون أهلاً للإنجاب الذرية الصالحة التي وعد الله سبحانه بأن يبارك فيها ٠

وقيل أن تصل هَاجِرٌ إلى المرأة المناسبة لولدها كان إسماعيل قد وافق على العَرَضِ الذي تَقَدَّمَ به العماليقُ إليه ، وهو الزواجُ من (صَدَا) «١» أَجْمَلِ فَتَيَاتِهِمْ ، ولم تعترض هاجر على ذلك وتقبلت زواجه من صَدَا هذه رغم أنها لم تكن راضية في قرارة نفسها عنها ٠

وانصرفت هاجر إلى العبادة وبدأت صَدَا تقوم بنشئون بيتها وزوجها ، ولكنها لم تلبث أن تدمرت وأبدت السخط لانصراف هاجر إلى العبادة ٠٠ بل سخرت منها ومن عبادتها ٠ وأحس إبراهيم عليه السلام أن شيئاً غير عادي قد حدث حيث ترك ولده وزوجته هاجر ، فركب راحلته وانطلق إلى

(١) صدا - قيل هي عمارة بنت سعد بن أسامة بن أكيل العماليقي ١٠ هـ -
(قصص الأنبياء ج ١ ، ص ٢٩٥ لابن كثير)
وفي الروض الأنف اسمها جداء بنت سعد ، وقيل عاتكة ٠ ج ١ ص ١٢ ، واعتقد
أن (صدا) محرف من (السيدة) لأنه قيل في اسم زوجته الثانية (السيدة بنت مصاص)
واختلفوا في المطلقة منها ، والصواب أنها العمليقية ١٠ هـ ٠

يستأنسها - فكان أول من أخضع الخيول وركبها واستعملها في تنقلاته ، وقد سرى ذلك إلى الشباب من جيرانه .

وكان إبراهيم في كل زيارة يمهده بصحف جديدة ومعلومات وتوجيهات وإرشادات ويطلب منه أن يعلمها للناس فكان يفعل ذلك . . . وكانت أمه تساعد فيما يختص بالنساء . . . وقد أقبل الكثيرون على هذه المعلومات فتعلموها وعملوا بها . . . وكانوا ينظرون إلى إسماعيل نظرة الإكبار والإعظام رغم صغر سنه .

ومع ذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام يخاف على ولده من آل جرهم والعماليق . . . فهو يعلم أنهم أحفاد قوم هود وقوم صالح عليهما السلام . . . أولئك الذين لم يقدرُوا نعمة الله عليهم ولم يتقبلوها بالشكر ، وراحوا يتخبطون في ضلالات الكفر والشرك ، فأخذهم عذاب من الله شديد ، وكانت عاقبتهم من أسوأ العواقب - ولهذا خاف على ولده منهم وفكر طويلا في أمرهم - وفي النهاية أسلم الأمر كله لله سبحانه وتعالى وراح يدعوهم في جوف الليل :

« رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ٣٦ ، ٣٥ : ١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَنْبَأُكُمْ فَأَنْظُرُوا مَاذَا تَرَىٰ * قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلِ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّىٰ لِلجِبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا * إِنَّا كَنَّاكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ٣٧ : ١٠٢ :

« ١٠٧ »

(صدق الله العظيم)

زواج إسماعيل عليه السلام

وكبير إسماعيل واستوى رجلاً . وقرأ صُحُفَ أَبِيهِ وَأَخَذَ عَنْ
 أُمِّهِ مَا كَانَ قَدْ صَحَّحَهُ لَهَا أَبُوهُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ عَنِ الْحَيَاةِ وَالْكُونِ .
 وَمَا كَانَ قَدْ عَلَّمَهَا إِيَّاهُ مِنَ الْقَلْكِ وَالْحِسَابِ . وَاشْتَرَكَ إِبْرَاهِيمُ
 وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَمَهَجَّرَ أَيْضًا فِي تَقْلٍ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ إِلَى
 جِيرَانِهِمْ مِنَ الْجَرَاهِمَةِ وَالْعَمَالِقَةِ وَغَيْرِهِمْ . . . وَأَخَذَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ عَنْ جُرْهُمٍ لُغَتَهُمُ الْعَرَبِيَّةَ وَكَذَلِكَ تَعَلَّمَتْ أُمُّهُ . . .
 وَاسْتَطَاعَ إِسْمَاعِيلُ أَنْ يَرُوضَ خَيْولَ الْبَرِيَّةِ الْمُتَوْحِشَةِ وَأَنْ

— يا أبتِ ٠٠ اشُدُّدْ وثاقِي واشحذْ شفرتَكَ فإنِ الموت
شديد ٠٠ وإني لأخشى أَنْ أَضطربَ عنده ٠٠ وكُبِنِي لوجهي على
جبيني ولا تُصِجِّعْنِي لِشِقْيِي فإني ٠٠ أَخشى إِنْ نظرتُ في وجهي
أَنْ تَأخذَكَ الرَّحمةَ فَلَا تُنْفِذَ أَمْرَ اللَّهِ فِيَّ ٠٠ وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرُدَّ قَمِيصِي
على أُمِّي ، فافعل عسى أَنْ يكونَ هذا أَسْئَلُ لها عني .

فقال إبراهيم :

— نِعَمَ الْوَلدُ أَنْتَ يَا إِسْمَاعِيلَ ٠٠ وَنعمَ الْعونُ على أَمْرِ اللَّهِ
وتَهَيَّأْ إبراهيمَ لِلتَّنْفِيزِ وَمَدَّ يَدَهُ بِالشَّفْرَةِ إِلَى وَلَدِهِ وَلكنَ رَحْمَةً
اللَّهُ أَدْرَكَتِ الْغَلامَ فِي اللَّحْظَةِ الْمُناسِبَةِ ٠٠ رَحْمَةً اللَّهِ الَّتِي أَدْرَكَتْ
إِسْمَاعِيلَ طِفْلاً وَأَنْقَذَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ عَطِشاً بِتَدْفِيقِ زَمْزَمَ ، أَدْرَكَتْهُ وَقَدْ
بَلَغَ السَّعْيَ مَعَ أَبِيهِ — فَأَنْزَلَتْ كَبِشاً كَبِيراً نَبِجَهُ إِبراهيمَ فداءً لِابْنِهِ
إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

حَقًّا إِنَّهُ الْبِلاءُ الْعَظيمُ ٠٠ الْأَبُ يُوحِي إِلَيْهِ أَنْ أَنْبِجَ
وَلَدَكَ ٠٠ وَالوَلدُ يَمْتثلُ صابِراً وَيُساعدُ أَباهُ على تَنْفِيزِ أَمْرِ
النَّبِجِ ٠٠ وَحَقًّا إِنَّها الْإِرادَةُ الْإِلَهِيَّةُ الْحَكِيمَةُ الَّتِي شاعَتْ أَنْ
تَصوِّرَ إِحدى شِعارِ الْحِجِّ تَصوِيراً حَسِياً دَقِيقاً لِيُثبِتَ فِي أَذْهانِ
النَّاسِ على مَرِّ الْعُصورِ ٠٠ فَكَلِمًا أَقْبَلَ الْعِيدَ الْأَكْبَرُ تَحَرَّ الْمُسْلِمُونَ
الضَّحايا فِي مَنى ٠٠ وَفي كُلِّ مَكانٍ ٠٠ نَحروها لِلذِّكْرِى الْعاطِرةِ
وَالعَبْرَةِ وَالْموعِظَةِ .

– أتعرفين يا أم إسماعيل أن إبراهيم قد مضى بوليك إلى

الجبل ليذبحه ؟

– لا .. ما أظنه يفعل .. إنه أرحم به وأشد حُباً له من أن

يفقده الحياة .

– إنه يقول : إن هذا أمر من الله إليه .

– إذا كان الأمر كذلك فلا حول لنا ولا قوة أمام إرادة

الله وعلينا جميعاً أن نستسلم لها ونخضع .

فوقف إبليس ينظر إليها في دهشة .. ويعجب من شدة

إيمانها بالله . ولم يتحرك من المكان حتى التقطت سبع حصياتٍ

من الأرض ثم رجمته بها .

وعلى جبل ثبير قال إبراهيم عليه السلام لولده :

– « إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ : أَنِّي أَنْبَحَكَ .. فَانظُرْ مَاذَا

تَرَى ؟ » .

فقال إسماعيل في استسلام :

– « يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الصَّابِرِينَ » .

وقف إبراهيم عليه السلام لحظة يفكر في الطريقة التي ينبح

بها ولده دون تردد أو اضطراب ، وكأنما أحس الولد بما في نفسه

فقال له :

ولم يبتعد إبليس ، بل راح يحاول معه من جديد . . . فالتقط إبراهيم عليه السلام سبع حصياتٍ من الأرض ورجمه بها حتى اختفى .

وكما اعترض إبليس طريق إبراهيم عليه السلام اعترض طريق إسماعيل ، وقال :

— هل تدري ماذا سيفعل بك أبوك ؟

— أبى لا يفعل غير الخير .

— إنه يريد أن ينبحك ، لأنه رأى في نومه أنه يفعل ذلك

ويزعم أن هذا أمر الله إليه

— فليفعل أبى ما أمره الله . .

ولم يقتنع إبليس بقول إسماعيل عليه السلام ، وظل يحاول

إقناعه لكي يهرب من أبيه ، ولكن إسماعيل زجره وطرده . .

فلما لم يبتعد التقط من الأرض سبع حصيات ورجمه بها حتى

اختفى .

ووجد إبليس اللعين أن الأب والابن قد صمما على التنفيذ ،

وعرف أن محاولته لن تجدى معها فاندفع إلى هاجر . . وفي

اعتقاده أن التأثير على المرأة دائما أفضل وأسهل من التأثير على

الرجل — وأقترب من هاجر وقال لها :

يقدمون دماءَ آبائهم قرباناً لِلَّهِمَّ (بَعْلٍ) « ١ » ٠٠ وعزُّ عليه
 أَن يذبح ولده الحبيب ، ولكن حبه لتنفيذ أوامر ربه كان أقوى من
 حبه للولد ٠ فقام يبحث عن إسماعيل ، فلما وجده أمره أَن يأخذ
 سكيناً وحبلاً وَأَن يتقدمه إلى جبل (ثَبِيرٍ) « ١ » فاندفع الولد
 يصعد الجبل كما أمره أبوه ، واندفع إبراهيم عليه السلام خلفه -
 وفي نفسه من الحزن والألم ما فيها ٠٠ وبينما هو يسير في طريقه إذ
 ظهر له فجأة رجل كبير السن وسأله :

- إلى أين آيها الشيخ ؟

- إلى حيث أريد ٠

- وماذا تريد ؟

- وما شأنك أنت ؟

- لقد جئت لتذبح ولدك كما رأيت في نومك ! ؟

فأدرك إبراهيم عليه السلام أَن هذا هو إبليس ، وَأَنه

يعترض طريقه ليمنعه عن تنفيذ أمر ربه ٠٠ فصاح فيه بغضب

- أُعْرِبَ عني آيها اللعين ٠٠ أُعْرِبَ يا عدو الله فلن يمتنعني

عن تنفيذ أمر ربي أَحَدَ مهما كان ٠

(١) بعل - هو صنم كان لقوم اليباس عليه السلام ١٠ هـ - (تاج العروس)

(١) جبل ثبير - هو ثبير منى ، أحد الأثيرة الأربعة ٠ هـ - (معجم ياقوت)

إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْقِدَاءُ

وعاد إبراهيم - عليه السلام - إلى ولده وقد بلغ معه مَبْلَغَ السَّعْيِ ليطمئن على حاله وحال أمه وينقل إليهم بشرى وصول ولده الثاني إسحق . . . فقد حملت سارة بعد كل ما كان من عقمها وجبب رحمها ، وولدت الابن الثاني لإبراهيم . . . فهدأت نفسها وزالت عنها الغيرة والحقد وكل ما كانت تحمله في تلك النفس لهاجر وابنها .

وفرحت هاجر بالخير وهنأت إبراهيم - عليه السلام - كما فرحت بزوال غيرة سارة وحقدما ، وتمنت لو أنها وابنها حجاً إلى مكة والتأم شمل الأسرة ، ولكن إبراهيم عليه السلام أقامها أن إقامة إسحق وأمّه في مكة غير ممكنة . . . فكما أن لإسماعيل ولدها رسالة هنا فإن لإسحق مهمة أخرى هناك .
ونام إبراهيم تحت نوحية بجوار بئر زمزم فرأى في نومه أنه ينبح ولده إسماعيل - فهبّ من نومه مذعوراً واخذ يفكر في هذه الرؤيا التي تعتبر في مقام الوحي ، لأن رؤيا الأنبياء حق .

وتنكر ما كان القدامى يفعلونه بأبنائهم . . . كانوا ينبحون أباكرهم قرباناً للالهة . . . وتنكر أيضاً : أن الكتّانين لا زالوا

أَبَشِرُوا بِالْخَيْرِ الْعَمِيمِ يَا آلَ جَرَّهَمَ ۰۰ لقد وجدت على مقربة
منكم عينا يتدفق الماء منها بغزارة ۰۰ وقد أخضر المكان حولها
وازدان بالثمار الشهية الزكية الرائحة ۰

غَسَّالَهُ رَيْسَ الْقَافِلَةِ :

— وهل وجدت عندها أحداً من الناس ؟
— وجدت امرأة وطفلاً الصغير وقد استأننتها في النزول
بجوارها والسقى من ماء العين ؟ فقالت : نعم ، آتَنَ لَكُمْ عَلَى أَنْ
تَكُونُوا خُسُوفًا مَكْرَمِينَ لِمُتَّصِبِينَ ۰

عَقَلَ رَيْسَ الْقَافِلَةِ :

— نحن على إرادتها وطوع أمرها ۰۰ هيا بنا إليها ۰
وسارت القافلة حتى بلغت مكان زمزم ۰۰ وتم التفاهم مع
مهاجر على البقاء إلى جوار العين ۰۰ وأرسلوا في طلب بقية أهلهم
عَجَّاعًا وَأَقَامُوا الْبُيُوتَ ۰۰ كما جاء العماليق «١» أيضا وأقاموا
البيوت وامتلا المكان بالسكان «٢» ۰

وإذا بالوادئ المقفر المجذب الموحش يَبْيِضُ بِالْحَيَاةِ وَيَصْبِحُ
جَنَّةً مِنْ جَنَّاتِ الْأَرْضِ ۰

(١) العماليق — قوم تفرقوا في البلاد من ولد عماليق بن لاوذ بن إدم بن سام ا هـ —
(معجم القبائل)
(٢) ثم كانت بها ولاية القعوث بن مروملوك كتندة وبنى المحض بن جندل ملوك مكة .
ولاية مكسيم قبيلة عاد وبنهم (انظر الشفاء ج ١ ص ٢٦٢) ۰



نحو حياة جديدة

وعاشت ماجر بولدها إلى جوار زمزم هانئة قريرة العين ..
وزارهما إبراهيم عليه السلام ورأى الصحراء المَجِيبَةَ قد تحولت
إلى جَنَّةٍ وارفة الظلال .. فسجد لله شكراً ثم عاد إلى سَارَةَ يروى
لها قصة المعجزة التي تحققت وسط الصحراء القاحلة المقفرة ..
ومرت على مقربة من المنطقة قافلة لقبيلة كبيرة هي قبيلة
جُرْهُم^(١) ، فلاحظ رئيس القافلة الذي يعرف المنطقة خير المعرفة
لكثرة ما مرَّ بها في رحلاته .. لاحظ أن شيئاً جديداً قد طرأ فغير
أحوال المنطقة ، فقال :

— عجباً يا قوم .. إننى أرى طيوراً تحوم في سماء هذا
المكان وعهدى به بَلَقَعاً .. لاماء فيه ولانبات !
فأجاب أحد رجاله :

— الطيور لاتحلق إلا حيث يوجد الماء .. وأغلب الظن أن
عَيْنًا من العيون قد تَفَجَّرَتْ قريباً من هذا المكان ..
وقررت القافلة إرسال غلامهم يتفحص المكان ويحاول
معرفة ما حدث .. وانطلق الغلام ، ثم عاد بعد ساعة يقول :

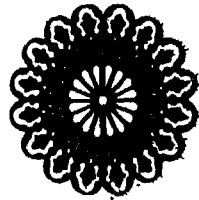
(١) جرهم - نحي من اليمن ١٠ هـ - (جمهرة الانساب)

وبعد أن شكرت هاجر ربيها القادر على كل شيء ، الرحيم
بعباده .. اتجهت إلى المياه التي كانت لاتزال تتفجر - وقالت
وهي تحاول جمعها :

- زُمِّي .. زُمِّي ..

أَيَّ تَجْمَعِي تَجْمَعِي وَلَا تَضِيعِي فِي الرمال ..

ولم تنسرب المياه في الرمال ، بل تفجرت بقوة أكبر وأكبر .
واندفاع أشدَّ وأشدَّ .. ولا تزال تتفجر حتى يومنا هذا من عَيْنِ
زَمَزَمَ التي تقع بجوار الكعبة المشرفة وعلى مقربة من جبل الصفا -
والتي ارتوى منها ويرتوى ملايين الملايين من المسلمين .



الموقف وما تعانيه عن الحقيقة التي استتها بنفسها منذ قليل ..
حقيقة السراب .. وهكذا سَعَتْ هَاجِرٌ سبعة أشواط في حالة
لاشعورية باكية القلب دامعة العين .. ولا هم لها إلا أن تنقذ
طفلها من الموت عطشاً .

وَأَعْيَاها السعَى ونال منها التعب والجهد ، فسقطت على
الأرض إلى جوار الطفل وقد أيقنت بالهلاك لها وله ..
ولكن رحمة الله كانت منها ومن ولدها جِدَّ قَرِيبة -
نعم .. لقد تفجرت المياه فجأة من جوف الأرض وكونت
يُحِيرة صغيرة تحت قدمي الطفل .
ونظرت هَاجِرٌ إلى مَصْدِرِ الصوت الذي وصل إلى سمعها ..
صوت المياه المتفجرة ورأت الماء .. ولكنها لم تصدق أنها ولا
عينيها .. وهتفت متسائلة :

— رياه .. ماذا أرى .. مياها أم سرايا ؟
فمدت يدها إلى الماء وتأكت منه فأسرعت في فَرَحٍ تَبَلُّرٍ
شَقَقِي الطفل ثم أخذت تَسْقِيه حتى ارتوى وهدأت نفسه فشربت
هي الأخرى .. ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت :
— أحملك وأشكر فضلك يا إلهي .. حقاً إنك لن
تَضِيعَنَا .

المَخَاطة بالِجبالِ السُّوداءِ المَخِيفَةِ والمَرْتَفَعاتِ الغِبراءِ الرهيبة ٠٠
وسمعتُ هَاجِرٌ صَوْتًا مِن أعماقِ نَفْسِها يُؤكِّدُ لها أَنَّ العِنايةَ

الإلهية ترعاها وابنتها وتحيطهما بسياجِ رَحْمَتِها ٠

وانتهى اليوم الأول وجاء الليل وأعقبه فجر يوم جديد ٠٠ ثم
تعاقبت الأيام والليالي ، ونَفِدَ الزادُ ومن بعده نَفِدَ الماءَ ٠٠ فصبرتُ
هي واحتملتُ ٠٠ لكن الطفل لم يستطع الصبر ٠٠

بكى الطفل من الجوع ، ثم بكى من العطش ومع مرور

الساعات تَضَاعَفَ آلمُهُ من الجوع والعطش فازداد بكاءهُ ٠٠
وحاولتُ هَاجِرٌ أَنْ تجد لابنها ونفيسها مخرجًا فَسَعَتْ نَحْرَ أَقْرَبِ
الجبالِ وَأَناها من الأَرْضِ ٠٠ سعتَ عَلَّها تَربى أَحَدًا أو تَعَثُرَ على
أثرِ ماءٍ أو حياة ٠

وَحَيَّلَ إِلَيْها أَنَّ لُجَّةَ ماءٍ عِنْدَ المَرْوَةِ "١" ، فَأسرعتُ إِلَيْها
حتى إذا وصلت المكان لم تجد شيئًا فَعادتُ إلى الصَّفَا فإذا بالطفل
يصرخ في ألم مؤلم ٠

فاندفعت مرة أخرى إلى قمة الصفا وأعاتت النظر ونَحَّلَ
إِلَيْها للمرة الثانية أَنَّها تَربى الماءَ عِنْدَ المَرْوَةِ ٠٠ نعم ، لقد أَنهَلها

(١) جبل يعطف على الصفا ، والصفا مرتفع من جبل أبي قبيس بينهما عرض
الوادي ، والصفا والمروة بين البطحاء والمسجد الحرام . ١ هـ ٠

— إنن ٠٠ فالله لا يضيعنا .

ومضى إبراهيم مسافة قصيرة ثم رفع وجهه إلى السماء

وقال :

«رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ يُرْيَتِي بَوَادٍ غَيْرِ نِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْحَرَمِ * رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ وَازْرُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ١٤ : ٢٧ » .

وانطلق على طريق العودة إلى أرض كنعان^(١) وقد امتلأت

نفسه بالحزن والآلم والخوف على فلذة كبده الذي لم تكده عيناه

تكتحلان برؤيته حتى حُرِمَ مِنْهُ وَاضْطُرَّ إِلَى تَرْكِهِ وَأُمِّهِ بِالْعَرَاءِ .

ولكن إيمان إبراهيم عليه السلام كان أقوى من كل هذا وكانت

حكيمته أكبر ، فصبر واحتمل .

لقد أحس إبراهيم عليه السلام أن وراء هذا التوجيه الإلهي

ما وراءه من الخير للبشرية كلها ، فمضى مستسلماً قانعاً بما سوف

يكون .

أماً هاجراً . . . فقد جلست تداعب طفلها بيدها بينما

كان عقلها يفكر لقد شاعت الإرادة العليا أن تكون وابنتها

وحيدتين لاحول لهما ولا قوة وسط هذه الصحراء الجرداء المقفرة

(١) هي الأرض المقدسة ، وكنعان هو ابن حام جد القبائل . ١٠ هـ

ومنذ تلك اللحظة المباركة الميمونة بدأت مرحلة أخرى من
 مراحل قصة الكعبة المعظمة - أول بيتٍ وُضِعَ للناس - .
 وهناك عند مكة توقف إبراهيم عليه السلام عن السير ،
 ومكة حينذاك مكان قَفْرٍ لا حياة فيه ولا ماء ، ولا يكاد يُلْمُ به سوى
 نفرٍ من البهو الرَّحْلِ يتنقلون هنا وهناك وراءَ الماءِ والمرعى .
 وتقدم إبراهيم عليه السلام حتى وصل إلى رَبْوَةٍ حمراء كانت
 قائمة هناك وفوقها أطلال مُهْتَمَةٌ . تقدم حتى وصل الرَّبْوَةَ .
 وهناك ترك هَاجِرَ وإسماعيلَ واتجه يريد العودة من حيث جاء -
 فَتَهَلَّتْ هَاجِرٌ وهي تراه يُبِيرُ عَنْقَ دابته عائداً ، وأمسكت بلجامِ
 الدابة وصاحت :

- لن نتركنا في هذا المكان البَلْقَعِ الذي لا حياة فيه ولا ماء ،
 ولا يقصده إنسان ، ولا يَقِطُنُهُ غيرُ الوحوش والأفاعى والهوام ؟!
 فلم يَجِبها إبراهيم عليه السلام بكلمة واحدة . فنظرت إليه
 تَسْتَرْجِمُهُ ، ولكنه انطلق صامتاً دامع العينين . فصرخت من
 مكانها :

- آلهُ أمرك بهذا ؟!

فَجَابها إبراهيم عليه السلام :

- نعم .

فجالت هَاجِرٌ - في استسلام المؤمنة الصالحة الإيمان - :

– قد سمعت لك في إسماعيل إني أباركه وأبارك نريته ، يلد
أثنى عشر أسباطاً أمماً ، وأجعله أمة عظيمة ؟

فقال إبراهيم عليه السلام :

– الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من المؤمنين .

• ثم خرّ ساجداً لله عز وجل .

وهكذا أسعد ميلاد إسماعيل عليه السلام إبراهيم عليه
السلام وقرّرت به عينه – بينما أشعل مولده نيران الغيرة أكثر وأكثر
في نفس سارة العاقرة – وامتد لهيب هذه الغيرة يأكل قلبها في
ضراوة ما بعدها ضراوة .

وداح إبراهيم عليه السلام يحاول مع سارة علّها تعود إلى
حالتها الطبيعية ، ولكن عبثاً كان يحاول ، فقد ازداد التّيعاها
وتعاستها وأصبحت تصرخ ألماً كلما سمعت بكاء الطفل أو
ضحكه . . . ولم يعد أمام إبراهيم إلا أن يبعد هاجراً وابنها عن
البيت حتى لا تراهما سارة أو تسمع صوتهما . . .

واستخار إبراهيم ربه ، فأوحى إليه أن يركب دابته
ويصطحب الطفل وأمه ويسير حيثما توجهه العناية الإلهية . . .

ونفذ إبراهيم ما أمر به على الفور ، وسار بهما يضرب في القيات
والقفار .

يقول لها :

— يَا هَاجِرُ ، قد سمع الله ضراعتك ، وسوف يَهَبُ لك ولداً
نَكَرًا فَسَمَّيْهِ : إِسْمَاعِيلَ — أَيْ المسموع من الله — لَأَن الله سمع
صلاتك وابتهاك ، وسوف يباركه ، ويكثر نسله تَكثِيراً ٠

كان هذا حال هاجر ٠٠ أما سارة فقد كان لها حال
آخر ٠٠ نعم لقد استيقظت الغيرة في قلبها كَأَقْوَى ما تكون
الغيرة ٠٠ وكانت — المسكينة — تجتهد في كتبها والقضاءِ عليها ،
ولكنها لم تفلح ٠٠ فذهبت إلى زوجها وقالت له :

— لقد دفعت إليك بهاجر ، فلما حملت ترفعت عليّ وتعال

فَأَجَابَهَا إِبْرَاهِيمُ : هِيَ صاحبك تفعلين بها ما تشائين ٠
وراح عليه السلام يَنْكُرُهَا بما كان من تحذيره لها ونصحه
وما كان من إصرارها وتصميمها ٠٠ ولكنها لم تهدأ ولم تستقر
وظلت على غيرتها وشقائها بهذه الغيرة ٠

وجاءت اللحظة الحاسمة ، ووضعت هاجرُ إِسْمَاعِيلَ ،
واستقبل إبراهيم — عليه السلام — البشري سعيداً وراح يصلي لله
شكراً وحمداً ٠٠

ثم اندفع إلى الطفل وحمله بين نراعيه وهو يقول :

— رَبِّ إِنِّي أُعِيدُهُ بِكَ وَنُرِّيْتَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٠

وَأَوْحَى اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ وَخَلِيلِهِ :

• تعيش معها ومع زوجها إبراهيم .

ولم تنتظر سارة حتى تُكْمِلَ هَاجِرُ صَلَاتَهَا ، وإنما أخذت

طريقها إلى صومعة إبراهيم ، ثم قالت له :

– لقد فكرت في الأمر واستقرى التفكير عند رأى أرجوان

تأخذ به ؟ فرجع إبراهيم عليه السلام رأسه ونظر إليها متسانلاً ،

بينما استطربت هي تقول :

– والرأى الذى استقر عليه تفكيرى هو ان تتزوج هاجر

الوفية الكريمة المؤمنة ، فقد تنجب لنا الولد الذى يحقق وعد الله

سبحانه ، ويدخل البهجة على قلوبنا ، ويضيء جنات حياتنا

المقفرة المحرومة من الخصب والابجاب .

وحاول إبراهيم عليه السلام أن يعترض عليها مبيناً لها أن

هذا الفعل قد يسيء إليها في المستقبل أو يكون سبباً في شقائها ،

ولكنها صممت ، فاستجاب إبراهيم وبخل بهاجر .

• وحملت هاجر ، ففرح إبراهيم وفرحت الفئة المؤمنة به .

وأخذت هاجر تصلى لله شكراً وتقول :

– رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ . . . رَبِّ

اجعله من الصالحين ؟

ونامت هاجر ليلاتها قريرة العين ، سعيدة بفضل الله الذى

اختارها لتنجب نريةً لئيبه وخليله إبراهيم . ورأت في نومها من

أَيْضًا أَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ۰۰ فَتَنَدَّرْتُ — كَمَا تَقُولُ بَعْضُ
الرَّوَايَاتِ — أَنَّ تَرْضَعُ أَلْفَ طِفْلٍ يَوْمًا أَنْ تَضَعَ طِفْلَهَا ۰

ومضت السنوات بون أن يمنحها الله الولد ۰ فراحت تفكر
في تزويج إبراهيم بأخرى تنجب له ذلك الولد ۰ وعزّ عليها أن
تفعل ۰ وفي نفس الوقت شقّ عليها أن لا تفعل ۰ ولم تلبث أن
سقطت فريسة صراع جبارٍ أسلمها إلى حالة مرضية عجز الطب عن
علاجها ۰ وقامت هاجرًا أثناءها بكل ما يلزمها من عناية
ورعاية ۰

وفكرت سارة وهي في فراش مرضيها في هاجر هذه المؤمنة
الصالحة ۰ وقالت لنفسها :

— لِمَ لَا تَكُونُ هَاجِرًا هِيَ الزَّوْجَةَ الَّتِي تَمْنَحُ إِبْرَاهِيمَ الْوَلَدَ
وَتَمْنَحُ الْأُسْرَةَ كُلَّهَا السَّعَادَةَ ؟ لِمَ لَا تَكُونُ هِيَ الْمَوْعُودَةَ ۰ وَقَدْ
أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَشْرَفَهَا وَيَكْرِمَهَا فَيُرِطَ بَيْنَ بِلَادِهَا وَبَيْنَنَا
الْأَسْبَابُ ؟

وقامت سارة من فراش مرضيها وسارت حتى وصلت مكان
هاجر فوجدتها تصلي في إيمان وخضوع فجلست تتأملها في
صلاتها وتسترجع قصتها من البداية ۰ وهنا وضحت لها
الحكمة الإلهية السامية التي جعلتها تُؤَسِّرُ وَتُنْقَلُ إِلَى مِصْرٍ حَيْثُ
تَعْرِفُ بِهَا هُنَاكَ وَتَتَلَقَّى بِهَا ثُمَّ تَحْضُرُ مَعَهَا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ حَيْثُ

– يعز على أَنْ أَرَاكَ حزيناً على الولد الذى حرّمته منى

يأبى الله .

– إنها إرادة الله يا ابنة العم . . . وعلينا أَنْ نخضع دائماً لما

أَرَادَهُ اللهُ سبحانه .

وانصرفت سارة دامعة العين حزينة كاسفة البال

واستأنف عليه السلام ما كان فيه . . . كان يصلى ويبتهل إلى الله

عز وجل أَنْ يَمُنَ عَلَيْهِ بِرِضَاهُ وَأَنْ يَتَقَبَلَ صَلَاتَهُ . . . وشعر أبو

الأنبياء بما كان يشعر به كلما اقترب الوحي منه . . . واستقرّ في

أُذُنَيْهِ الكريمتين صوت يقول:

– ارفع عينيك إلى المشرق والمغرب فسوف يعطيك الله هذه

الأرض ويورثها نريتك وسوف يجعل في نريتك النبوة والكتاب

وفرّج إبراهيم بوعده الله سبحانه ، ولكنه كان يتساءل بينه

وبين نفسه – كيف تكون له نرية وهذه زوجته عقيم لا تلد ؟ وانتهى

من صلواته ، فترك صومعته واتجه إلى سارة وقال لها :

– سيهب الله لى من الصالحين . . . سيكون لى الولد الذى

أشتهيته يا ابنة العم . وفرحت سارة أيضاً . . . ولكنها لم تلبث أَنْ

وجمت . . . فقد تنكرت أنها قد وصلت من العمر ما يجعلها قادرة

على تحقيق رغبة زوجها ومنحه الولد الذى يريده . . . ولكنها تنكرت

سبحانه وتعالى .. وتعلقت كل منهما بالأخرى فلم تستطع فراقها .

وعندما جاء الخبير بقرب سفر سارة آبتهات هاجر إلى الله آلا يفرق بينها وبين سارة ، وأن يجعلها ترحل معها إلى حيث تذهب .. واستجاب الله عز وجل إلى دعائها فأمر الملك بأن تكون في صحبة سارة عند سفرها .

اسمكِ

واستقر إبراهيم مع سارة وهاجر بأرض كنعان وسط الطائفة التي آمنت به .. وعاشوا حياة رضية هائلة لا يعكر صفوها إلا حنين إبراهيم إلى الولد .. تلك الحنين الجارف الذي آقضى مضجعه وجعله يقضى الليالي والأيام حزينا مفكرا .. وكانت سارة تتألم هي الأخرى لهذا الحرمان وتدعو الله أثناء الليل وأطراف النهار : أن يمنَّ عليها بولد تقرُّ به عين زوجها .. ولكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب لدعواتها. لحكمة خفيت عليها . ومرت السنوات والحال كذلك .. وذات يوم دخلت سارة على زوجها صومعته التي يتعمد فيها وقالت :

والخدم والحشم ٠٠ أما هي فقد بقيت في مكانها ٠٠ ويدخل الجنود إلى غرفتها وعرفوا - من التاج الموضوع فوق رأسها - أنها أميرة القصر فحملوها إلى قائد الجيش الذي حملها بدوره إلى الملك .
وما إن مثلت هاجر بين يدي الملك حتى آهانها وأذلها وعيرها بجبن زوجها ، ثم أمر بنزع التاج عنها وضمها في قصره إلى الحریم كبقای الجوارى ٠٠ وامتثلت هاجر لما فرض عليها ولم تعباً بالحال الجديدة التي أصبحت فيها ٠٠ فقد كانت مشغولة بذلك التفكير الجديد الذي طرأ عليها ٠٠

وللمرة الثانية وقف عقلها حائراً لا يستطيع الوصول إلى الإجابة المقنعة .

وجاءت سارة إلى القصر وزاملتها هاجر ٠٠ ورأتها دائماً الصلاة والذكر والتسبيح ٠٠ وأحست هاجر بنفسها تنجذب إلى سارة فسألتهما وتحدثت سارة عن دين إبراهيم ٠٠ وكانت هاجر تستمع بكل حواسها إلى كلمات سارة ٠٠ وشعرت بهذه الكلمات المضيئة تستقر في أعماق نفسها ٠٠ وشرح الله قلبها لهذا الدين ٠٠ فدخلت فيه ، وآمنت به ، واستقرت روحها الحائرة على شاطئه الأمين .

وتعلمت من سارة كيف تصلى وكيف تسبح وكيف تذكر الله



هَاجِرُ الْعَرَبِ



هى الأميرة هَاجِرُ ٠٠ سيدة القُطْرَيْنِ ٠٠ وأميرة مَنْف^(١) ٠٠
وزوجة مليكها ٠٠ وكانت قد آمنت بآلهة قومها المتعددة ٠٠ تلك
الآلهة التى قال عنها الكهان : إنها تحمى المصريين وتدافع عنهم
وتحارب من أجْلهم ٠٠ بل تقاتل بالسلاح فى صفوفهم ٠٠ فلما
حدث وهاجم الهكسوس زوجها وخرج لحربهم لم تتخيل أبداً أن
الهكسوس ينتصرون على زوجها ويقتلونه شرقتلة ٠٠ فلما حدث
هذا راحت تسأل نفسها : لماذا آمنت بهذه الآلهة التى لا تستطيع
أن تفعل شيئاً لمن آمن بها ؟!

ولما لم تجد عند نفسها الجواب أخذت توجه السؤال إلى
الكهان واحداً بعد واحد ٠٠ وعجز الكهان عن تقديم الإجابة
المقنعة ، فكفرت بتلك الآلهة التى لا تضر ولا تنفع ، والتى تعدت
أسمائها وتنوعت وظائفها ، والتى فسد كل شيء فى الدولة
بسببها .

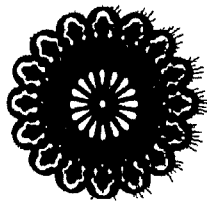
وبدأت هَاجِرُ تفكر تفكيراً جديداً ٠٠
وهاجم الهكسوس قصرها ٠٠ وهرب كل من فيه من الأهل

(١) مَنْف - هو اسم مدينة فرعون بمصر ، لم ينكرها ياقوت ام -

الكهان على الملوك وكبار الموظفين وتحكمهم تحكماً كاملاً في جميع
مرافق الدولة وشؤونها رغم أن في عقيدة المصريين بعض ما في عقيدة
التوحيد التي يدعو لها .

علا علم الملك برغبته في الرحيل حمله الكثير من الهدايا
والعطايا . . . كما سمح لهاجر أن تذهب مع سارة . . . وكانت
هجر قد صالقت سارة أثناء محتتها بين يدي الملك ، وكانت عوناً
لها في تلك المحنة . . . كما كانت سارة قد تعلقت بها وأحببتها
خاصة بعد أن حدثتها عن الدين الذي يدعو له زوجها . . . فانشرح
قلب لهاجر لهذا الدين وآمنت به .

وتحرك إبراهيم بسارة وهاجر ومن حضر معه وبعض من
آمن به من المصريين عائداً إلى أرض كنعان .



ضيوف على^{٥٠} فانزلوا على الرحب والسعة^{٥٠} وأنعموا في قصرى
بأفضل ما فيه من خدّمات وخيرات .

والتقى إبراهيم عليه السلام بسارة واطمأن على حالها^{٥٠}
وفي اليوم التالى عقد الملك له جلسة حضرها الكهنة وكبار رجال
الدولة تحدث فيها إبراهيم عن الدين الذى يدعو له^{٥٠} ثم دار بينه
وبين الكهنة حوارٌ طويل قام بعده الملك وهو حائر لا يعرى من أمره
شيئاً^{٥٠}

لقد استقر كلام إبراهيم في نفسه وأدخل إليها شعاع جديد
من نور قوى لم يعرف مثله من قبل .

واستمر إبراهيم عليه السلام بمصر يدعو الناس إلى
الوحدانية ، وكان لطيف العبارة قوى الحجة ، يستميل القلوب
والعقول معاً إلى ما يقول^{٥٠} فأقبل عليه الناس وأقبل الكهنة وقد
اجتنبهم بينه القويم^{٥٠} ولكن حبّ الكهنة للاحتفاظ بالسيطرة على
البلاد وعلى الملوك أنفسهم وقف بينهم وبين اعتناقه^{٥٠} وبقي
إبراهيم عليه السلام ماشاء الله له أن يبقى في مصر ، وزار جميع
المعابد في جميع البلاد ، والتقى بكبار الكهنة ورجال الدين
وناقشهم وناقشوه ، ثم استأذن الملك في الرحيل وقد تأكّد عنده أنّ
وادي النيل لا يصلح في هذه الفترة لاحتضان الدعوة التى يدعو
بها ، وإن يتيح الفرصة لرسالته كى تنتشر بسهولة بسبب سيطرة

رئيس وزرائه لإبراهيم وأصحابه وقال : إنهم قد جاءوا يطلبون إطلاق سراح سارة زوجة إبراهيم ، وأنهم على استعداد لدفع وزنها ذهباً . فقال الملك باهتمام ولهفة :

– أدخلهم على الفور .

وبدخل إبراهيم عليه السلام مع رئيس الوزراء وخلفه بعض أصحابه إلى قاعة العرش ، وتقدموا حتى مكان فرعون ، ثم سلّموا دون أن يسجدوا . . . فهتف بهم رئيس الوزراء :

– اسجدوا للملك

فقال إبراهيم عليه السلام :

– نحن لا نسجد لغير الله سبحانه وتعالى .

فهم رئيس الوزراء بأن يؤثّيبهم على ذلك ولكن الملك صاح فيه أن يسكت فسكت . . . وهنا التفت الملك إلى إبراهيم وقومه وقال :

– من فيكم إبراهيم ؟

فقال عليه السلام :

– أنا أيها الملك . . . قد جئت أفتدى امرأتى التى أسرها رجالك . فقام الملك إليه وأخذه بيده ثم آجلسه إلى جواره على مقعد العرش ، ثم قال له :

– لن أقبل فدية فيمن حفظها الله . . . ويكفينى ما رأيت وعلمت من أمرها . . . أنا سعيد بقدمك . . . وأنت ومن معك

فشكّلت يده فصاح متوسلاً :

— إذا كان قولك هذا حقاً .. فأدعني إِلَهك يطلق يدي
فدعت سارة ربيها ، فأطلق يده .. وبدلاً من أن يشكرها الملك على
ما فعلت أخفّته العزة بالإثم ، ومد يده إليها ثانية يحاول
ضمها .. وهنا شكّلت يداها الاثنتان وتجمّد في مكانه لا يستطيع
الحركة .. فصرخ متوسلاً راجياً سارة مستعظفاً إياها أن
تدعو الله مرة أخرى مؤكداً أنه لن يفكر في الإضرار بها بعد ذلك
أبداً .. وهنا دعت سارة الله ، فأطلق سبحانه يده .. فسألها
الملك مذهولاً :

— من أنتِ ؟

— امرأة مؤمنة بالله الحق .. وقد أغار جنودك على قومي
وحاربوا زوجي وأسروني .
— ما اسم زوجك ؟
— إبراهيم — عبد الله — ومبعوثه بالدين القيم إلى الناس
جميعاً .
— انهبى .. فأنت حُرّة .

وخرج الملك من حجرة سارة وهو يفكر تفكيراً عميقاً في كل
ما حدث بينه وبين هذه المرأة .. واتجه إلى قاعة العرش وجلس بها
لحظات وهو ما يزال مستغرقاً في ذلك التفكير العميق .. واستأنز

بمسكٍ بها ولكن يده شلت قبل أن تصل إليها ٠٠ ففزع وامتلاً قلبه
بالرهبة والرعب وعاد إلى حجرته يفكر في الأمر ٠

وفي الليلة التالية ٠٠ دخل الملك إلى حجرة سارة وراح
يحاول من جديد فحدث له ما حدث في الليلة الأولى ٠٠ فازداد فزغه
وخوفه وخرج من الحجرة مسرعاً واستدعى الكهنة وشرح لهم
الموقف وطلب رأيهم فقالوا :

– إنها شيطانة ٠٠ شيطانة خطيرة ٠

فطلب السحرة وسألهم ٠٠ فقالوا :

– إنها ساحرة كبيرة ٠

وخصَّنه الكهنة بما يبطل سحر الساحرين

وبدل الملك إلى سارة مطمئناً إلى النتيجة، فإذا هي مستغرقة

في صلاتها ٠٠ فوقف يتأملها حتى انتهت ثم تقدم منها وسألها :

– ما هذا الذي كنت تفعلينه ؟

– الصلاة ٠٠ كنت أصلي الله سبحانه وتعالى ٠

– الله؟! ومن هو الله ؟

– ربُّ السموات والأرض وما بينهما ٠٠ الواحد الأحد ٠٠

الفرد الصمد ٠

فضحك الملك مقهقهاً ٠٠ فهو لا يتصور وجود إله واحد لهذا

الكون ٠٠ وهو يعبد عشرات الآلهة - ومد يده يريد أن يضمَّها

الكَتَّانِيُونَ الَّذِينَ آرَعَجَهُمْ وَجُودَهُ وَخَافُوا مِنْ مِيلِ النَّاسِ إِلَى دَعْوَتِهِ
فَاسْتَعَانُوا عَلَيْهِ بِفِرْعَوْنَ مِصْرَ الَّذِي أَرْسَلَ جُنُودَهُ فَهَاجَمُوا إِبْرَاهِيمَ
وَقَوْمَهُ وَأَسْرُوا الْكَثِيرَ مِنْ رِجَالِهِ وَنِسَائِهِ وَبَيْنَهُمْ زَوْجَتَهُ سَارَةَ ۞
وَبَدَلَ قَائِدَ الْجَيْشِ إِلَى فِرْعَوْنَ - مَلِكِ مِصْرَ - وَسَجَدَ بَيْنَ
يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

- مَوْلَايَ فِرْعَوْنَ الْعَظِيمِ ۞ لَقَدْ هَزَمْنَاهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ ۞
وَجِئْنَا بِرِجَالِهِمْ أَسْرَى وَنِسَائِهِمْ سَبَايَا ۞ وَفِي النِّسَاءِ وَاحِدَةٌ لَا
يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِغَيْرِ مَوْلَايَ ۞
فَقَالَ الْمَلِكُ :

- عَلَيَّ بِهَا ۞ أَسْرَعُ آيَهَا الْقَائِدَ ۞ أُرِيدُهَا عَلَى الْفُورِ ۞
وَجَرَّ الْقَائِدَ مَسْرَعًا لِيَعُودَ بَعْدَ قَلِيلٍ وَخَلْفَهُ سَارَةَ الَّتِي كَانَتْ
هَادِنَةً مَطْمَئِنَّةً ، لَا يَتَوَقَّفُ لِسَانَهَا عَنِ التَّسْبِيحِ وَنُكْرِ اللَّهِ ۞ وَمَا
كَادَ الْمَلِكُ يَرَى جَمَالَهَا الْبَاهِرَ ، وَحُسْنَهَا الْأَخَّاذَ حَتَّى آمَرَ ، بِإِغْدَاقِ
الهِدَايَا الْقِيَمَةَ عَلَيْهَا وَالْمَلَابِسِ الْغَالِيَةِ وَالْحُلِيِّ الثَّمِينَةِ ۞ وَلَكِنْ
سَارَةُ الْعَفِيفَةُ الْمُؤْمِنَةُ رَفَضَتْ كُلَّ هِدَايَا الْمَلِكِ وَعَطَايَاهُ وَصَمَّمَتْ عَلَى
رَفْضِهَا ۞

وَذَهَلَ الْمَلِكُ لِهَذَا التَّصَرُّفِ مِنْهَا ۞ وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا يَحَاوِلُ
إِغْرَاءَهَا بِكُلِّ الْوَسَائِلِ ۞ وَلَكِنْ عَبَثًا نَهَبَتْ مَحَاوِلَاتِهِ سُدِّي ،
فَغَضِبَ وَثَارَ وَصَمَّمَ عَلَى أَنْ يَفْتَضِبَهَا بِالْقُوَّةِ ۞ وَمَدَّ يَدَهُ يَرِيدُ أَنْ

ومضت قافلة الإيمان حتى عبرت نهر الفرات وانسابت في
بادية الشام حيث دعا الناس إلى دين الله الواحد الأحد ٠٠ وحطت
إلى جواره قافلة مصرية فراح يدعوها أيضاً إلى دينه الجديد ٠٠
وآمن به الكثير من أهل دمشق ومن أفراد القافلة المصرية ٠
ولم تلبث أن قامت الحرب بين إبراهيم والكهنة ، فحاول أن
يدعوهم إلى السلم بالحكمة والموعظة الحسنة ٠٠ فهدوه بالرجم
والعذاب الآليم ٠٠ وصمموا على القتال ٠ فقال لمن معه :
— أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٠

وتراعى الجمعان وبدأ الصراع وانفج إبراهيم بين الصفوف
يقاتل في سبيل الله ٠٠ وأيد الله الذين آمنوا وألقى في قلوب
المفسدين الرعب فولوا متبرين ٠٠ وباتت دمشق تحت سيطرة
إبراهيم ٠٠ فراح ينشر الدين القويم بين ربوعها ٠٠ ويدعو إلى
عقيدة التوحيد ٠٠ ثم أمر إبراهيم رجاله بالاستعداد للرحيل من
جديد إلى حيث يشاء الله ٠

وانطلقت قافلة الإيمان التي بارك الله فيها حتى بلغت وادي
(شكيم) « ١ » ٠ فاستراحوا قليلاً ثم انطلقت القافلة إلى الغرب
حيث وصلت بيت إيل (بيت الله) ٠٠ حيث كان

(١) غير اليهود اسمها إلى سوخار ١٠ هـ

توكلت وعلى الله فليتوكل المتوكلون

ويدأ إبراهيم يدعو الناس إلى دينه الجديد ، ولقى من قومه
الجاحود والنكران ٠٠٠ فاتهمه البعض بالكتب ، واتهمه البعض
الآخر بالجنون ؟!

وفي يوم العيد دخل الناس إلى المعبد يتقدمهم الملك ٠٠ فإذا
بالأصنام كلها مَحَطَّمة إِلَّا كَبِيرَهَا ٠٠ فعرفوا أن إبراهيم هو الذي
فعل ذلك ٠٠ فقبض عليه وقُدِّم للمحاكمة ٠٠٠ وصنِّر عليه الحكم
بالموت إحراقاً ٠٠ وأقاموا بناءً ضخماً أوقدوا فيه النار وآلقوا
إبراهيم إليها وسط احتفال كبير احتشد له الجميع .
ونجا إبراهيم عليه السلام من الموت الذي آرادوه له بفضل
الله سبحانه وتعالى : « قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على
إبراهيم » .

وبعد هذه الحادثة هاجر إبراهيم من مدينة (أور)^(١) مع
زوجته سارة وابن أخيه لوط وأصحابه المؤمنين ٠٠ ودخل مدينة
(حاران)^(٢) ٠٠ ودعا الناس إلى دينه فلم يستجيبوا ٠٠
وحاربوه حرباً لا هوادة فيها ٠٠ ثم قرروا قتله ٠٠ فأوحى إلى
إبراهيم أن يخرج بأهله فيضرب في الأرض إلى حيث يشاء الله .

(١) ويقال لها (حور) أيضاً . ام .

(٢) موقعها ما بين الفرات وخابور .

— آ إِلَهَ غَيْرِ مَرُدِّح ، وَنَانًا ، وَشَمَّاش ، وَآلِهَتِنَا الْعِظَام ؟

— إِلَهَ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مَلَكِهِ ۰۰ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

بَيْنَهَا وَهُوَ الْقَابِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ۰

— مَنْ عَلَّمَكَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمَ ؟

— هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَشَرَحَ صَدْرِي لِدِينِهِ

• الْحَقُّ

— وَمَنْ أَنْرَاكَ أَنْ رِيكَ هَذَا إِلَى هَذَا الدِّينِ ؟

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ فِي إِيمَانٍ عَمِيقٍ :

— إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ۰۰ وَقَدْ بَعَثَنِي رَسُولًا

لَأَدْعُو النَّاسَ لِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ۰۰ وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وَنظَرْتُ سَارَةَ إِلَيْهِ فِي دَهْشَةٍ ۰۰ فَمَا يَقُولُهُ يَخْتَلِفُ عَنْ كُلِّ مَا

عَرَفْتُهُ مِنَ الْكُهَّانِ وَرِجَالِ الدِّينِ ۰۰ وَلَكِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْقَلْبِ مَبَاشِرَةً

فِيضِيءُ جَنَابَاتُهُ بِنُورِ جَمِيلِ حَبِيبٍ ۰

وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ يَدْعُو آبَاءَهُ وَأُمَّهُ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَسْمَعَا لِنَصِيحَتِهِ

وَيُؤْمِنَانَا بِدَعْوَتِهِ ، وَإِنَّمَا سَخَّرْنَا مِنْهُ ۰۰ وَقَالَ أَبُوهُ :

— لَنْ أَعْبُدَ إِلَّا مَا كَانَ آبَائِي يَعْبُدُونَ ۰

قَالَ إِبْرَاهِيمُ

— أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۰۰ وَحَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

— « هذا ربي ... » ؟
ولكن الكوكب لم يلبث أن اختفى وتركه في صحراءٍ تفكيره تائهاً
حائراً .
واستمر إبراهيم يخرج إلى الصحراء يراقب النجوم ليلاً . . .
وكلما رأى كوكباً قال : « هذا ربي » . . . فإذا أقل الكوكب كفر
به وعاد إلى حيرته .

وقيل : إنه كان يسخر بذلك من قومه عبدة الكواكب
ويستعمل معهم في الإرشاد أسلوب التهكم .

وبذل إبراهيم المعبد يوماً وتقدم إلى تمثال الإله مردوخ
ولنتزعه من مكانه وألقى به بعيداً . . . فاندفع الناس حوله في فزع
من غضب الآلهة وكانوا أن يفتكروا به ، فوقف أبوه بينهم وبينه
وصرخ فيه :

— أيها المجنون ماذا فعلت ؟ ألا تخاف غضبة الآلهة

عليك ؟

واستمر إبراهيم على كراهيته لأصنامهم حتى كبر وتزوج
من ابنة عمه سارة .

واستيقظت سارة في إحدى الليالي فإذا إبراهيم يصل

فسألته :

— ماذا تفعل يا إبراهيم ؟

— أصلي لله . . .

وسمع الكهنة نداءه وثاروا عليه وعلى أبيه الذي حاول ضربه ، فاندفع إبراهيم يجرى هارياً بما بين يديه حتى وصل إلى شاطئ الفرات فوضع التماثيل إلى جواره وجلس مفكراً . . . وفجأة خطر له أن يسخر من هذه الأصنام فأخذها إلى الماء وغمس رؤوسها فيه (وقال) :

– اشربوا . . إنه ماء عذب . . لماذا لا تشربون ؟

ورآه بعضهم فنقل هذا إلى الكهنة الذين زانت ثورتهم عليه .

وعلم أبوه بما كان منه فغضب عليه وأقسم أن يضربه . . فهرب منه إلى سرداب البيت واختفى بين التماثيل الموضوعة هناك . . ومضت الساعات وهو في جلسته يتأملها . . ورأى الحشرات على اختلافها تسعى على وجوه الآلهة تلتق أعينها وتدخل في آذانها ، فقال لنفسه :

– عجباً . . كيف يسجدون لآلهة لا تملك أن تصد عنها

حشرات صغيرة حقيرة تعبت بها على هذا النحو؟! . .

وانطلق إبراهيم إلى الصحراء ثانية وفي نفسه لهفة . . كان يريد أن يعرف من هو الإله الفعلي لهذا الكون . . وساعده هدوء الصحراء وصفاء سمائها على تركيز تفكيره ، وارتفع في السماء كوكب وراح يتلألأ . . فقال إبراهيم بفرح :

التنجيم واللاهوت ٠٠ واستطاع بتأملاته الخاصة أن يتعاطف مع الكون الذي يعيش فيه ٠٠ وأن يقيم لنفسه حياة خاصة تقوم على التفكير فيما يراه بمجمعه من صور رهيبة ٠٠

فهؤلاء الكبار من قومه وأصحاب الرأي والفكر يعبدون آلهة من الخشب والحجر يصنعونها بأيديهم ٠٠ وهؤلاء كهنة المعابد يرتكبون الموبقات ويسمون العاهرات مقدسات ٠٠ وهذا ملك البلاد قد تأله على الناس وطالبهم بأن يسجدوا له ، وينابوه بآله الملوك ٠

وهفت نفس إبراهيم عليه السلام إلى الابتعاد عن هذا المجتمع ، فاتجه إلى الصحراء وراح يقضى فيها الساعات يفكر في صمت ٠٠ كان يقلب وجهه في السماء وهو يقول :

— لا بد لهذا الكون من إله واحد ٠٠ هو الذي خلقه ٠٠ وهو

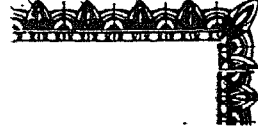
الذي يسيره ٠

وتفقدته أبوه يوماً فلم يجده فبحث عنه ثم حمّله كمية من الأصنام وطلب منه أن يبيعهها أمام المعبد ٠٠ وكان أبوه قاسياً معه هذه المرة ، فلم يسمح له بالاعتراض أو الرفض ، فرضخ إبراهيم وسار بها إلى المعبد ٠٠ وهناك وقف ينادى :

— أيها الناس معي أصنام لا تضر ولا تنفع ٠٠ أيها الناس من يشتري بضاعة لا تضر ولا تنفع ؟ ٠٠



إبراهيم عليه السلام



ولد إبراهيم عليه السلام في مدينة (لُور) .. وكانت أمه قد جاءها في المنام من يقول لها : ستضعين نكراً - فإذا وضعتها فسميه (إبراهيم) - ولم يكن زوجها (آزز) موجوداً حين الولادة ، فنكرت مرات في نومها لوالد زوجها (نَاحُور) فقال : اسم عظيم .. معناه (أبو القبائل .. أو أبو الأمم) .. وقد رأيت في نومي : أن نوراً خرج من صلب ولدي آزز . فأضاء السماء .. سيكون لوليك هذا شأن عظيم .. سيقترن اسمه بنجوم القبة الزرقاء .

وعاد الأب من سفره وفرح بولده وبالاسم الذي أطلق عليه . وكبر إبراهيم ورأى أباه يسجد للأصنام التي يصنعها فسأله كيف يسجد لما يصنعه بيديه ؟! فحلول الأب أن يقنعه بأنّها رموز للآلهة .. أما الآلهة الأصلية فهي في السماء جالسة على عروشها .. فلم يقنع إبراهيم .. فقال الأب : صبراً يا بني حتى تكبر ويتسع أفق فهمك وعندئذ سوف تدرك كل شيء .

وكبر إبراهيم .. فأرسله أبوه إلى بيت جده (نَاحُور) ليتعلم الحساب واللغة والفلك وعلم النجوم .. وتميز إبراهيم على التلاميذ جميعاً وأظهر ميلاً إلى التعمق في دراسة

الطُوفَانِ

وكان المفروض أن تظل الحال كذلك لولا أن جاءت فترة من الزمن ارتد فيها الإنسان عن الإيمان وغلبت عليه عبادة الأوثان في ظروف غير واضحة الرؤية ، فراح يتخبط في دياجير الجهل والظلام .

وأراد الله سبحانه أن يعيده إلى حظيرة الإيمان فأرسل إليه نوحًا عليه السلام ينصحه ويرشده ويوجهه إلى ما فيه خيره وصلاح أمره . . . ولكنه أبى واستكبر وأخذته العزة بالكفر فلم يستجب لدعوة نوح عليه السلام . . . وكانت النهاية تلك الطوفان المتمر الذي لم يُبق على أحد من الكافرين والمشركين حتى وُلِدَ نوح الذي اعتصم بالجبل فلم يَعِصْهُ وغرق مع الغارقين .

ويعد هذا الطوفان اندثر موضع الكعبة وظل مختفيًا إلى أن بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم . وكان الناس في ذلك العهد قد نسوا ربهم . . . ولم يعد الإنسان يتجه إلى الكعبة أو يطوف بها أو يلبى عندها ، وإنما اتجه إلى الأصنام يصنعها من الحجارة أو الخشب بيديه ثم يعبدها من نون الله .

فلما عصى آدم وحواء ربهما وأكلا من الشجرة التي نهاهما
عن الأكل منها قال تعالى : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوًّا
ولكم في الأرض مستقرٌّ ومَتَاعٌ إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلماتٍ
فتاب عليه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۚ ۲ : ۳۶ » .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما :
ابنيا لى بيتاً ، فحطَّ لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحواء تنقل
التراب حتى أجابه الماء ، ونودى من تحته : حسبك يا آدم .. فلما
بنيا أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يطوف به وقيل له : أنت أول
الناس وهذا أول بيت .. ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم
القواعد » .

وقال الفخر الرازى : إن آدم عليه السلام لما اهبط إلى
الأرض شكوا الوحشة وقال : يارب .. ما لى لا أسمع أصوات
الملائكة ولا أحسهم ، فأمره عز وجل ببناء الكعبة والطواف بها .

وقد بنى آدم عليه السلام الكعبة على القواعد المثبتة في
الأرض وطاف بها ، ومن بعده طاف أولاده ويقى ذلك إلى زمان نوح
عليه السلام .. فقد ظال الإنسان يلوذ بالكعبة ويطوف بها وهو
يريد تلك الهتاف الخالد : (لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك
لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك) ..

خلق الله آدم عليه السلام من طين « من صَلَّصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » ثم نفخ فيه من روحه فحدث فيه الحياة وصار بشراً سوياً ، ثم خلق له زوجته من نفسه وأسكنه وإياها الجنة .

وَوَحَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى آدَمَ أَنْ انكِرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فَقَدْ خَلَقْتُكَ بَشَرًا سَوِيًّا وَفَضَّلْتُكَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَقَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَخْلِفَكَ فِي الْأَرْضِ لَتَعْمَرَهَا وَتُصَلِّحَ فِيهَا بِأَمْرِي لَا أَنْ تَفْسُدَ فِيهَا وَتَسْفِكَ السَّمَاءَ ٠٠ وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَ إِبْلِيسَ فَهُوَ عَدُوٌّ لَكَ ، وَقَدْ آتَيْتُهُ مِنْ رِجْتِي وَطَرَبْتُهُ مِنْ جَنَّتِي وَأَنْزَلْتُ بِهِ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ « ٠٠ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٧ : ١٩ » ٠٠٠

« إِنْ لَكَ إِلَّا تَجُوعٌ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ، وَأَنْتَ لَا تَطْمَأُنُّ فِيهَا وَلَا تَنضَحُ ٢٠ : ١٨ ، ١٩ » ٠

وعز على إبليس أن يطرد من رحمة الله ويبعد عن الجنة ليسكنها آدم وزوجته ، وأن يحرم من نعمها وما فيها من سعادة وخير ٠٠ فصمم على أن يثأر لنفسه ٠٠ أن ينتقم من آدم وزوجته ، فراح يغيرهما ويغيرهما حتى آكلا من الشجرة

بعد البيت المعمور . ويقول المحققون : إنه إذا ثبتت قصة البناء قبل الخليل عليه السلام فهو بناءٌ تأسيس فقط .
ويقال : إنها كانت مُعْطَاةً بِيَأْقُوتَةَ حَمْرَاءَ رُفِعَتْ بِمَوْتِ آتَمٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وعن علي رضي الله عنه قال : "إِنَّ أَوَّلَ خَلْقٍ هَذَا الْبَيْتَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ :

" . . . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَسِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنْ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۚ ۲ : ۳۰ . . .
وقال علي رضي الله عنه : "ثُمَّ غَضِبَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ ، فَطَافُوا بِعَرْشِهِ سَبْعًا — كَمَا يَطُوفُ النَّاسُ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَيَقُولُوا يَسْتَرْضُونَهُ مِنْ غَضَبِهِ سُبْحَانَهُ يَقُولُونَ : لِيَبْكِ اللَّهُمَّ لِيَبْكِ . . . رَبَّنَا مَعْنَرَةً إِلَيْكَ . . . نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيْكَ . . .
فَرَضَى عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ ، وَأَوْحَى إِلَيْهِمْ (أَنْ ابْنُوا بَيْتًا فِي الْأَرْضِ يَطُوفُ بِهِ مِنْ عِبَادِي مَنْ أَغْضَبَ عَلَيْهِ فَأَرْضَى عَنْهُ كَمَا رَضِيتَ عَنْكُمْ)

وكانت هذه هي بداية تلك الهتاف الخالد الذي رددته ولا تزال تترده الملايين عبر العصور والقرون : (لِيَبْكِ اللَّهُمَّ لِيَبْكِ . . . لِيَبْكِ لَا شَرِيكَ لَكَ لِيَبْكِ . . . إِنْ الْحَمْدُ وَالنِّعْمَةُ لَكَ وَالْمُلْكُ)



بَدَايَةُ الْبِنَاءِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام * وكان

عرشه على الماء * لِيَتْلُوَكُمْ آيَاتِهِمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ ۱۱ : ۷ » .

(صدق الله العظيم)

كانت الكعبة غناءً على الماء قبل أن يخلق الله سبحانه

وتعالى السموات والأرض ، ثم دحاها - أى بسطها - ثم ثبت

قواعد الكعبة فى وسطها فكانت سُرَّةَ الأَرْضِ وأُمِّ القُرَى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« والأرض بعد ذلك دحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

وَمَرْعَاهَا » . ۷۹ : ۳۰ ، ۳۱ (صدق الله العظيم)

والواقع أن التاريخ يقدم لنا عن الكعبة ما يملأ ألوف

المجلدات والأسفار منذ أن ثبتت الله عز وجل قواعدهما على الأرض فى

تلك العهد السحيق الموعلى فى جوف الزمن إلى عهدنا الحالى .

على أن معظم الفترة الأولى من قصة الكعبة قد غاب عن

واعية التاريخ أكثر تفاصيلها - ولكن المعروف والذى تُجمع عليه

كل المراجع أنها بنيت قبل آدم عليه السلام ، وأن الملائكة هم

الذين قاموا بتشبيد أول بناء لها - وقد شيده تحت مركز العرش

وتَهليلات • وتقدمت خطوات مأخوذة مبهورة • وصليت في كل ناحية من نواحيها ، ثم اسندت رأسي على أحد العمد وأطرقت ووجدتني أعود يفكرى إلى بعيد • • بعيد جداً • • إلى تلك اللحظة الموهلة في جوف الزمن السحيق • • عندما ثبت الله سبحانه وتعالى قواعدهما على الأرض لتكون أول بيت وضع للناس متعيدياً ومسجداً • •

ودار شريط الذكريات أمام خيالي يعرض قصة الكعبة المعظمة التي يرويها هذا الكتاب •
أيها القارئ الكريم • •

لست أدعى أنني قد جئت بكل ما كان من الأحداث التي دارت حول الكعبة عبر القرون والعصور • • ولست أدعى أنني قد استطعت بين دفتي هذا الكتاب أن أوجز تاريخها العريض المجيد • • ولكنها محاولة اجتهدت فيها مسندة إلى عشرات المراجع ، وفي مقدمتها جميعاً القرآن الكريم وأحاديث النبي محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم •

والله أسأل أن أكون قد وفقت في عمل هذا الذي لا أبغى به غير وجه الله تعالى •

والسلام عليكم ورحمة الله • •

« أمينة الصاوي »

Bibliotheca Alexandrina



0413027

